عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة
الانسان بين العلم والبيئة
البيئة والجريمة
بيئة العصر بين البقاء والفناء

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة اشهر عن وزارة الاعلام فى الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الاعلام - الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

الانسان والبيئة

★★★

آفاق المعرفة

★★★

أدباء وفنانون

★★★

عرض الكتب

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم

الانسان والبيئة



شهدت السنوات العشر الاخيرة زيادة كبيرةفى اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ،والتغيرات التي تطرأ عليها واساليب التعامل معها والاضرار التى تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان فىاستغلال مواردها الطبيعية ، والى اى حد ينعكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح انهذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى مايمكن ان تقدمه الطبيعية للانسان من ثروات ،او الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها عن هذه الثروات والموارد ، وافضل الأساليبلاستغلالها ، وانما كان ، بالاضافة الى هذا كله ، يحاولالكشف عما لحق بالبيئةالطبيعية مناضراروأذى قد يصعب علاجها أو تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم. وقد انعكس هذا الاهتمامفي ثلاثة أمور : ـ

الأمر الاول : هو كثرة الكتابات التي تهدفالى تنبيه الاذهان الى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعيةوطريقةالمحافظةعليها،والابقاء علىمايعرفباسم التوازن الايكولوجي (اى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتى قد تودى بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم والشك عن مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ماقد يكون فى هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك عن جانب هام من العلاقات المعقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق أن يلقى الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الأمر الثانى : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، وأثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة. وكان من أهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر أخطار البيئة الذى عقد فى استكهولم عام ١٩٧٢، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة باجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان عن طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة عن العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، قلما كانت تلقى ما تستحقه من عناية واهتمام . **وسوف يجد القارىء فى هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .**

الأمر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية بانشاء وزارات واقسام وادارات واجهزة حكومية لشئون البيئة، يكون من أهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا فى اكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من أهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء لهم مكانتهم واهميتهم فى الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والاسكان . ومن أهم ما يضطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين اعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها لتوفير حياة أفضل للاهالى. والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد انشأت وزارات لشئون البيئة تعنى فى المحل الأول بأمور المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الامريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين فى شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصح والمشورة في كل مايتعلق بأمور البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الايكولوجى الدقيق .

وواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد أنفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بأمور محددة يمكن اجمالها فى التالى:

١ ــ الاعتراف بموقف الانسان المعادى للطبيعة ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التي يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه أن مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة فى عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة فى اشباع هذه الاحتياجات .

٢ ــ على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بامكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا عن عدم وضوح الرؤية أمام الكثيرين عن مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليد ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر فى النقطة التالية .

٣ ــ النظر الي المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بأن مشكلة تلوث البيئة والاضرار التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق فى المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحلّ مشكلات البيئة يجب ان تنبع أساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقة بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على أسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ؛ ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من أجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى أن علاج الموقف يجب أن يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي فى الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر فى تلويثها ، وانه هو الذى يعانى من هذا التلوث فى آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ماهي وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، تبعا لمدى تقدم المجتمع أو تأخره وأنماط الحياة السائدة فى هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوته وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل أو بآخر ، وان كانت هذه التغييرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة أكثر وضوحا فى الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التي سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ فى المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة لــهولمتطلباته ، وانما كان يشكل ظروفه ومواقفــه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على أن يكيف نفســه مع الأوضاع الايكولوجيــة العامة . وبقول آخر كان الانسان فى هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ماتقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها فى طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية وللامراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا أو تفسيرا ، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الاقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يردهذه الكوارث والامراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه واكثر قدرة وعنفا ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية اخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له فى المستقبل القريب نظرا لعجزه عن فهم المنطق الذى تسير عليه الطبيعة والقوى التى تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل مايصدر عنها ، بل انه كان يعمل على ان يتقرب اليها ، ويتضرع ويتذلل لها مادام عاجزا عن التحكــم فيها . ويذهب كثير مــن العلمــاء ، وبخاصة علماء الانثربولوجيا ، فى القرن التاسع عشر الى أن هذا الموقف المستسلم العاجز امــام الطبيعة والقوى الكونية هو الذى ادى فى آخــر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل مافيه من خوارق وغيبيات . فالدين فى نظر هؤلاء العلماء يقوم اساسا على فكرة التسليم بوجود قوى ــ أيا ما تكون طبيعتها ــ يعترف الانسان بضعفه أمامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم فى مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو فى هذه النظــريات مــن طرافة فمن الصعب تصور الانسان فى اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة ، وانما الاغلب ان الانسان بحكم طبيعــة تكوينــه وملكاته وقواه الطبيعية كان يقف موقفا أشــد ايجابية من البيئة مما تحاول هــذه النظــريات تصويره وابرازه ، وان كان هذا الموقف الايجابى أقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكــم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية فى الماضى . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى فى أبســط اشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذى لا يخلو من تدمير الطبيعة أو بعض مظاهرها ومقوماتهــا ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك فى أثناء معركة الحياة التى كان يخوضها حتى يضمن بقاءه ووجوده واستمراره ....

ظهر هذا مثلا فى مرحلة قنص الحيوان التى تعتبــر من المراحــل المبكرة فى تطــور المجتمــع الانسانى .. فقد كان الانسان المبكر ــ على مايبدو يبالغ ويغالى مغــالاة شــديدة فى مطاردتــه الحيوانية الطبيعية ، وهــذا فى حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير مــن فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا فى حد ذاته يعتبر تغييرا هاما فى البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الايجابــي مــن ناحيــة ثانيــة فى اكتشــاف الانســان للنــار ،

واستخدامها على نطاق واسع فى حرق الخشب والحطب بل واحيانا فى اشعال غابات باكملهـا ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلويث للبيئة ، وان كان هـذا التلـوث ضئيلا فى تلك الازمنة نظرا لضآلة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي الا نغفل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير فى الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائـق تنشـب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، أو تشتعل بطريقة متعمدة ومن صنع الانسان نفسه فى الغابات ومناطق المراعى والاحراش . وكل هذا معناه ان تأثير الانسان فى البيئة كان قديما ويرجع الى اقدم العصور ، كما يرتبط بكل أشكال الحيـاة الاجتماعيـة والاقتصاديـة مـع اختلافات فى الكم وليس فى النوع . وهذا لا ينفى بطبيعة الحال ان مشكلة اختلال العلاقة بين الانسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر الا بعد ان أحرز المجتمع الانسانى تقدما ملحوظا فى التقدم الصناعى والتكنولوجى وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك فى أن ارتقاء المجتمع الانسانى وتقدمه يرتبطان ــ فى احد جوانبهما على الاقل ــ بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوناتها لصالح الانسان، وكذلك القدرة على التحكم فى هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الانسان واشباع احتياجاته ومتطلباته . وبقول آخر فان تقدم الانسان والمجتمع يمكن أن يقاس ليس فقط بمدى تحرر الانسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وأيضا فى قدرتـه علـى اخضاعها لرغباته والتحكم فى مكوناتها . والواقع ان التقدم التكنولوجى الرائع الذى احرزه الناس خلال جميع مراحل تاريـخ التطـور البشرى ، والذى وصل الى ذروته فى القرن الحالى ، قـد ساعد على تصور الطبيعة على انها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لاشباع احتياجات الجنس البشرى التي كانت ولا تزال تتزايد باستمرار واطراد . ولقد ترتب على ذلك كله أن بدأت النظرة الى الطبيعة والـى البيئـة تختلف ، كما بدأت اتجاهات الانسان ومواقفـه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرأ عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الادراك ، اعنى ادراك الانسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد اصبح الانسان يشعر انه فوق الطبيعة، او على الاقل انه يسير مع الطبيعة علـى قـدم المساواة ، بعد أن كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه فى آخر الامر انه من الخطأ أن ننظر الى مشكلة البيئة على انها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نغفل أبعادها الاجتماعية والانسانية، وذلك لأن الانسان هو بالضرورة أحد العوامل أو العناصر الاساسية فى البيئة ، باعتباره على الاقل عامل التغيير فيها وموضـوع التأثـر بهـا والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، او الابادة واحداث الضرر ، كما أن حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشـر فى آخر الامر بما يطرأ على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو اننا سلمنا بذلك واعتبرنا الانسان هو أحد مكونات البيئة الاساسية فان أية دراسة للبيئة لابد ان تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من ان تتعرض لكثير من الامور المتشابكة المعقدة التي يمكن ان نشير الى بعضها هنا ، مثل : ـ

١ ـ الاسس الفيزيقية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة او المشكلات الايكولوجية ، وهي أسس معقدة الى أبعد حدود التعقيد .

٢ ـ الظروف الايكولوجية من حيث انها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحياها الافراد والمجتمعات ؛ بل وأيضا على نفس مشكلة الوجود الانساني وامكان استمرار الجنس البشرى فى الوجود ، وامكانيات الانسان على التكيف .

٣ ـ النتائج السيئة المترتبة على التغيرات الايكولوجية سواء على المستوى المحلى أو الاقليمى او العالمي .

٤ ـ الامراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التغيرات الايكولوجية ، وهى مشكلات يمكن حلها اجتماعيا عن طريق اعادة النظر فى النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمعات المختلفة ، واعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك اعادة النظر فى سلوك الانسان ازاء البيئة ، وموقفه منها ونظرته الى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، فى آخر الامر ، ضرورة ان يراجع الانسان نفسه ويعيد النظر فى القيم الاجتماعية السائدة فى المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارىء فى مقال الدكتور حسن الرصفاوى مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الامراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ ـ التفاعل القوى بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتساندها الوظيفى ، وهى امور تتصل اتصالا وثيقا بالمشكلات الانسانية . (وثمة أمثلة كثيرة لذلك يجدها القارىء فى مقالات الدكتور محمود أحمد الشربينى ، والدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، والدكتور أحمد أبو زيد) .

وكل هذا خليق بأن يبين لنا فى آخر الامر ان الاضرار التى يلحقها الانسان بالبيئة التى يعيش فيها انما تنجم عن افتقار الناس او معظمهم على الاقل الى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الانسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المغالاة فى الاقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الانسان وتقدم له كثيرا من الخدمات وتوفر عليه كثيرا من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق فى الوقت ذاته أشد الضرر والأذى بالبيئة كما هو الحال مثلا فى تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنها من نفايات وبقايا وابخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى المناداةبضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه أحيانا اسم « اخلاقية الارض » - كما ترد فى مقال الدكتورابو زيد - اى وجود نظرة جديدة أو اتجاه جديد وموقف جديد لعلاقة الانسان بالبيئة . وفى ذلكيقول الاستاذ ليوبولد Leopold وهو من أكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلواجهودا كبيرة فى تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة اخلاقية المحافظة على الارضحين ننظر اليها على انها مجتمع ننتمى اليه وبذلك يمكننا أن نستخدم الارضبطريقة تنم عنالحبوالاحترام . وليس هناك سوىهذه الوسيلةلكىتساعد الارض على الصمود أمام وطأة الحياة الآلية التىتسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد امامنا نحن لكى نحصد من الارضالمحصول الجمالى الذى هى قادرة على أن تنبته- بفضل العلم - وتسهم به فى الحضارة الانسانية .ان النظرة الى الارض على أنها مجتمع هى الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارضواحترامها هو امتداد طبيعى للاخلاق الانسانية. ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارضقادرة على أن تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عنالاذهان فى العصور الحديثة ». (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع أن نميز فى هذا الصددبين موقفين مختلفين أشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التي يعيش فيها . فأما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام فئة قليلة - ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار - من الناسممن يهتمون بالمحافظة علىالبيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات علىمقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على أساس أن اي تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فىالطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير منالمضاعفات والتأثيرات الجانبية الضارة السيئة. الا أن هذه الدعوى تجد كثيرا من المعارضةوالمقاومة من فئات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهي فئات تتهم أصحاب حركة« الصراع من اجل البيئة » بانهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ،وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد ان ترفع من مستواها الاقتصادى والمعيشى والاجتماعى عن طريق التنمية الاقتصادية التىتحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى ابسط صورها في استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف الموقفين من البيئة يعكس - الى حد ماعلى الاقل - اختلاف المستوىالاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاءعلى مقوماتها الطبيعية من الجماعات والفئات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد انتتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهى تعارض اى تدخل من جانب الانسان ،وتعتبره تشويها واساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمشتغلون بالتخطيط فى الناحية الاخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم ان التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الانسان والمجتمع لن يقصر عن ايجاد وسيلة للتغلب على اخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وانه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من اضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فانه فى آخر الامر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن اذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الامر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى ان الطبقات الفقيرة فى اى مجتمع تهتم اولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من اخطار ، فالظاهر أنه من الصعب التغلب على هذه الاخطار وايقافها تماما ، وانه يتعين على العالم أن يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وان يتعين عليه فى الوقت ذاته أن يعثر على حلول تقلل من هذه الاخطار التى يبدو انها تهدد نفس وجود الانسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة أو الصراع من أجل البيئة » التى أشرنا اليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الاذهان وتجنيد كل القوى للوقوف فى صف البيئة ومعها ضد عوامل التخريب ، كما تحرص أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وان كان يصعب التغلب عليها .

والواقع أن المشتغلين بهذه المسألة يرون أن الخطر الاكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة أخرى هامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل انحاء العالم وبالذات فى العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق أن عالجناها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو ان الازدياد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من اعادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية أيا كان نوعها من ناحية اخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الاغارة على المناطق الخلوية ؛ بل واحيانا على الاراضي الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا فى حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدحمة بالسكان . ويزيد الامر سوءا ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الاعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق فى هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الارض لكى تجرى فوقها وسائل المواصلات ، بل ان انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيرا من الضجة والضوضاء ، التى يعتبرها الكثيرون صورة اخرى أو شكلا آخر من أشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلا عن ازدياد مخلفات السكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها أمور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارىء لها صدى فى اكثر من مقال فى هذا العدد ، بل وفى اعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف فى الامر حقا هو ما يضيفه كثير من العلماء المحدثين الى هذا كله من أن التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء العطلات ، له دخل كبير جدا فى تغيير البيئة وغزو الطبيعة والاغارة عليها والحاق الكثير من الاضرار بها . ولقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها الى اعتبار السيارة اعدى اعداء الطبيعة ، وبالتالى اعدى أعداء حركة المعركة من اجل البيئة . ذلك انه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الانسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته أثناء العطلات قاصرة على الاماكن المحدودة التى تصل اليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للانسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل فى السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط أو قيد على تحركاته ، وأصبح الانسان حرا فى أن يذهب الى حيث يشاء والى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك امكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكى يمضى فيها عطلاته ، وازداد بالتالى تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار . فليس اقدر من الانسان على تشويه جمال الطبيعة البكر فى الاماكن التي يمضى فيها عطلاته وأوقات راحته بما يحدثه من تغيير وما يتركه وراءه من مخلفات . ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة يأخذها فى الاعتبار الكثيرون ممن يعارضون الآن فكرة جعل الاسبوع اربعة ايام عمل فقط بدلا من خمسة أو ستة أيام لاتاحة وقت أطول للفراغ والراحة والترفيه للناس مادام الانتاج لن يتأثر بتقصير مدة أيام العمل نظرا لازدياد الاعتماد على الآلات فى الانتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، انما المشكلة الحقيقية هنا هى ما يلحقه الناس أثناء هذه العطلات أيام الراحة الطويلة من اضرار وأذى بالبيئة الطبيعية . وربما كان هذا أيضا هو أحد العناصر التي تتضمنها حركة ايجاد اخلاقية

للارض . ومن يدرى فقد يكون فى نجاح الدعوةالى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظـةعليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدى فى حالـة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالى الحدمن انتشار المستوطناتالبشرية والمساكنوالطرق ووسائل المواصلات فى النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة العويصةالتي يبدو انها تواجه العلماء الآن هى : كيف يمكن التوفيق بين الرغبةفى المحافظة على البيئةالطبيعيةمن ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصـاديـة وتوفير حد أدنىلرفاهية الانسان منناحية اخرى؟او بقول آخر كيف يمكن التوفيق بـين رغبـات الاغنياء والقادرين والموسرين الذيـن يحاولـونالاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبـات ومطالـب الفقراء الذين لا يهمهم فى المحل الاول شيء قدرتوفير العيش ؟ وكل هذا خليق بأن يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق أن ذكرناه من أن مشـكلةالعلاقة بين البيئة والانسان هى مشكلة اجتماعية فى المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معينوشكل افضل للحياة ، سواء فى المجال الجمالى الفنى أو الاقتصادى . ولا تزال الحلـولتعـوزالانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتـين تحـت ظـروفاجتماعية بالغة القسوة .

* * *

أحمد أبو زيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة فى كل قرن ان تستطيع احدى القضايا الهامة أن تفرض نفسها على الناس جميعا من مختلف الاجناس والطبقات والاديان . ولقد اصبحت مشكلة البيئة الفيزيقية التي نعيش فيها احدى هذه القضايا .

(وليام روكلهاوس)

افلحت « قضية البيئة » فى ان تفرض نفسها بشكل قوى منذ أوائل السبعينات ، وذلك حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء لاتزال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، والى اى حد يمكن أن تؤثر فى مصير الانسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فان الآراء تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « ازمة بيئية » او « ازمة ايكولوجية » قد تقلب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن فى المستقبل القريب او البعيد . بل ان الذين يظهرون شيئا من التشكك فى ضخامة المشكلة واهميتها انما يبنون احكامهم على الاوضاع القائمة فى المجتمعات التي يعيشون هم فيها دون ان يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى انهم لايعطون

لمشكلة البيئة أولوية مطلقة ، وذلك على أساس أن مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لأخطار ومتاعب اخرى يجب حلها أولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى أن تحل هذه المشكلات العاجلة .

ولقد بدأت « **حركة البيئة** » بما يطلق عليه الآن اسم « **يوم الارض** » **Earth Day** وذلك حين تقدم فى عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين فى بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة فى أمريكا ، ببعض النداءات التى تدعو الى بذل الجهد لانقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة أن وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين فى شكل مؤتمر عقدته هيئة الأمم فى استكهولهم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من أكبر المظاهرات العلمية ـ بل والفوغائية ايضا ـ التى شهدها العالم فى أى وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه فى عام ١٩٧١ أى قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد أن كانت الأذهان قد تنبهت فعلا الى خطورة المشكلة ـ انفق رجال الصناعة فى أمريكا مايزيد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء فقط ، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الامريكية خطة لانفاق ثلاثمائة بليون دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأعوام العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، أى بواقع ثلاثين بليون دولار كل عام . وفى الوقت ذاته خصصت بريطانيا اكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير انهارها ، كما خصص الاتحاد السوفييتي بليون دولار لتطهير مياه نهرى الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليقة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان أفضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « انصار البيئة » او أصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتهويل والمغالاة التي لاتقوم على اساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة انفسهم ، نظراً لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وتقبلها قد كلفهم الكثير من الأموال التي انفقت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض المعارضين الى أن هذه الحركة تسببت بشكل مباشر فى خلق « ازمة الطاقة » التي عانت منها امريكا معاناة شديدة ، وهى ازمة يمكن أن تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالى مستقبل امريكا والقوى العاملة فى الصناعة ، تهديدا مباشرا لو انها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التى

---

(١) الواقع ان فكرة عقد هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك اذ بدأ التفكير فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانظار الى اهميته . وقد اطلق على المؤتمر اسم « مؤتمر هيئة الامم المتحدة عن البيئة الانسانية » .

يزعم انصار البيئة أنها سـوف تلحق بالانسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ماهى عليه ، ولم تتخذ الاجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية اخـرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى انصار البيئـة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا انفسهم عـن الاتصـال بالعالم الخارجى ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمتاز فى الاغلب بارتفاع المستوى الإقتصادى والثقافي ، وهم بذلك لايحسون بآلام ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولويـة المطلقـة لمشكلة الفقر وكسر حلقته والخروج من دائرته ، وان التوقف عن الصـناعة أو تحديد الانتـاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم بعد كل شيء يمثلون القطاع الاكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنـا أن هـذه الانتقادات التى وجهها رجال الصناعة الى انصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كـان ذلك على حسـاب الانتاج الصناعى ، على انهـا حركـة استعمارية جديدة تقـوم على اسـاس تثبيط همم الـدول النامية عن الاخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها فى التنمية الاقتصادية التي ترتكز الى حد كبير على التحول التدريجى الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، او على الاقل كوسيلـة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضروبة عليها . وبقول آخر فان هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادى من ربقة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمـر استكهولم ، اذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلى العالم الثالث هى أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالمية ، وانما هى مجرد نوع من الترف يجب أن يسترعى بالعملة الصعبة ، وان ثمن هذا الترف قد يكون غاليا جـدا بالنسبة لبعض المجتمعـات قد يكلفها فرصـة التقـدم والرقى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج انصار البيئة التي تقوم على مبدا ضرورة تضـافر جهود كـل الدول والشـعوب والمجتمعات لاصلاح البيئة ، وان ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه فى مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وان الوسيلة الوحيـدة لتجنب هذا المأزق هو ان يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته فى درجة النمو الاقتصادى والسكاني على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارليتش Paul Ehrlich فى كتـابه الشـهير « **القنبلة السكانيـة** The Population Bomb » الـى احتمال وقوع هذه الكارثة الايكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير فى هذا الطريق الخطر الذى اختاره لنفسه .

وأيا ماتكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الأوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما فى الاعتبار ، وهى حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الالتباه اليها . مثـال ذلك أن كثيرا من المبانى الأثرية فى أوروبا كالكنائس

والكاتدرائيات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من أكبر مظاهر الحضارة الغربية بدأت تعاني من سحب الدخان والغبار والرماد المتصاعد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتداعى بتأثيرها . ولقد أوصت احدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الاكروبول كله بالزجاج لكي تمنع عنه آثار التلوث المدمرة . . .

والظاهر ان كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضي ثمنا غاليا للغاية . والظاهر أن هذا هو الوضع أيضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول أن تنفيذ اى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغييرات في البيئة الطبيعية لخير الانسان وصالحه كثيرا ماتحمل بين طياتها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق عنها بعض الأضرار في التوازن الايكولوجي . وربما كان افضل مثل لذلك هو التغيرات الايكولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل واراضي الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه للآن السد العالي الذي يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن اضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ماقد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المنزرعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ماسوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فان الثمن الايكولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والاطباء يخشون من أن تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل ان البعض يخشى من امكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالاضافة الى ظاهرة النحر النهري وتآكل الشواطىء في شمال الدلتا والاخطار التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجز الطمي الذي كان النهر يحمله ويجدد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالاضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجمبري والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية . . . ومع ذلك فان هؤلاء العلماء أنفسهم يرون أن لكل مشكلة حلا ، وان العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

---

(٢) الملاحظ ان التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضي في رأي الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وانه لن يمكن لأية دولة واحدة ان تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا عن ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وايضا نظرا للأوضاع القائمة بالفعل . مثال ذلك ان سبع دول على الاقل تلقي بفضلاتها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما ان الرماد المتصاعد من مصانع الرور في المانيا مثلا يؤثر في ثلوج النرويج ويفقدها بريقها ولمعانها وصفاءها ، وبالمثل فان نفايات وفضلات مصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت اعداد هائلة من الاسماك فيه . والسائد لدى عدد كبير من العلماء ان البحر الابيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لالقاء الفضلات والفالورات والنفايات من المصانع والبواخر فيه ان لم تبذل الجهود الجبارة لانقاذه ، وان كان هناك من يعتقد أن الوقت قد فات بالفعل وانه لا امل في انقاذه من ذلك المصير .

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير مـن‌الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد ـ كمـا ذكرنا ـ ان « حركة البيئة » هى آخر سلاح أوعلى الاصح احدث سلاح تتسلح به الدول الغنية فى مؤامراتها ضد الدول الاخرى حتى تظل هذه‌الدول الغنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث‌تستطيع ان تتحكم فى غيرها ، ويكفي هنا ان نذكر انه حين‌عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق احد اعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هـوان « مشكلتنا ليست هى التلوث الناجم عـن زيادة التفـوق الصـناعى وانمـا هى الفقـروالتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب فى أن المؤتمر عالـج بالاضـافة الى‌التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة فى مجتمعات العالم الثالث مثـل زحف‌الصـحراء على الاراضي الخضراء الخصـبة ، وانتشار الجدب وما الى ذلك . وعلى اية حال ، فلقد بدات بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالمية المشكلة ، وتدرك ان تهديد البيئة ليس‌قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وان الازمة الايكولوجية أزمة عالمية بكل مافى هذه‌الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهى أمثلة‌يمكن أن نجدها فى كل بقعة من بقـاع العالم . والمعتقد على أية حال ان الدول الفقيرة والمتخلفة‌هى اكثر عرضة من الدول الغنية والصناعيـة لكوارث البيئة ، على ماقيد يبدو فى ذلك مـن‌غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ ـ فى سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر ـ فى ادخال‌نظم الحياة السائـدة فى المجتمعات الصـناعية المتقدمة ، وهى ترهق بذلك مواردها الطبيعية‌التى سوف تستنزف فى فترة قصيرة نسبيا ، كما أن الاقبال الشـديد على التصنيع سـوف‌يعجل بتلويث الهواء والماء بدرجة اكبر مما هو موجود فى المجتمعات المتقدمة التى لديها من الموارد‌المالية مايسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . ويزيد من خطورة الأمـر فى المجتمعات الناميـة‌ارتفـاع معدلات الزيادة السكانيـة بدرجة غير مالوفة فى المجتمعات المتقدمة .

(١)

والشيء الذى يسترعى النظر حقا هو انه‌على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم الا منذ أوائل السبعينات فان ماتم احرازه‌من تقدم حتى الآن فى هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الاقل فى مجال توجيه الانظار الى‌خطورة المشكلة ، حتى‌وان لم تنفذ كثير من‌البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من ان‌منع هذا التلوث لا يزال أملا يراود أحلام أنصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول أصدر‌بعض التشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات‌العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الايكولوجيا ـ على أيدى علماء النبات والحيوان الذين كانـوا‌ينظرون الى المسالة فى الاغلب‌من الزاوية الفيزيقية

البحته ، او على الاقل كانوا يميلون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالى من علماء الايكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة اوسع واعمق ، ولذا فانهم أعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان فى البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريزر دارلنج F. Fraser Darling فى مقال طريف له: ان الايكولوجيا ــ باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى فى علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد أو الى انواع مختلفة ــ هى فكرة اوسع وارحب واكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الاوائل ، وان الشيء الرائع حقا فى هذه الفكرة هو انها كانت من العظمة والرحابة والاتساع بحيث استطاعت ان تتعدى كل الحدود وان تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة او مدروسة تماما ، كما انها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وان تفتقد المقارنة وتكشف عن أوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرتبة . (٢)

وربما كان أهم ما يميز هذه الدراسات الايكولوجية الرائدة هو النظرة العامة الشاملة التي تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية اوالفيزيقية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتأثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية اخرى. ومن هنا كانت هذه الدراسات الايكولوجية المبكرة ، رغم ضحالتها النسبية اذا هى قورنت بما يصدر الآن من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانبا انسانيا عميقا تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر أن علماء الايكولوجيا ساروا فى نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم فى تطبيق

---

(٢) Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك فى أن الفضل فى ابراز علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع فى المكان الاول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثر الكلام عن الايكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويعتبر كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ عن الايكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من اهم العلامات على الطريق لانه كان يعبر ــ كما يقول فريزر دارلنج ــ عن فلسفة محددة وعن رؤية واضحة لموقف شديد التعقيد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا فى بيئة الكائنات الاخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره فى ذلك الحين اقل من ثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع غيرهم من العلماء من أجل الوصول الى فهم كيف تتعاش مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب أصدره التون فى هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يكتفي بوصف ما هو قائم وانما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الاعمال والبحوث التي قام بها تلاميذه واتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اهتم التون بالتنبيه الى قلة البحوث التي أجريت فى هذا المجال الحيوى العام الذى تتوقف عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى فى المستقبل .

ويمكن ان نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الايكولوجية من امثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اطلسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية فى افريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل الدوليوبولد Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الابحاث فى صحارى المكسيك واريزونا .

المنهج العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الايكولوجية ترجمة كمية أفقدت هذه العلاقات كثيرا من « انسانيتها » وعمقها ، وفقدت الكتابات الايكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، واخفقت بالتالى فى ان تصل الى كثير من الناس على الرغم من انها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءاً أن عددا من علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة امكان قيام ايكولوجيا انسانية أو بشرية على الأصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا فى الاغلب من المتخصصين أصلا فى الجغرافيا او الانثربولوجيا . ولعل من أهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الايكولوجيا دائما فى ضوء النشاط البشرى العام . وبقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام ايكولوجيا بشرية انما كانوا يؤمنون بأن هناك ايكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون فى كتاباتهم عن هذا الايمان . وعلى اى حال فالواضح ان كلمة ايكولوجيا انتشرت فى مختلف الاوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات أو الحيوان ، كما اصبحت الدراسات الايكولوجية أكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وانسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الايكولوجية الان واعطاء الجانب الاجتماعي والانساني قدرا أكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة لانطلاق فى اى بحث ايكولوجى هى الظروف والاوضاع المادية السائدة في اى مجتمع من المجتمعات ، والى اى حد تنعكس هذه الاوضاع فى سلوك الناس ، والى اى حد تتأثر بدورها بهذا السلوك او بالثقافة السائدة في ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الافادة من هذه الظروف البيئية العامة . وعلى الرغم من التسليم بأن هذه الاوضاع الفزيقية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس الا انها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه ان ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتى كانوا يعنون بها ان الشروط والاحوال الجغرافية تملى على الناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعي لا يمكن الخروج منه — قد اختفت الآن تماما من الكتابات الايكولوجية ، التى اصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون معا في تشكيل السلوك الاجتماعى . فسكان الصحراء مثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لأن الظروف البيئية وحدها هى التي تحتم عليهم ذلك ، وانما لأن هناك الى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة أوضاعا اخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر معا وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم انكار اهمية الدور الذى تلعبه تلك الاوضاع المادية او البيئية فى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين — النشاط الاقتصادى . . . فالانسان هو الذى يصنع النظم الاجتماعية التي تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، آخذا بالاعتبار فى الوقت ذاته ماتقدمه له البيئة الطبيعية من امكانيات ، كما ان الانسان هو ايضا الذى يستطيع ان يغير هذه النظم التي أوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضي الأمر ذلك التغيير ، وان كان هذا لا يتم بسهولة فى كل الاحوال . فكأن اى تغير في البيئة الطبيعية يمكن

للانسان أن يقابله بادخال التعديلات والتغييرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الاوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الايكولوجية في معظمها ـ وبخاصة البحوث التطبيقية ـ ناحية العمل للمحافظة على البيئة . وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أي ازدياد الاقبال على انشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا أثره بالتالي على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير و (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تلوثها ، ولكن أيضا بانقاذ الريف والمحافظة عليه والابقاء على المناطق الخلوية التي تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هي الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا عن طريق التصنيع يرتبط بالضرورة **بانخفاض أو تدهور** مستوى المعيشة **بيئيا أو ايكولوجيا** ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضجة والصخب التي ترتبط بعمليات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها امور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الايكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والانثربولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمشتغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيد وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

---

(٤) هناك بعض الاتجاهات التي تدعو الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة ، بل والى ظهور تخصصات جديدة فى علم البيئة التي يبدو أن كثيرا من الدول حتى المتقدمة لاتعطيها للان ما تحتاجه من عناية واهتمام . وتعتمد هذه الدعوة على أن (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتتعاون فيما بينها بحيث يمكن ان يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والانثربولوجيا بل والفلسفة أيضا باعتبارها من الدراسات التي تساعد فلى فهم مغزى سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بموقفهم من البيئة الطبيعية . فالانسان ــ على مايقول روبرت موريسون Roper Morrison فى مقاله الرائع عن Education for Ecological Concerns هو انجح الكائنات فى استعمار الارض واستخدامها واستغلال مواردها ولكنه في الوقت ذاته اكثر هذه الكائنات افسادا للارض وتلويثا لها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الامريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لنشر فكر التخصص فى (الايكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فالملاحظ ان الاقبال عليه لايزال ضئيلا نظرا لصعوبة العلوم التي يتعين على العالم الايكولوجى ان يلم بها ، وتشعب هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أن حال فان توفر امثال هؤلاء المتخصصين لن يكون سوى الخطوة الاولى فى دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الامر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من المتخصصين فى بعض فروع المعرفة الاخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وايضا الكيمياء والبيولوجيا لحل ابسط مشكلات البيئة .

(٢)

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الايكولوجيا الآن هو مسالة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وان كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وان لم يدركوا كل الأبعاد التى تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التى تحتاج الى الالمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما فى ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة وطريقة معاملتهم لها — او على الاصح تعاملهم معها — وردود الفعل التى ينتظر أن تصدر عنهم ازاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهى برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فانها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعى على أى حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التى تهدف الى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالاضافة الى المعارضة التى يثيرها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الاشارة اليه . الا انه يبدو ان الأذهان اصبحت الان مهياة الى حد كبير الى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما انه أمكن تبديد كثير من الشكوك التى أثيرت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وان كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما احرزته من نجاح فى المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان الى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون أن تفرق مع ذلك فى المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا امام اتمام هذه البحوث وبخاصة فى المجال التطبيقى ، وربما كان الجانب الاجتماعى هو اصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم فى جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية او الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الانهار مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما اليها ، وهى كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج الى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الامر الى أصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة فى الانهار ومجارى المياه) . وان كان السلاح الاقوى والاكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعى ، رغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول ان «المحافظة على البيئة» لا تعنى ابدا الامتناع عن كل ما عساه أن يؤدى الى تغيير الاوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الارض ، او انشاء مشروعات الرى وتوليد الكهرباء الكبرى قد اسهمت اسهاما ملموسا فى

---

(٥) R.W. Patterson; "The Art of the Impossible" op. cit., P. 1030.

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفذت هـذه المشروعات ، كما ادت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل ـ في ابسط واوضح مظاهرها ـ في الامـراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (٦) . والمشكلة الرئيسية التى تواجه المهتمين بهذه المسـألة ليسـت هى الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وانما هي الى اى مدى يجب التحكم فى هـذه السـيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجـة التحكم فى تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولايزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمـة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من عوامل التلوث الضارة التى يجب ابعادهـا وازالتها تماما . والراى السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في اى بقعة من بقاع الارض . وهذا نفسه يصدق على الارض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يثيره تلوث تلك العناصر الاخرى ، وذلك نظرا لأن الهـواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذى لا يمكن الاستغناء عنه والذى تحتاج اليه كل الكائنـات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون أن يملكها أى كائن واحد منها . فالهواء سلعة جماعية بكل ما فى الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالراى السائد الآن هو أننا لن نستطيع أن نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم اولا فى أنفسنا ، اما عن طريق التشريع أو عن طريق التوعية والاقتناع الشخصي والادراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الاساسية المتعلقة بالبيئـة والاخطار التى يمكن أن تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالراى السائد ايضا بين أغلب العلماء والمشتغلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهى انه لا مفر ـ رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة ـ من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفى كل شيء وفى كل وقت ، وان المهـم فى الامر ـ من الناحية العلمية ـ هو أن نعرف متى تصبح درجة التلوث مسألة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التحديد الدقيق .

• • •

(٦) انظر فى ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٣ الى مجلس الشيوخ والنواب الامريكيين عن :

"A Study of Pollution — Air" P. 14 . ويشـير التقرير الى اهم مصـدر تلوث الهواء مثل السيارات والصناعة ، كما انه يعدد الكائنات العضوية وغير العضوية التي العضوية كالبانى . ومثل هذه الاشارات توجد بكثرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى فى معالجة البيئة ،وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرهاالمختلفة على انها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه ان البيئةذاتها تؤلف وحدة متكاملة او نسقا متمايزا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الاخيرة عن الانساق الايكولوجيــة Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لأحدالانماط الاساسية التى تغلب على شكل الحيــاة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا فى التمييزبين النسق الايكولوجي الصحراوى الذى ينشأ نتيجة لتوافرعناصر فيزيقية معينة تتمثلفي جدبالارض وقلة الماء ووجود المراعى وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادى معين وتنظيم اجتماعىقبلى ، والنسق الايكولوجى الريفي الذى ينشأ نتيجة لتوافر الارض الصالحة للزراعة وامكانياتالرى وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعى الذى يختلف عن التنظيم القبلى اختلافاشديدا ويعتمد أساسا على الارتباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الايكولوجى الحضرىالذى يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ في مناطق معينة بالذات نتيجـــة لظروفجغرافية معينة تساعد اما على التجارة او تقديم الخدمات أو قيام بعض الصناعات ، وهكذا .واعتبار البيئــة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها فى نظام واحد يتــدرج مــنابسط الكائنات العضوية الى أكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها فىبعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الاشياء غير العضوية وكل ما فى الكون من قوى مختلفــةومتباينة من الناحية الأخرى . الا انه لابد مــن ان نميز فى هذا النسق بينالتجمعات البشريةوبقية(التجمعات) واشكال الحياة الاخرى ، على الرغم من كل مابينها من تفاعل وتشابك فى العلاقات فيالمتبــادلة . وتجتــاز هــذه التجمعات البشرية فى اى نسق ايكولوجي بتعقد سلوكها الاجتماعىالى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئــة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكاملالبيولوجى لانجد له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية او النباتية وبقية مكونات البيئةفى ذلك النسق ، كما ان الانسان في كل نسق من هذه الانساق الايكولوجيةهو الذى يسيطر سيطرةتامة على بقية تلك المكونات و (التجمعات) وأشكال الحياة ، وهذه السيطرة هى التى تخلق فى آخرالامر الأزمة الايكـولوجية التى تعـانى منهــا كل المجتمعات فى الوقت الحالى ، وذلك نتيجة لاساءةاستخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر اهمية العلاقات بين الكائنات العضويــةالمختلفة والبيئة،ولكن التكامل بين الانسان والبيئة خليق بأن يلقى اكبر قدر من الاهتمام وبخاصةحين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف علــى مســتقبل المجتمــع الانسانى ومصادر الثروة فىالارض وامكانية تحقيق درجة اكبر من التقدم .(٧)

---

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذى يبديه العلماءالان بدراسة البيئة فـلا تزال الدراسات والبحوث عــن الانساق الايكولوجية المختلفة ـ بكل مكوناتها وعناصرهـــاالمتفاعلة ـ قليلة نسبيا ، كما ان معظم ما كتب للان لا يخرج عن الوصف السريع الذى يكاد يخلو من تحليل العـلاقاتالمتبادلة بين هذه المكونات المختلفة . وربما كان ذلك راجعـا الى تعقد هذه العلاقات والى الحاجة الى الاحاطة بكثير منالعلوم المتخصصة لفهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . وثمة اتجاه يحاول ان يفرض نفســه الان على دراســة الانساقالايكولوجية عن طريق تطبيق المناهج الرياضية والكمية .

←

وهذا ينقلنا مرة اخرى الى ماسبق ان ذكرناه من أن النسق الايكولوجي ـ رغم تعقده ـ نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة مشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثربولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متأخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « ايكولوجيا Ecology » ادخلت لاول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الأحياء الالماني ارنست هيكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للاشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الايكولوجي او النهج الايكولوجي في مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في أوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الامريكي جالبن Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذى ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشريح الاجتماعي لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatony of an Agrarian Community ومع أن جالبن لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (ايكولوجيا) صراحة الا انه في دراسته للعائلات القروية التى تعيش ذلك المجتمع المحلى الزراعى (الذى يقع في احدى مقاطعات امريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وافلح في ان يكشف عن مختلف انواع النشاط وعوامل توزعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالبن هى أن يدلل على انه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف ايكولوجية معينة ، كما انه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق أنواع معينة من النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، بل وايضا التنظيم السياسي التي تتلاءم مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه ان انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في امريكا من أمثال روبرت بارك Robert Park وبيرجيس Burgess , ففى عام ١٩١٥ أيضا حاول بارك أن يدلل على أن المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل

←

وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بغير قليل من الحذر والشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفقد هذه العلاقات الايكولوجية جانبا من معناها الانساني ، وان كان اصحاب هذا الاتجاه انفسهم يرون ان تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الايكولوجية الى افاق علمية جديدة ويحقق لها مستوى لا يتوفر لها الان باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وعلى اى حال فان التحليل الكمي للانساق الايكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير مقنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة على اية حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن ـ حسب قو موريسون ـ فهم اعماق ايكولوجيا المجتمع بنفس الطريقة التي يفهم بها الان الشفرة الوراثية Genetie Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Couservation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لايمكن التحكم فيها ، وان لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل ان لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التي تطبع حياة أهلها بطابع خاص . اما بيرجس فقد حاول ان يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى بطبيعتها مثوى للجريمة والرذيلة والامراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فانه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الايكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والانسانية) لم يبدأ الا فى الربع الثانى من هذا القرن لدرجة انه يمكن الكلام عن « المدرسة الايكولوجية » . وليس معنى هذا ان الاهتمام بدراسة الظروف الايكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما نقصده هو ان الدراسات الايكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدات تهتم بامور اخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكانى ، وبدات تولى عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين افراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول ما اذا كان يمكن اعتبار « النسق الايكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الانساق كل التميز ، او أنه يدخل مع غيره من الانساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام او البناء الاجتماعى Social Structure وكان انصار تمايز النسق الايكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على ان النسق الايكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الانسان والطبيعة بعكس انساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الانسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التعسف والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الايكولوجيا البشرية فى الثلاثينات عن التمييز بين التفاعل الايكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن — على ما ذكرنا فى اكثر من موضع من هذا المقال — هو ان ينظر الى العلاقة بين الانسان والبيئة نظرة عامة شاملة وتكاملية ، وان كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

---

(٨) راجع فى ذلك كتابنا عن : البناء الاجتماعى — الجزء الثانى (الانساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago
V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شــك فيه ان التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على اسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان وللمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الاثنان ، على اعتبار ان الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانســان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالى من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن ان تشير هنا الى بعضها للتدليل على مدى تعقد الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف :ــ

أولا : عناصر ومكونات النسق الايكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبــع المكونات الفيزيقية مثل الهواء او الماء . (ومثــل هذا ينطبق عى الأنساق الاخــرى كلهــا كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى أو نسق الكواكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء او الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) ــ والمقصود به دراسة تنظيــم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتمــاعى داخل أفراد النوع الواحد أو المجموعة الواحدة او بين الانواع أو حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية او الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانســاق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرا على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان او الحيوان أو النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة ــ والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتهــا من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : واخــيرا مشــكلات التصنيف ــ ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الايكولوجى تبعــا للخصائص الذاتية لكل فئة من هذه الفئات .(٩)

---

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis'' in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط اثيرت فى الاصل فى كتابات علماء الايكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنها تصدق بكل دقائقها وتفاصيلها على مستوى العلاقات القائمة بين الانسان والمجتمع والبيئة ، بحيث ان اى عملية تبدأ فى اى طرف من هذه الاطراف الثلاثة لا تلبث أن تنتقل الى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الامر ، فى ذلك الكل المتكامل او الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الانسان — المجتمع — البيئة) . وابسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات او الحيوانات ومنها تلك التى تقتات على تلك النباتات ، الى الانسان الذى كان هو السبب الاول فى نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذى يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الايكولوجى . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ فى الاعتبار ان حركة هذه الجزيئات الفيزيقية او المادية D.D.T. تدفع الانسان الى التفكير فى هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الانسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التى يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب فى الأمر هو أن هذا التعديل او التغيير كان يحمل دائما فى طياته كثيرا من المساوىء والشرور التى انعكست على حياة الانسان نفسه . فكأنه يمكن القول ان الانسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لايدرى ، على تغيير البيئة بمايتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . — على الاقل — منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الانسان فى الارض ، وان اتخذ هذا التعديل والتغيير اشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الانسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة ادت الى نتائج عكسية فى كثير من الأحيان تمثلت فى استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الارض (كما حدث فى اراضى ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا فى بلاد اليونان القديمة وفى ايران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعى فى جنوب أوروبا وشمال افريقيا بحيث تحولت الى ارض صحراوية مجدبة اخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الاراضى الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الانسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء باحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل ان يزرع الارض بعد أن (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعى . ثم اسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الامر فى تدمير البيئة بسرعة والى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطى نصيبا اكبر من الاهتمام للدور الذى لعبته التكنولوجيا الحديثة فى خلق الازمة الايكولوجية التى نعانى منها الآن ، والتى تتمثل فى اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذى أشرنا اليه .

(٤)

ولسنا نقصدبالتكنولوجياهنا مجردالاشياءالمادية او الادوات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية لانجاز الاعمال الصعبة او لزيادة الانتاج ،وانما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الانسان على البيئة الطبيعية ،وبذلكيمكن ان ندخل ليس فقط الآلات والاجهزة التى نستعين بها فى العمل والانتقال وانجاز الاعمالالمنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التى تساعد فى اتمامهذه الانشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ،وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيابهذا المعنى يمكن تلخيصه فى استخراج الموادالخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة باحد اشكالاو صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة اخرى ، ولكن بعد ان تكون قد اتخذتشكلا جديدا تماما . (١٠) ومع ان بعض هذه المواد الخام تستخدم فى صورتها الطبيعية مثل الخشبوالحجارة والطين ، الا ان الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغييرات والعمليات الطويلة المعقدةالتى تفقدها خصائصها الأولى. ولقد كانالانسان المبكر يكتفى فى الأغلب باستخدام المواد الخام كمايجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بذلقدر ضئيل من الطاقة هي تلك التى يستمدها منقواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، وعن طريق استخدام هذه المواد الخام فى صورتهاالطبيعية الأوليةفى صنعأسلحته وأوانيه الفخارية وما اليها ، أن يصمد امام الطبيعة القاسيةويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الانسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرةلم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التى دخل الانسان معها فى صراع طويل وعنيف .ولقدتطورت قوى الانسان وازدادت خلال تلكالقرون الطويلة كما اصبحت الادوات والآلات التىيستخدمها اكثر تعقيدا وتقدما ، كما اصبح الانسان يستعين بمواد اخرى كيماوية او يقومبعمليات فيزيائية معقدة لتنقية هذه المواد الخام الطبيعية او تحويلها الى مواد اخرى يستخدمهافى حياته العملية كما هو الحال فى صنع الصلب من خام الحديد بعد أن ينقيه من كل الشوائب ،ثم استخدام الصلب بعد ذلك فى صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على اشياء اخرى كثيرة.وحين يضيق الانسان بهذه الادوات والمصنوعات فانه (لا يلقى بها بعيدا) فى حقيقة الأمر ، أو(ينبذها) تماما ، وانما تعود هذه الادوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرةاخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الارض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الانسان ويلقيهفانه اما ان يدفن فى الارض أو انه يحرق لكى يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد فى الهواء ،وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها(البيئة) بشكل ما . فكأن البيئة تسترد فى آخر الأمر وبشكل ما كل ما نأخذه منها مثلما تستردنانحن أيضا ، على ما يقول هاملتون (صفحة ٢٠) .

---

(١٠) David Hamilton, **Technology, Man and the Environment**, Faber, London 1973, p. 18.

والمهم هو أن التكنولوجيا تساعد الانسان على البقاء والصمود في صراعه الابدى مع الطبيعة. فلكى يتمكن الانسان من الحصول على الطعام والدفء والمأوى (أو المأكل والملبس والمسكن) فانه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع أهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل في صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التى تعمل على هدم ما قام بترتيبه واعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما . ولقد خسر الانسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل ، وان كان التقدم التكنولوجى الحديث والآلات والادوات المعقدة قد أعطته ـ كما قلنا ـ مزيدا من القوة التى لم يكن يتمتع بها من قبل . ويبدو أن هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها . وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التغيرات التلقائية منذ وجد الكون ، ولكن الانسان اضاف الى هذه التغيرات بتدخله فى سير الطبيعة ، كما أن الذى يهم هنا هو سرعة وحجم هذه التغيرات التى أحدثها الانسان وبخاصة تلك التى لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها . وليس من شك فى أنه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة . وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التى تطرأ على الهواء نتيجة لتلوثه ، وعلى الماء نتيجة لاغراق نفايات المصانع فى البحر (١١) . والاخطر من ذلك هو أن موارد المواد الخام لا يمكن أن تظل الى الابد ، بل أن بعضها بدأ يعانى بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمغالاة الانسان فى استخراجها من باطن الارض ، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالى عام ٢٠٠٠ مما يعنى ان المجتمع الانسانى سوف يجد نفسه فى مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة الايكولوجية المتوقعة .

ولكن اذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة الى توفر الطاقة فان النتائج المترتبة على استخدام الطاقة اصبحت تثير كثيرا من القلق ، وهو الامر الذى لم يكن الانسان يتوقعه فى بداية الثورة الصناعية او حتى فى بداية برنامج استخدام القوى النووية . ويجد الانسان نفسه أنه فى موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه ، على الاقل فى الوقت الحالى . ذلك أن الاستمرار فى احراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وبنفس الطريقة التى نتبعها الآن يؤدى الى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالاضافة الى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة ، كما ان هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدى الى ارتفاع درجة حرارة الارض بشكل غير متوقع ، كما قد يؤدى الى حدوث اضطرابات شديدة فى المناخ ذاته . واذا

---

(١١) من اهم ما يشغل بال كثير من العلماء الان مشكلة الحصول على اشكال من الطاقة لا ينجم عنها الا تلوث البيئة. فكل اشكال الطاقة المعروفة الان تؤدى الى التلوث ولكن بدرجات مختلفة ، وربما كان الفحم اكثرها سوءا في هذا الصدد . وربما كان اهم مصادر الطاقة التى لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الاصلى لمعظم اشكال الطاقة الموجودة فى الارض كما انها هى الطاقة الاساسية التى تحفظ الحياة بكل صورها واشكالها . والملاحظ هو ان استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتعقد التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا . وتبلغ معدلات الزيادة السنوية فى استخدام الطاقة الاولية ٥ ٪ بالنسبة للفحم والبترول والغاز عن السنة السابقة عليها بينما ترتفع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء . ومن المشكوك فيه ان هذه الزيادة يمكن ان تستمر بغير توقف .

حدد الانسان من الناحية الاخرى استخدامه للوقود لكى يحافظ على مصادر الطاقة ويقلل من درجة التلوث فسوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجى الذى يبدو انه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدى بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضا شديدا عما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع ان يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك أو حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، أو أن يتصور المستويات الدنيا التى سوف تنزلق اليها الحضارة الحديثة التى بدأت بالثورة الصناعية ، او التغيرات الهائلة التى سوف تطرأ على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلا المناطق الشمالية الباردة فى العالم الى المناطق الاستوائية والمدارية الاكثر دفئا ؟ وهل تتفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد أن تتوقف الصناعة وتتحول التجمعات البشرية الهائلة التى ترتبط بهذا التنظيم الحضرى الصناعى الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الاطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات أو افتراضات لا تستند الى دليل وانما هى احتمالات يمكن ان تتحقق اذا زال الاساس التكنولوجى الذى تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . الا أننا نجد فى الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمى الذى يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجى مبالغ هائلة لا يمكن أن تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبيا التى تخصص للبحث فى المجالات التى تتصل بالحاجات الاساسية للانسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وافضل الطرق لاستخدام الارض وتطوير الزراعة وانتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة فى الاهتمامات وفى الانفاق تعنى ضمنا ان الجنس البشرى اكثر اهتماما بما قد يودى به وبالمجتمع وبالعالم كله بدلا من أن يعطى المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر أن هناك من العلماء من يحاولون اعادة النظر فى الموقف ، أو على الاقل تنبيه الاذهان الى ما ينطوى عليه من أخطار (١٢)، خاصة وأن الاوضاع فى كثير من انحاء العالم

---

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الامر نظرة ملؤها التشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الانسان والبيئة وتفاقم الازمة الايكولوجية . ففى فقره طويلة بعنوان « الانسان عدو نفسه " Man his onw enemy » يقول ديفيد هاملتون ـ الذى كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist ـ فى كتابه الذى سبقت الاشارة اليه ، ان الانسان لن يستطيع ان ينقذ نفسه من نفسه حتى ولو افلح فى التخلص من الاثار السيئة التى تنجم من التكنولوجيا . ذلك أن الانسان فى رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد فى العدد مما سيؤدى بالجنس البشرى الى الفناء من الجوع ، او انه قد يضطر الى ان يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد فى بيئة الارض المحدودة مما سيؤدى بهم الى الصراع والاقتتال من اجل البقاء وهذا سيؤدى بهم فى آخر الامر الى النتيجة ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائما أن تقوم بتحديد عدد أى جنس من الاجناس تبعا لمساحة الارض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وأن زيادة فى العدد كان مصيرها دائما الفناء بسبب نقص الطعام أو التنافس الطبيعى او نتيجة لتدخل احدى قوى البيئة الاخرى ، ومع أن الانسان يعرف ذلك تماما الا انه يتزايد بطريقة ستؤدى الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية فى القريب ، ولكنه بفضل تقدمه التكنولوجى استطاع ان يغير البيئة وأن يحفر فى الارض الى أعماق بعيدة جدا بحثا عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعنى شيئا سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدهمه خطر نفاذ الطعام فى وقت قريب . بل

←

تستدعى ضرورة الاسراع الى اتخاذ الاجراءات بحفظ حياة الانسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفى أن نذكر هنا أنه مع بداية القرن الحادى والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل أربعة أشخاص من سكان العالم فى تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الاكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas يقيم فيها المهاجرون – والنازحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفى الوقت الحاضر مثلا نجد أن ثلاثة ارباع السكان فى مدينة كبرى مثل كلكتا يعيشون في أكواخ واكشاك تنقصها كل اسباب الراحة الاساسية او الاولية (المياه والمجارى ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من أمطار غزيرة وترتفع المياه في الشوارع والطرقات يجد الناس انفسهم مضطرين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر الى خوض هذه المياه التى تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهائمهم وكل انواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة فى مدن الشرق الاوسط افضل حالا من هذا . وليس من شك فى ان اى محاولة لتغيير هذه الاوضاع التى ينجم عنها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدى الى ادخال تغييرات جوهرية جديدة فى هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادىء التى يجب ان تؤخذ فى الاعتبار دائما حين تدرس الانساق الايكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الانسان في محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول ان تفهم طبيعة المأزق الذى وضع الانسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل أول مبدأ من هذه المبادىء هو تعقد العلاقات بين الانسان والبيئة وتشابكها الى ابعد الحدود . ويزيد من هذا التعقد تعرض هذه العلاقات دائما للتغيير والتعديل والتحوير نتيجة للتقدم الثقافى والتكنولوجى الذى يحرزه المجتمع . فليس من شك في أن مثل هذا التقدم التكنولوجى بالذات يساعد مساعدة فعالة واكيدة على تحكم الانسان فى البيئة الطبيعية بعد أن يكون

←

ان الجنس البشرى يعانى الآن فعلا من نقص الطعام ، وسوف يعانى قريبا من النقص فى اشياء اخرى مثل الماء الصالح للشرب والمسكن بل والارض التى يمكنه ان يسكنها ففى الوقت الحالى يشغل كل خمسة عشر شخصا فى المتوسط كيلو مترا مربعا واحدا من سطح الارض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد الى اكثر من ثلاثين شخصا لكل كيلو متر مربع . ولقد اوقف التقدم فى مجال الطب عمل الطبيعة التى كانت تقضى على افراد الجنس البشرى غير الصالحين – كالمرضى والعجزة – فاطال الطب الحديث حياتهم لكى يزحموا الارض ويزاحموا الآخرين ويسهموا فى استنزاف الموارد الطبيعية وبالتالى فى تفاقم الازمة الايكولوجية .

والمعروف على اى حال ان سكان الارض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريبا بحيث يتوقع ان يصل عددهم الى سبعة آلاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ ، وان معظم الزيادة ستكون فى الدول المتخلفة التى هى اقل قدرة على استيعاب اعداد كبيرة من الناس . والظاهر انه لن يكون امام الجنس البشرى الا ان يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها اباحة الاجهاض (كما يقول) أو يموت جوعا (صفحات ٢٧٤ – ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخليق بمثل هذا التحكم ان يؤدى الى تغيرات جوهرية فى البناء الاجتماعى الكلى وليس فى البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الانساق ، صفحة ٨٥) .

والمبدأ الثانى ، وهو امتداد للمبدأ الاول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التى يحدثها الانسان فى كوكب الأرض الذى يعيش عليه هى ظواهر ايكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا الا فى ضوء العلاقة الثلاثية القوية التى تقوم بين الانسان والمجتمع والبيئة ، او « المجتمع الانسانى زائدا عليه البيئة » كما اصطلح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الاطراف الثلاثة التى تؤلف النسق الايكولوجى فان أثر البيئة الفيزيقية يكون اوضح في المجتمعات البسيطة والاقل تطورا منه فى المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس فى الفئة الأولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من امكانيات يفيدون منها فى صورتها الاولية . فالتأخر التكنولوجى يقف عقبة فى وجه الجهود التى قد يبذلها الناس في هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويرها بنفس الدرجة التى نجدها فى المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجى السائد عندهم .

والمبدأ الثالث هو ان ندرك دائما فى دراستنا للانساق الايكولوجية ان الانسان يوجد دائما فى الطبيعة كجزء منها ، وانه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنعزلا عن الأنساق الايكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون أن يتأثر بها أو يتفاعل معها . بل ان تأثير (الانسان) على الانساق الفيزيقية انما يتم عن طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بعد كل شيء الا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التى تظهر من خلال التفاعل القائم بين اعضاء ذلك المجتمع ، كما ان اى سلوك جماعى يصدر عن اعضاء المجتمع ككل يختلف فى الاغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذى يصدر من اى عضو من هؤلاء الاعضاء على حدة وانفراد . ومع انه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الايكولوجى الطبيعى وان ندرسه فى حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فان ذلك يحتاج الى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هناك مجتمع يعيش في فراغ ، وانما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الارض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك في أن دراسة المجتمع فى ضوء النقاط السبع التى سبق ذكرها والتى حددها ريبلى Ripley وبوشنر Buechner تلقى كثيرا من الاضواء على الدور الذى يقوم به المتخصصون فى العلوم الاجتماعية والانسانية لفهم النسق العام الذى يضم الانسان والمجتمع والبيئة .

والمبدأ الرابع هو انه على الرغم من التسليم بأثر البيئة فى الحياة الاجتماعية في كل المستويات الثقافية والاجتماعية فان من الخطأ الزعم بان هذا التأثير يصل الى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالذات وفى اتجاه مرسوم بالذات أيضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو أنها تقدم امكانيات عديدة للحياة الاجتماعية في اى مجتمع من المجتمعات — ايا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع أو بداءته وتخلفه — بحيث يستطيع الناس ان يختاروا فى الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس أدل على ذلك من أننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة فى البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف فى أساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن فى الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون أن يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات او محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من أنماط الحياة جنبا الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر فى نظر كثير من العلماء أول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تأخرا ، كما يمارسون فى الوقت ذاته الزراعة بل وايضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد فى المجتمع الواحد أن الاوروبيين المستوطنين يمارسون أنواعا من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من انهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة . وهذا كله معناه اننا يجب الا نأخذ البيئة الطبيعية او الظروف الايكولوجية على انها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف او الشروط الشاملة التى تتلازم على قيام نمط معين من انماط الحياة الاجتماعية .
(راجع كتاب : الانساق ، المرجع السابق ذكره ، صفحتى ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والأخير ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالى على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت فى المجتمع سواء اتخذت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، أو شكل التحكم فى الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها فى صور واشكال جديدة ، فلا بد للعلم من ان يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السيئة التى يخلفها تحكم الانسان في هذه الظروف والاوضاع البيئية . اذ ليس يكفى ان تنظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان عن طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وانما لا بد من أن تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل فى تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية ومايترتب على ذلك من مرض أو متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعانى منها المجتمع في المستقبل ان لم يكن يعانى منها أو من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن ازمة البيئة والأبعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفز المشتغلين بالتخطيط — فى مختلف فروعه — بالعمل على تلافى استفحال هذه الازمة او استحكامها بشكل يهدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

أهم المراجـع

— Avril, R.; **Man and Environment**, Penguin, 1967.

— Buchanan, R.A.; **Technology and Social Progress**, Pergramon, Oxford 1966.

— Carson, Rachel, **Silent Spring**, Penguin, 1965.

— Drucker, P.F.; **The Age of Discontinuity**, Heineman, London, 196969.

— Galbraith, J.K.; **The Affluent Society**, Pelican, London, 1970.

— Hamilton, D.; **Technology, Man and Environment**, Faber, London 1943.

— Mumford, Lewis, **The City in History**, Pelican, 1966.

— Roszak, T., **The Making of a Counter-Culture**, Faber, London, 1940.

— Shanks, M.; **The Innovators**, Penguin, 1967.

— Sterland, E. G.; **Energy into Power**, aldus Books, London, 1967.

— Wagner, R.H.; **Environment and Man**, Norton, N.Y. 1971.

— Watt, K.F.; **Ecology and Resoutcie Management**, N.Y. 1969.

وذلك بالاضافة الى المقالات العديدة القيمة التي يضمهاعدد خاص من مجلة Daedalus **(وهى المجلة التى تصدرها الاكاديمية الامريكية للفنون والعلوم عن** America's Changing Environment **خريف عام ١٩٦٧ .**



محمود احمد الشربيني

الانسان بين العلم والبيئة

الجو مليء بالاشعاعات تأتينا من عل ،وكأن السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكنا لا نأبه لها ولا نتتبع اثرها ، ولعل اثرها حتم فى تطور البشرية .

ومن يدرى ، ربما كانت الجرعة من الاشعاعات التي تأخذها اجسامنا يوميا تؤثر علينا فى نسلنا ، وهى تؤثر على آلات القياس فى معاملنا فتدق فى كل دقيقة جملة دقات .

ولحكمة الهية قل تصادمها مع اجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما ناكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره فى اجسامنا ، وما اكثر الكربون فى اجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع نسبة ضئيلة ثابتة مدى الحياة ،ويعزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دمنا ناكل ونشرب وفينا نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكأن كل جسم حي فى الوجود يحمل معهساعة دقاقة تدق دائما دون ان يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن فى التحرك ساعة الوفاة . ويدلمقدار النقص فى عدد الدقات على مضى الوقت بعد مفارقة الحياة ، واذا اقتلعت شجرة مـنارضها فقد فارقت الحياة ، واذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك أكثر منسؤال يجول بالخاطر ارجئها جميعا حتى نتعرف على الاشعاعات التى تغمر الجو المحيط .

الاشعة الكونية :

يأتى الينا وابل من الاشعاعـات الذريـةبطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى الينا من كل فج عميق . لا يحابى اتجاها دوناتجاه ، فجميع الاتجاهات عنـده سـواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق فى كل زمان وعلىكل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الارضية جميعا ، وهمأشتات ، رؤوسنصفهم تتجه الى شمال ورؤوس النصف الباقى تتجه الى جنـوب ، واقدامهـمجميعا تتجه الى مركز الكرة الارضية يقيسون ويتفقون على سرعاتهذه الاشعاعات وطاقاتهـاوكل مالها من آثار كما وكيفا ، ويطلقـون عليهـا اسم الاشعة الكونية .

والرأى السائد انها تأتى الينا من أعماقالكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط تزيح ما يعترض سبيلها . وفى عمليةالازاحة تكون هناك ضحايا فتظهـر اشـعاعـات ثانوية ، هذا لو جاز ان نسمى الاشعاعات قبلالتصادم مع ذرات الجـو المحيط بالاشـعاعات الابتدائية ـ وربما يصل الينا من وقت لآخر بعضمن الاشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل الينـا فى الواقع كثير من الاشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على ان الاشعاعات الابتدائية هى ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهى ذرات كاملة التأين ، والذرة بغيرالكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

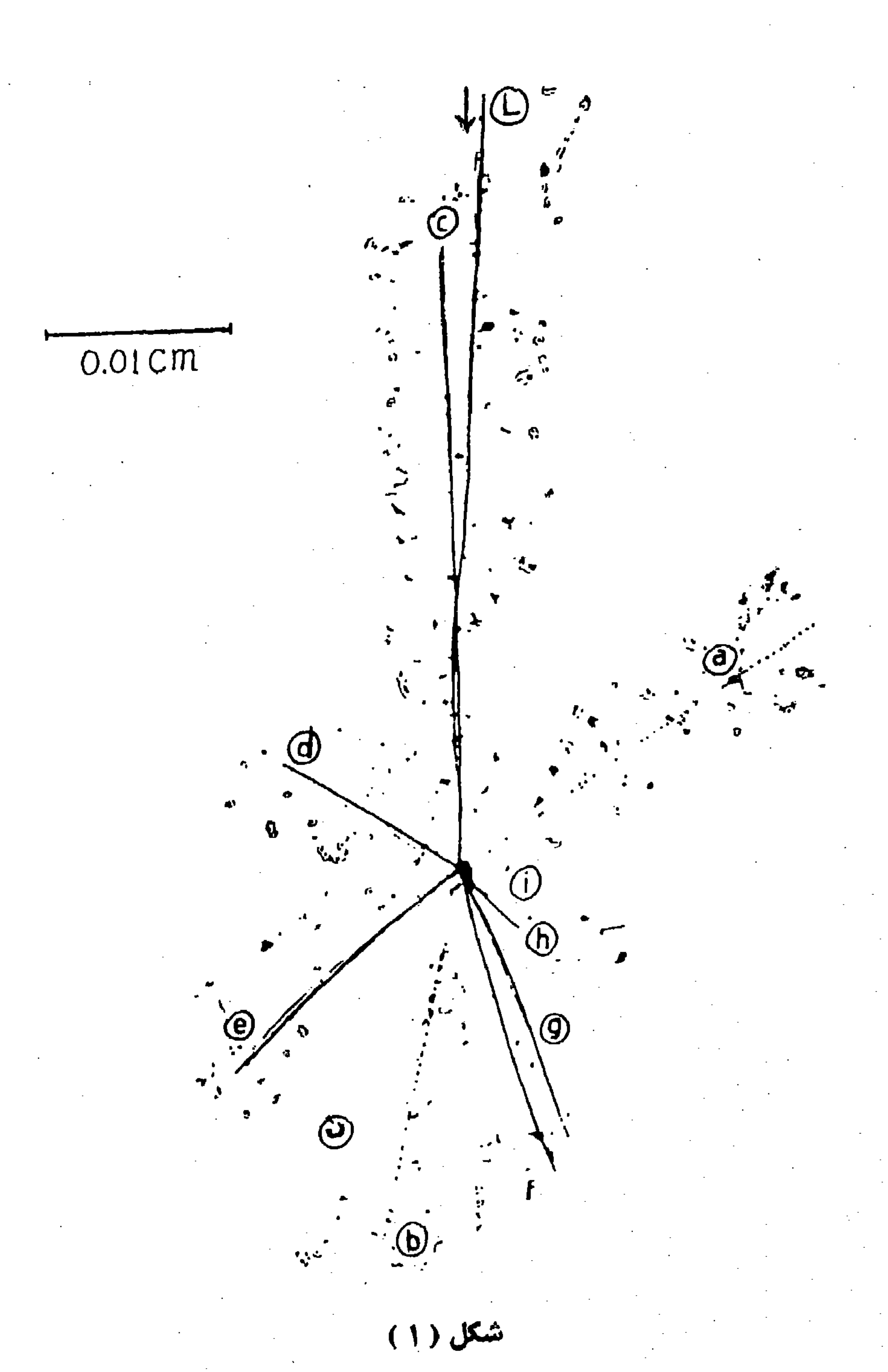
وأجمعوا على انها نوى الايدروجين والهليوم، ونوى ذرات أخرى خفيفة وثقيلة ، ولعل أثقلها نوى الحديد ، أجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات، وان كان الاجماع على ان النصيب الاكبر لنـوىالايدروجين ، أو ما يسمى البروتونات ، فقـد اختلفوا ؛ وقال فريق ان تسـعين فى المائة مـنالمكونات هى البروتونات ، وقال فريق آخر انها اقل من هذا . ولكن لم يقل أحد ابدا انها اقلمن سبعين فى المائة من المكونات . واجمعوا ايضا على احتلال الهليوم المكان الثانى بعد الايدروجين، فتراوحت نسبة نوى الهليـوم أو مـا يسـمى بجسيمات الفا بين تسعة وعشرين فى المائة وتسعةفىالمائة ، اما الثقيل من النوى ككل فهو أقل من واحد فى المائة .

كشفنا عن هذه الاشعاعات بطرق بدائية ،ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، اذكر منها المستحلباتالفوتوغرافية لبحثمكونات الاشعة . اذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرى أثر مسار الجسيم بعد التحميض والتثبيت ، اذ نجد خطا من النقاط السوداء تشى بمسار الجسيم فى المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر أى ميكروسكوب . واستحدثت مستحلبات لهذا الفرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

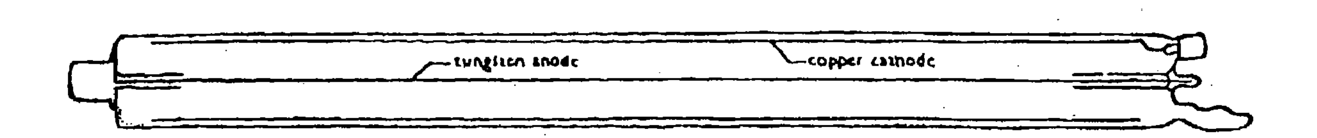
استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم الذرى المشحون بذرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، اعنى ينفصل من الذرة الكترون فتصبح أيونا ، وهذا بدوره يؤين ذرة اخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم فى الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل اسطوانه قاعدتان ، ومادة القاعدة فى حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجسن مشدود على امتداد محور الاسطوانة ينفذ من القاعدة . تسمى الاسطوانة المقفلة بسلكها وغازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميللر » وعندما يعمل العداد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للاسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات الذرية فى العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضا فى الكشف خاصية أخرى ، حيث لا يسمح الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون فى هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها أخذنا صورا فوتوغرافية (شكل ٣ أ ، ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفى داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء أو بغاز الارجون ، فاذا حركنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من المران يمكن التحكم فى سرعة الحركة حتى تؤدى الغرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات الذرية . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعا لاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الغرفة فى مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نتعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد انها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكترونات وبوزوترونات ، وهى الالكترونات الموجبة ، وفوتونات وهي جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اثقل من الالكترون واخف من البروتون ، وأشعة جاما ، كل هذا نتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما فى الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل النتاج أيضا بما فى الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت فى الجو تحوله الى كربون مشع والذي سبق ان تحدثنا عنه .

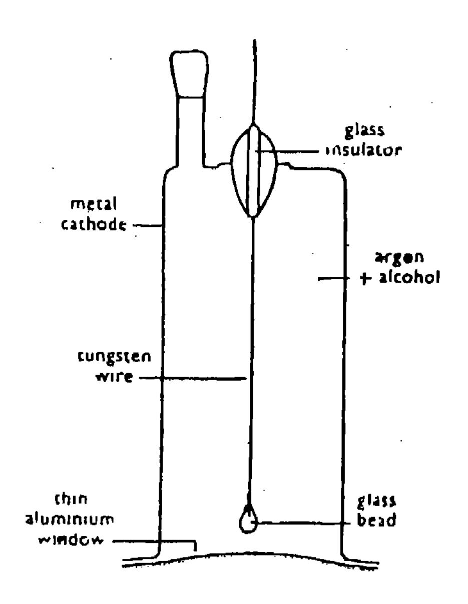


شكل (١)

صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للاشعاعات الذرية الخط a ، b مسار ميزونات باي ، والخط c مسار بروتون .

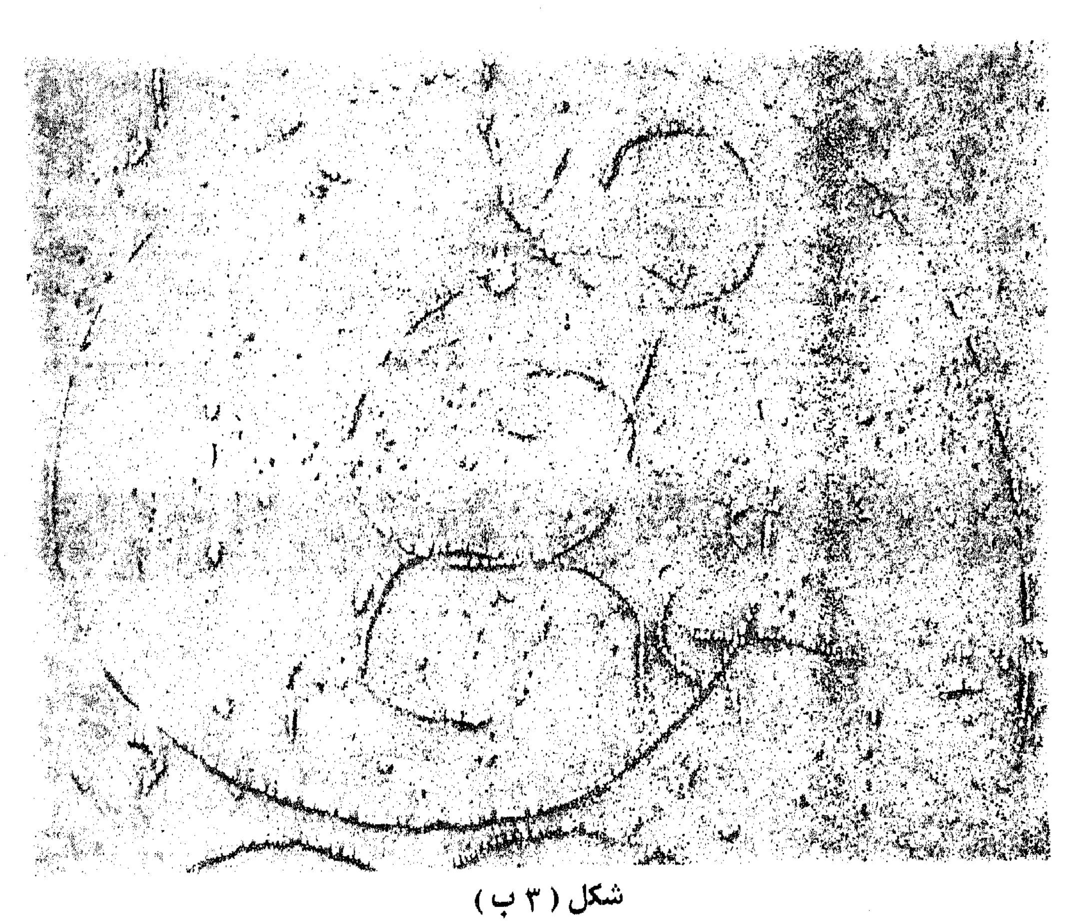






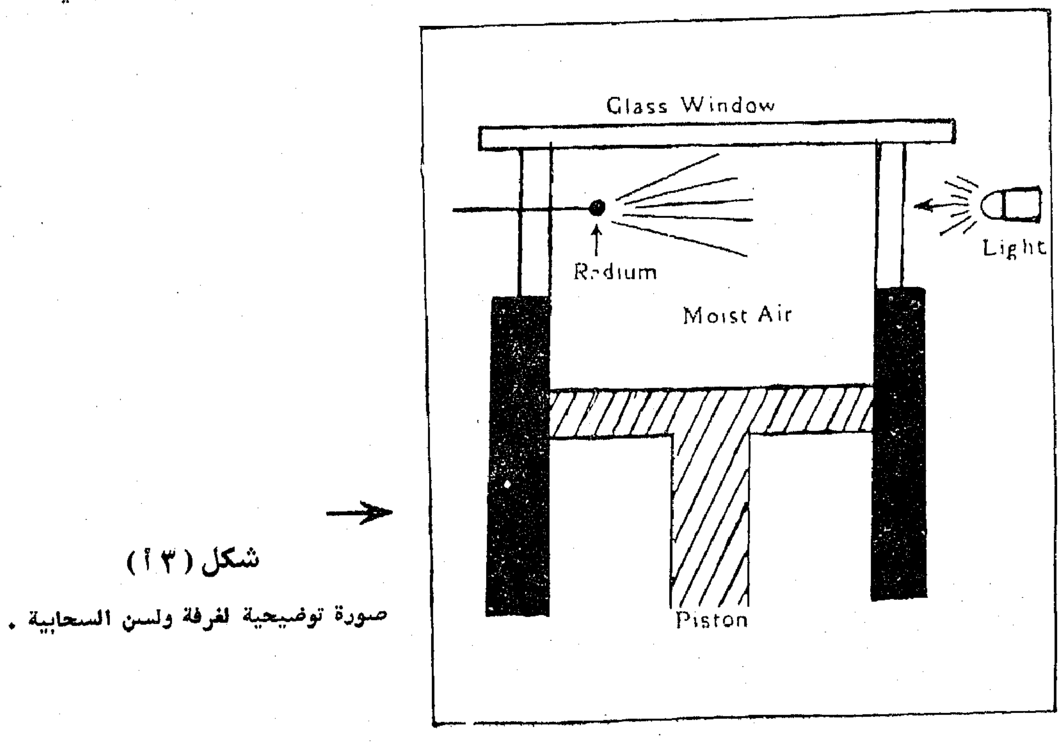
شكل (٢)

انواع مختلفة من عدادات « جيجر وميللر » تلصلح لاستعمالات مختلفة لقياس الاشعاعات



شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في غرفة مثيلة لغرفة ولسن والغرفة موضوعة فى مجال مغنطيسي .



شكل (٣ أ)

صورة توضيحية لغرفة ولسن السحابية .

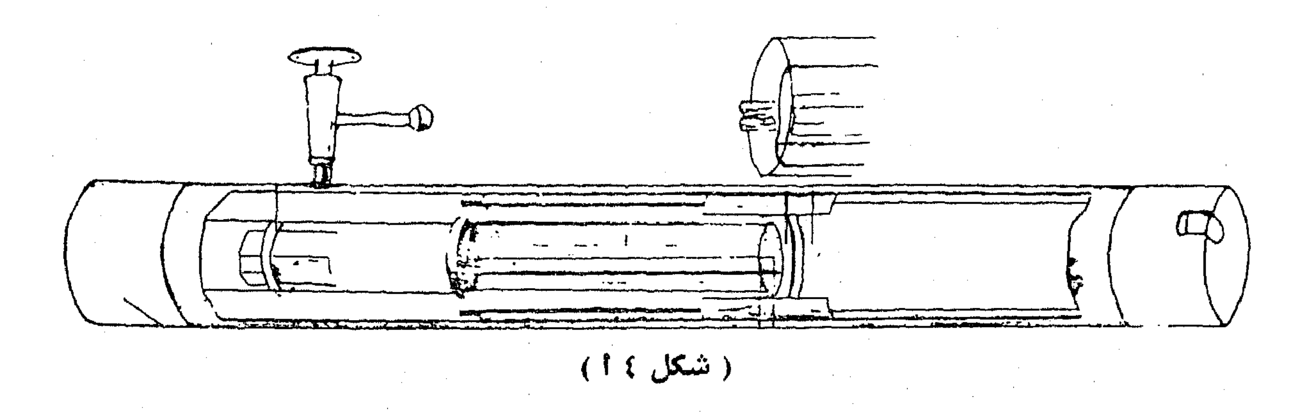
التاريخ والكربون المشع :

لسنا فى حاجة الى تبيان اهمية معرفة طريقة لتاريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الانسان وبيئته فى عصور ما قبل التاريخ . ولعل أقدم طريقة لجأ اليها العلماء هى البحث عن الصخور التى بها يورانيوم ، واليورانيوم مادة مشعة تشع وتتحلل حتى تخمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدى معرفة نسبة الرصاص الخامد الى اليورانيوم فى جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور . وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الاعمار التى تربو على مائة الف سنة ، اما بخصوص الاعمار التى تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، واعود فأقول ان جميع المواد الحية بها كميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وان هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكمية غير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك فى الاجسام الحية ، ويتولد هذا الكربون المشع من تصادم يقع فى الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الاشعة الكونية والازوت فى الجو .

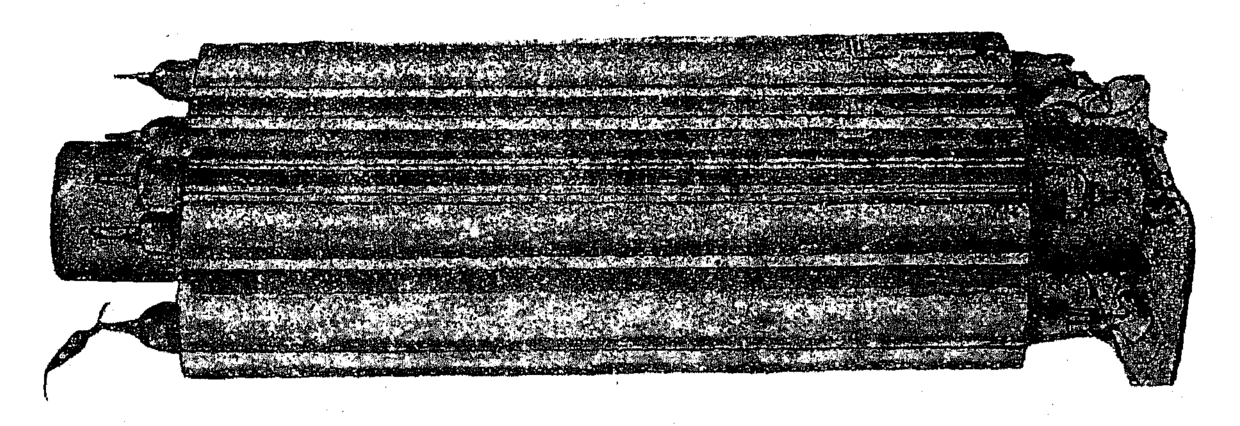
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائية عن الكربون العادى ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود فى مادة حية كالنبات مثلا نجدانه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذه الكمية دائما نسبة ثابتة فى جميع المواد الحية . وتخمد نصف كمية الكربون المشع فى ٥٦٠٠ عام وتسمى هذه الاعوام بعمر النصف ، وتحتاج البقية الباقية الى ٥٦٠٠ عام أخرى ليخمد نصفها ، اى نصف المتبقى ، وهكذا يكون التأريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربون المشع دون تعويض ، اذ أن الحياة قد توقفت ، واصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نسبة الكربون المشع الى الكربون العادى تتضاءل ولا تحافظ على ثباتها . واذا وصلت النسبة الى نصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك أن الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة او نسبة الحياة ان جاز هذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة فى الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذا ان ١٥ ذرة مشعة تخمد نهائيا كل دقيقة فى جرام واحد من الكربون .

واذا ارجعت هذه الطريقة عمر اثر من الآثار القديمة الى ٤٠٫٠٠٠ عام فانا نقول ان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عملية القياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينأى بها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذى يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلامسة مع بعضها (شكل ٤ أ ، ب) وتوضع كلها فى صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢٫٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الاشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ، وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التى يسجلها عداد العينة عندما تتفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العد أن المتسبب فى العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت فى احدى التجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات فى الدقيقة ، لذا رؤى أن يستمر العد لعدة ساعات حتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ٤ أ)



(شكل ٤ ب)

(أ) عداد يستعمل لقياس عينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات المتلامسة التي تحوط العداد الـذي يحوى عينة مراد قياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية فى العشرين الف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ أثبت بواسطة الكربون المشع ان بدء الحياة الانسانية فى امريكا الشمالية معاصر لبدئهـا فى انجلترا والدانمارك ، وذلك حوالى عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على أن هذه المناطق كانت مغمورة بالثلوج ، وان نهاية عصر الثلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، اذ أن الانسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا أى اثر للانسان من قبل ، بدليل انه عثر على بقايا فحم فى احدالكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى أن الانسان كان موجودا فى تلك المنطقة قبل عصر الجليد الاخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت ان الانسان قد ظهر حول حوض البحر الابيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا انك تنزع شجرة فتدق الساعة ويموت الحيوان ، فتدق الساعة وتقف دقات قلب الانسان ، فتبدأ الساعة فى الدق ،هـذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة. لو وجدت جثة محنطة سمعت دقات الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت الى دقات الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنك تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو أعدنا هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلأ الجو بالاشعاعات وكثر تشغيل الافران الذرية او ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه أحزمة مشعة حول الارض لم يسبر غور أثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الاحزمة موقوتة يحسن التحدث عن مسببات زيادة الاشعاعات فى الجو ، اي تلوث الجو بالاشعاعات وهي من مسببات تغير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبداخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميللر » ودقت العدادات بما يدل على ان الاشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الامريكي (المستكشف ١) وهو يدور فى مدار حول الارض وكان أبعد ارتفاع اليه هو ٢٥٥٥ كم واقرب ارتفاع من الارض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرا غريبا اثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ،اذ صمتت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة اخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفاضا عملت العدادات وبدات العد .

ذهب **فان ألن** الى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختنقت العدادات لانها مرت فى منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الذرات بها فتختنق عجزا عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها فى العد عندما تتعدى هذه المنطقة انخفاضا ، لذا صمم « فان ألن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الاشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومسايرتها عدا ثم وضعها فى القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الاهليجي ، حيث كان أكبر ارتفاع له عن الارض ١٠٧٠٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وايابا منطقتين حول الارض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الارضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما أرسل من اقمار روسية وامريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، اغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات اقل للحزام الداخلي . قلت اغلبها بروتونات اذ أن القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الارضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا تختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد أحدثت التفجيرات النووية أحزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام ٤٠ كم ، وبقي بعضها لبضعة ايام وبقي البعض الآخر لعدة أسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الارضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة فى حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزئيات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقلة وعدم استقرار لو هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث أن تعيد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زوبعة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزيئات أخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر فى وضع غير وضعها ، محدثة زوبعة من الحرارة اكبر . وهكذا يزحف التفاعل زحفا سريعا خاطفا حتى يأتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستعر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متمددا . وناقوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل أو قدح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا أقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها قذيفة غير مكهربة « نيوترون » ان تنشطر الى شطرين يطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالد القذائف غير المكهربة اثناء الانشطار ، وكأني بها تخرج من صلبها ما يزيدها اشتعالا فيزداد الانشطار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهدما وتدميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنـواة علىما نعلم كرية الشكل أو هي الكرة أقرب منها الى هيئة أخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوىتنافر ، وتربو قوى التجاذب على قـوى التنافر حتى لا تتناثر .

ولو كان فى النية ان نجبر النواة لتنشطروجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين فى طرفي عاتق . وفىهذه الحالة تكون قوىالتنافر قدر قوىالتجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هـي فىاسـتقرار حرج فى انتظار الضغط الـذى يقصم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفتقوى التجاذبوفعلت قوى التنافر فعلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقةلاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين فى طرفي عاتق . وهذه النواةهي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ،والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها الذري ٢٣٥ ويعز هذا النوع عن زملائـه مـنالنظائر ، اذ يندر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه عن استقراره الحرج وجب ان نهيجهبقدر ، وهذا المقدار هو أقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج فى درجات . وقد وجدان من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم أن يبعث من المخلوطنيوترونات يمسك البطىء منها بنوى اليوارنيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيـح ، وتخرج عـناتزانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد فى بعض الاحايينان احدهما باريوم والآخر كريبتون،وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلـقأيضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطىء منها الاثر ثم يتضاعف مرة أخرى بهـذاالتضاعف ،وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاببدأ واشعل وللنار ان ترعى وتغـذي بعضهـا ، وكلما ازدادات سريانا ازدادت اشتعالا ، والقنبلةالذرية ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانيـة يوم ان القيت على هيروشيما : كرة مـن النارقطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منهـا وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطـعمتناثرة فىجميع الجهات من المواد المشعة،ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي اصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ،ومن بعد تصل فى بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة عـن مخلفاتالمواد الانشطارية فى القنبلة .

تفقد الكرة بريقها سريعا وترتفع فى الهواءالغازات الساخنة الناتجة عن الانفجار فى شكل عمود متعدد الالوان أولا ، ثم يأخذ لونهفىالبياض،ويرتفع العمود فى هيئة دوامـة مـن الغـازات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتـار ،واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة أو زهرة تقف على ساقها ، وفى أسفل العمود عند الارضسحب متكاثفة من الدخان والغبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عمود من الغازات والجسيمات يرتفع على هيئة مظلةمفتوحة .ارتفاع العمود حوالى ٢٠ كم ف الجو.أخذت الصورة للعمود عندما سقطت القنبلة الذرية علـى الميناء اليابانـيوالمركز الصناعى المسمى ناجازاكى .

نعود ونسأل عن أثر الانفجار في اطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، أعني بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وتبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان أو ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدأ بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، ويبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل اللفحة الحرارية وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد رؤي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانابيب غاز قد انفجرت، واسلاك كهربائية وقد انصهرت، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق اقل شدة كل من كان على بعد اربعة كيلو مترات ،ويقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قاتمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر اقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها أشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطار في الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الأولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ،وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف أو أكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والمباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ،اذ كان من نصيبهم جرعة مميتة من أشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات . والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحدثة للانفجار ، وتتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها أقل من سرعة الضوء ، وهي اقل أثرا على الاجسام من أشعة جاما ، ورغم قلة أثرها فهي أكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز يأتي الانسان من مأمنه . وأخطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بعبارة ادق أعمارها الاشعاعية، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . ولكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بأن تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تشم ولا ترى ولا تحس الا بآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

واخيرا ليس المجال مجال التحدث عن لفحة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني اقول ان هناك اجماعا من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للآثار الضارة الناتجة عن الغبار الذري ، سواء في مكان الانفجار او في الاماكن المجاورة أو في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الاشعاعات في جو الكرة الارضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي أن يتجرعها في حياته الدنيا . لا اريد أن أذكر تفاصيل علمية عن تأثير الاشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للامراض ، وتجعله هدفا لمختلف انواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلف الاعصاب ، ويورث الآباء الابناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني ان العلماء قد بدأوا يفزعون من خطر الاشعاعات اذ رايناهم ينقصون الى النصف مقدار اكبر جرعة مسموح بأخذها دون حذر على الاجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ اذ انقصت الجرعة الى نصف ما كان متفقا عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر أدلة على خطر زيادة الاشعاعات في الجو المحيط .

وكما أن القنبلة الذرية رمز الفناء فهي أحيانا رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وانشاء الطرق وغيرها ، وكأننا جعلنا من الهلاك نفعا ومن النار زرعا ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرنا ذريا أو ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء الى تحلية ماء الى ري ارض لا يصلها الماء ، الى غير ذلك من امور نحتاجها في بناء المدنية والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية او الافران الذرية عبارة عن تكويم لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلا عند بناء هرم من اللبنات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب أحمر) .

ترص قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنه في حالتنا ترصع طبقة من قوالب الجرانيت بصناديق من الالونيوم ملأى باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة او على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى أبعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية وأخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، اعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلا هندسيا مجسما يوافق ما يقرره البحاث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية او الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهدىء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الغاز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهدىء غير الجرافيت ، فيكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالالونيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بأنه يهدىء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الايدروجين الثقيل ، فى حين ان الجرافيت يهدىء بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات أقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل فى حالة الماء الثقيل عنه فى حالة الجرافيت . ويسمى الفرن فى هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدىء يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، واحيانا نجعل الوقود والمهدىء فى امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا فى النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة فى ماء عادي ، والماء هنا هو المهدىء ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الغني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن فى حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالكادميوم أوالبورون ، بل يمكن التحكم فى التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخماد بواسطة القضبان فى حالة الفرن الجرافيتي أسرع منه فى حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخماد فرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار فى ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤخر الوصول الى الاخماد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب أن نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون فى الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذرى وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشىء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشعل الفحم والبترول بالكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذرى هو النيوترون احد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة فى الجو المحيط ، ولا يتعدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق أن ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدىء من سرعتها بالماء أو الجرافيت، لان النيوترون البطىء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطىء باليورانيوم ٢٣٥ اهتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق أن شرحنا عند الحديث عن القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم فى التفاعل ونسيطر عليه.

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، وأودع العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا تعقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى أبسط ، فالايدروجين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقد لا مانع ان يتحرر ، وهذا فى تعقده وذاك فى تحرره يعملان عملا ويحدثان طاقة ، وهى ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقيل انشىء قصد الابحاث العلمية ، وتخبزالمواد فيهلتخرجمواد مشعة اصطناعيا ، ثم أصف مفاعلا بالماء العادى انشىء قصد توليد الكهرباءلاستخدامها صناعيا .

فرن ذرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبى الذى رأيته بوجود٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢ر٢ طنا ، وقطر العمود ٢ر٢ سموطوله ٦ر١ مترا ، والعمودمغلف بغلاف من الالمنيوم سمكه ملليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لمفتاح مثبت فى لوحة التوزيعتأخذالاعمدة شكلاهندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجةجعلتالتحكم فى مواضع الاعمدة تاما ، فالزحزحة تصل الى ١٠ر٠ مم .

تغمس الاعمدة فى الماء الثقيل البالغقدره ٥ر٤م٣ والماء فى وعاء من الالمنيوم مقفل ومزدوج الجدران ، ويفرغ ما بينهما ويعلو الماءالثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١ر١ جو.

وهنالك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتتجهالى قاعه قطرها ١٠ سم وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخبز أى لِتُشَعَّع وتصبحمادة مشعة ، واقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاحمعين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الاخلال باوضاع الاعمدة الاخرى .

وهنالك أربعة قضبان حاكمة ، وهي مادةالبورون وقضيبا أمان من الكادميوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ٥ر١ متر ، يتحركانتلقائيا ، لو زاد الاشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ،وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلوبة الطاقةلا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصفويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقدكان الفيض فى بدايته او فى الفرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

أكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠°م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨سم٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم في المنتصف هى١٤٠° م ، كما أن قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بمتر من الجرافيت كعاكس ،ويوضع أعلاه طبقة من الكوبلت الرصاصى والبرافين الرصاصي .

وفى دائرة الفرن اربع مضخات . المضخةالأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهيليوم مرة أخرى الىالوعاء ، اذ أن الهيليوم يمر فى دائرة مقفلة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهيليوم مع ما تحللمن الماء الثقيل ، أعني مع غاز الاكسجين والايدروجين الثقيل فوق لوح من البلاديوم ليتحدالاكسجين والايدروجين الثقيل مرة ثانية ليصبحا ماء ثقيلا ، ويعود الماء مع الهيليوم الى الفرن مرةثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بغية تبريده ثم ارجاعه الى الفرن مرةثانية فى دائرة مقفلة ، ويبرد بامراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها مـاءبارد متحرك فى دائرة اخـرى بواسطـة المضخـة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مقفلة اذ يقذف ماؤهاالى غير عودة وتسحب هذه المضخة ٢٥٠ م ٣ من الماء فى الساعة (شكل ٦)

يستخدم هـذا المفاعل للبحث والتجريبلمعرفة اثر الاشعاعات على الموادولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

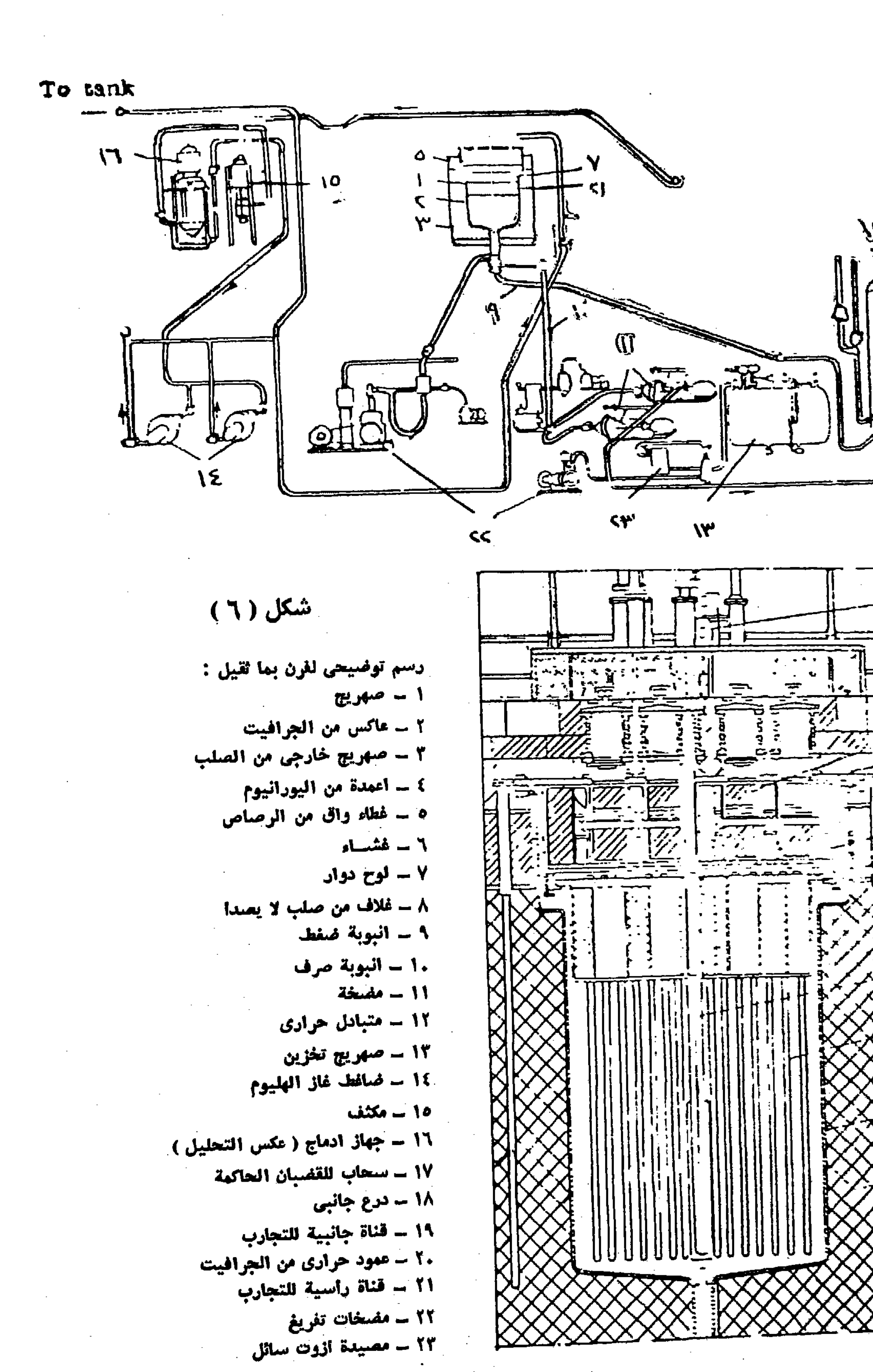
محطة الكهرباء الذرية :

يتلخص عمل هذه المحطة الذرية فى توليـدحرارة نتيجة للانشطار المتسلل لقوى اليورانيوم. وتستخدم هذه الحرارة لتحويل المـاء بخـارا ،ويعمل البخار فى ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطةالتقليدية التي تستخدم الفحم وقودا هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد فى حالتنا مـن الوقـودالذرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن الذرى لتوليد الحرارة ، والقسمالثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخـار المضغوط. اما القسم الاخير فهو التوربينالتقليدىالذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سأكتفـي بوصف الفـرن الـذرى ، اذ انالمتبادل الحرارى والتربين لايختلفان عن مثيليهما فى المحطات التقليدية .

الفرن الذرى :

انابيت مصنوعة من اليورانيوم مغلفة مـنالداخل والخارج بمعدنالصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من أعلى الـى جوف الانابيب ، حيثيخرج من أسفلها ليغمرها من الخارج من أسفل الى أعلى ليملأ الوعاء الخارجي لانابيب اليورانيوموعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعـاء مـن الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٥ر٦ م محاط بمتر منالماء يليه ثلاثة أمتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عنـدمنتصفها من اليورانيوم الفني بالنظر ٢٣٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبةاشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٥ر٢ م وقطرها الخارجي ٢ر١ سم . ويزن اليورانيومباكمله نصف طن . نسيت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة مـنالجرافيت قطرها الداخلي ٦ر١ سـم وقطرهـا الخارجي ٥ر٦ سم ، ويغطى سطحهـا الخارجيبالصلب الذى لا يصدأ ، ويترك السطح الداخلي عاريا ، اى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماءتحتضغط ١٠٠ جو ، ويمر فى داخل الوعـاء ويغمـر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرجحيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ ويتركه فى درجة حرارة قدرها١٩٠ م ٥ . ويأتي الماء مضغوطا من بالـون مـن الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفـرن ، ويحـوىالبالون انابيب طول كـل منها ٥ر٥ م وقطرهـا الداخلي ٢٠ سم ، ويملأ الربع الاعلىللانبوبة هواءتحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عـن الهواء غشاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبلوصولهالى الفرن ، ثم يمر منه الىالمتبادل الحرارىحيث يعود مرة اخرى فى دائرة مقفلة .



شكل (٦)

رسم توضيحي لفرن بما ثقيل :

١ ـ صهريج
٢ ـ عاكس من الجرافيت
٣ ـ صهريج خارجي من الصلب
٤ ـ أعمدة من اليورانيوم
٥ ـ غطاء واق من الرصاص
٦ ـ غشاء
٧ ـ لوح دوار
٨ ـ غلاف من صلب لا يصدأ
٩ ـ انبوبة ضغط
١٠ ـ انبوبة صرف
١١ ـ مضخة
١٢ ـ متبادل حرارى
١٣ ـ صهريج تخزين
١٤ ـ ضاغط غاز الهليوم
١٥ ـ مكثف
١٦ ـ جهاز ادماج (عكس التحليل)
١٧ ـ سحاب للقضبان الحاكمة
١٨ ـ درع جانبى
١٩ ـ قناة جانبية للتجارب
٢٠ ـ عمود حرارى من الجرافيت
٢١ ـ قناة رأسية للتجارب
٢٢ ـ مضخات تفريغ
٢٣ ـ مصيدة ازوت سائل

يتبخر ماء فى دائرة اخرى تحت ضغط ٥ر١٢ جو ، وذلك عند المتبادل الحرارى ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الاولى . وقد وجد ان البخار خلو من الاشعاعات . ويذهب البخار الى تربين من النوع التقليدى ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب الى المتبادل الحرارى مرة اخرى ليعود سيرته الاولى بخارا ليبدأ دورته من جديد . وحركة الماء فى الدائرة الاولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار فى الدائرة الثانية ٤٢ طنا فى الساعة ويستعمل فى دائرة الماء مضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طنا فى الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة ثلاثة آلاف دورة فى الدقيقة .

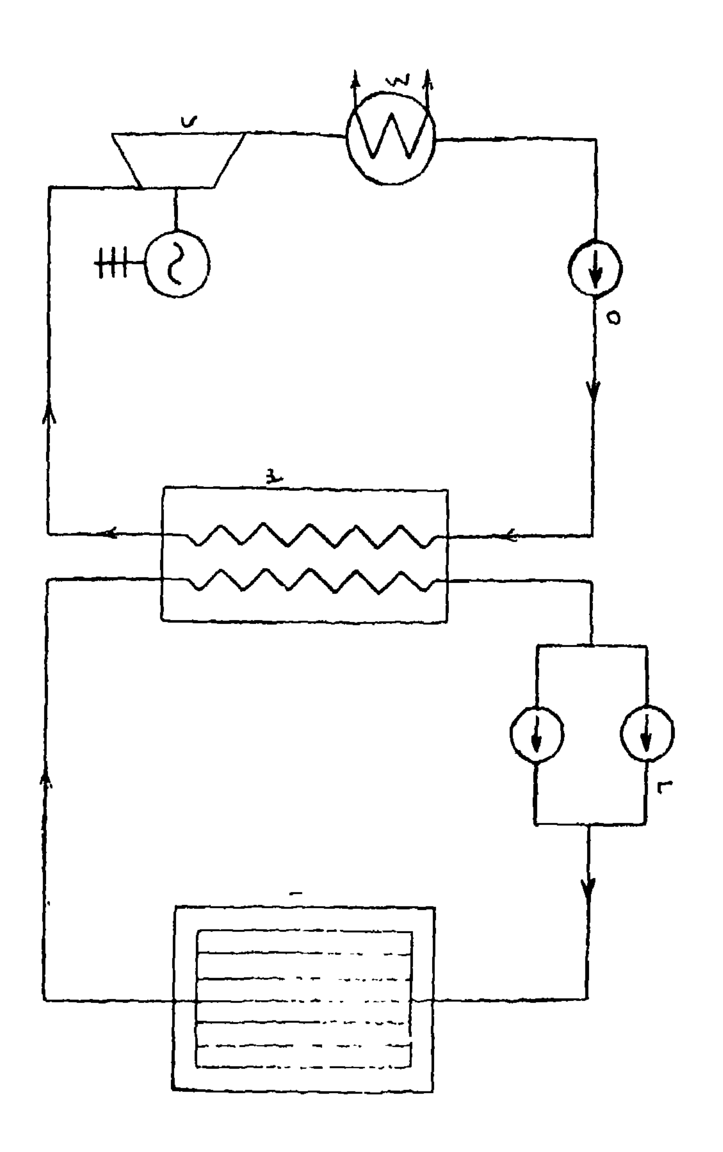
ويضبط الماء الداخل فى كل انبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتتساوى درجات الحرارة فى جميع الانابيب ، وتضبط كل انبوبة على حدة ومقدار ما تأخذه الانبوبة من الماء في الساعة هو ٣م٣ ، والتهوية لازمة اذ يتغير الهواء فى الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة فى الساعة ، والقضبان الحاكمة فى الفرن من كبريتيد البورون وكذلك قضيبا الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من الذرة (شكل ٧) .

التسمم والمخلفات :

يتلقى اليورانيوم فى الفرن الذرى ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الالومنيوم الذى يغلف اليورانيوم ، وينشطر نوى اليورانيوم ٢٣٥ الى شطرين ، والنوى المتولد نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكريبتون والاسترونشيوم والاكزينون وغيرها . تتكون هذه العناصر فى أنابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للانابيب انها تسممت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الانابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضع شهور من التشغيل ، ولا أقول لتفسل الأنابيب شبه المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل أقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة او ماتسمى بالمخلفات الاشعاعية ، اذ هي مواد نشطة نشاطا اشعاعيا ، أقول هذا ولا ادخل فى الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لغلاف الالمنيوم لانبوبة او اكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالمواد الاشعاعية ، وهنا الاشكال الاكبر فى كيفية التخلص منها ، هل نقذفها فى أعماق البحار وقد أصاب الفزع الاسبان عندما اشيع ان غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم ندفنها فى أعماق رمال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف اكبر من تلوث البيئة والجو بالاشعاعات ، وقد استأنسنا التفجيرات الذرية ، ولكن من يدرى فربما تكون وبالا علينا ... ورحم الله الاعرابي الذى استأنس ذئبا وبعد أن اطمأن اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخاطبه قائلا « ومن انباك ان اباك ذيب » ؟

اقول هذا لابين أن الخير في استخدام الطاقة الذرية فى الاغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر علي تلافيه والعمل علي عدم ايقاظه ، وقانا الله ووقاك ووقي البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمحطة كهربائية ذرية :

١ ـ المفاعل

٢ ـ التربين

٣ ـ المتبادل الحراري حيث يتولد البخار .

٤ ـ المكثف حيث يتحول البخار الى ماء .

٥ ـ مضخة للدائرة الثانية .

٦ ـ مضختان للدائرة الاولى .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان فى بداية وجوده علـى الارض شيئا مذكورا ، وكانت خبرته بما حولـه رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيرا عما يأتيه الحيوان بغريزته . ولعل أكبر دليل على مستوى التفكير الانساني فى ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوارى سوأة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رأى غرابا يهيل التراب على أخيه الغراب ...

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات مما حوله ويعدل فى طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض ... ولعل أفلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « أثينا » فى ذلك الوقت الـى عدم درايـة الانسان الاول بالزراعة ... ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعيـة ، وتغيرت البيئة تغيرا كاملا ، غيرها العلم .... ثـم جاءت الحشرات ترعى ، وأتى الجراد على الاخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن تلتهمه ، واذا بالعلم يخـرج علينـا بالمبيـدات الحشريـة والاشعاعـات الذريـة والمخصبات الكيماويـة ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارىء ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيـا صغيرة الحجم يطـوف ارجاءهـا الانسان فى ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصـا ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجىء ، فالحجرات المكيفة الهواء محاولة من هذا النـوع ، وانى أشعـر ان البيئة التي تقاس على الانسان تتنافى والفطـرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لابد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل فى الفضـاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لابد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد ان يغوص فى البحر لابد له ان يعد العـدة ليتقى الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوته بزمن محدد . أما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل .. ونتساءل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش فى الجو الحار ؟... وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش فى المناطق القطبية ؟ .... أعدت حجرات لتمثل هذه المناطق ، وأجريت التجارب للوصول الـى نتائج محددة يعتد بهـا ، وانتهى بعضها الى ان الانسان حيوان استوائي وبيئته استوائية يحملها معه أينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم فى الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد اكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلا ، وبان أيضا ان الاسكيمو لا يأكلون اكثـر مما يأكل غيرهم ... ولكن العمل الشاق هـو الذى يتطلب كميات أكبر من الطعام ... وبـان أيضا ان الزيوت والدهون ليست أساس طعامهم ، فلو اتيح لهم طعام آخر لأكلوه ، ولكن المتحكـم هو ما فى متناول اليد من طعام ...

هناك حالات تأقلمت مع تغييرات تتناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله أن سوى الانسان حسب بيئته ، اذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقة الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذي يصل الى نصف لتر فى ساعة من الزمان ، وبذلك وقاه الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احداهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة أسطوانة رفيعة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة أكبر فتعرضها للجو أكثر ، وفقدها للحرارة اكبر ، وتبخر العرق منها أكثر ، فكأن الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة اقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم فى تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويضيق بهذا وذاك ويظل فى صراع ، وسيظل فى صراع ابدى حتى يحدث الله أمرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعلى تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان فى صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفى نقيض . فالعلم يبنى ، ومع البناء نفايات وغبار وعفار وبها تتلوث البيئة ونلجأ مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم الينا نتاجا نظيفا لاغبار عليه.

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لاتفنى ولاتستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون فى أثوابها الغول . فاذا اختفت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة اخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المختفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالفارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقود المختفية قدر النقود المستحدثة وان اختلفتا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لاتحدت فى الكم والعدد أيضا . وأسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه فى مداخن المصانع وافران الخبز ، وفى عادم السيارات وفى غيرها من امور نحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبترول وما أشبه . والطاقة الحرارية أيضا أبخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى . اذ تتحول الى طاقة أخرى بمقدار وعلى شروط . فالآلات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لهامصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقذف بالأجزاء الباقية الى مستودع ، ولاتعمل الآلة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجتا الحرارة ـ درجة حرارة المصدر ودجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقذوفة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة اخرى ، ويستحيل عليها ايضا اعادة ما فقده المصدر تلوثا من دخان وحبيبات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتى دور العلم الـذى انتج الآلـة التي أفادت البيئة ريا وزرعا وحصادا ، أو غزلا ونسجا ولبسا، يأتي دوره في صيانتها من العبث بالبيئة التي التي عاش لها يرعاها ويكلأها بعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الـذى انشـأ الآلات التي أفادت في تعمير الأرض باستحداث ادوات الحضارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبدل ويضيف الى الآلات أجهزة لمنع تلـوث الجو الـذى يستنشق هواءه واجهزة لمنع تلوث الارض حيث يشرب ماؤهـا ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثـيرا عنـد ازالـة التلوث ، اذ استخرجت بعض المعادن النادرة من الدخان الذى يخرج من المداخن فنرى قبل تنقيته لينتشر في الجونظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منهـا من غير سوء لا يثير انفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحثت أضرار عـادم السيارات في « لوس انجلوس » احدى مدن الولايات المتحدة الامريكية ووجد ان في المدينة وقتذاك ٣ر٥ مليون سـيارة تستهلك في المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية مـن البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكاربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من اكاسيد الازوت بالاضافة الى ٩٠٠٠ طن من أول اكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جـو مدينة « لوس انجلوس » .. ولكن ما اثر كل هذا على الانسان .. اجريت أبحاث ووجد ان العـين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات في العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥ر٠ جزء من ميلون جزء من هواء المدينة، ويتعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد أصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحللنـا دمه على وجه التحديد نجد ان خمسة في المائـة من هوموجلوبين دم كل فرد خمل وفقد نشاطه ، وذلك عندما يصل اول اكسيد الكربون في جـو المدينة الى ٣٠ جزءا من بليون جزء من هواء المدينة وبقي الاكسـيد في الجو ثماني ساعات ، لـذا كان حتما واجبا ان يحاول البحاث التخلص من التلوث كلية او ازالته جزئيا الى حد لا يخشى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعـة السيارات ، وقد لاحظوا ان اكثر من ثلثى العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكـن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة أقدر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا رؤى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنـع التلوث او تقليلة ، ان يعاد احتراق العادم قبـل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلـق . والعادم عبارة عن غازات الازوت والاكسجين وثاني أكسيد الكربون وبخار الماء وأول اكسيد الكربون وكربوهيدرات واكسيد الازوت واكسيد الكبريت .

وهناك طــرق مختلفة استحدثت لمعالجــةالعادم . اذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بوساطة شمعة اشعال وينطق شكل (٨ أ) عــن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشيء بالشيء يذكر ، لذا اشير الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامــل مساعد لتحترق الفازات غير كاملة الاحتراق فى درجة حرارة اقل منها فى الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعــد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تغنينا عن الشرح .

معيار التلوث :

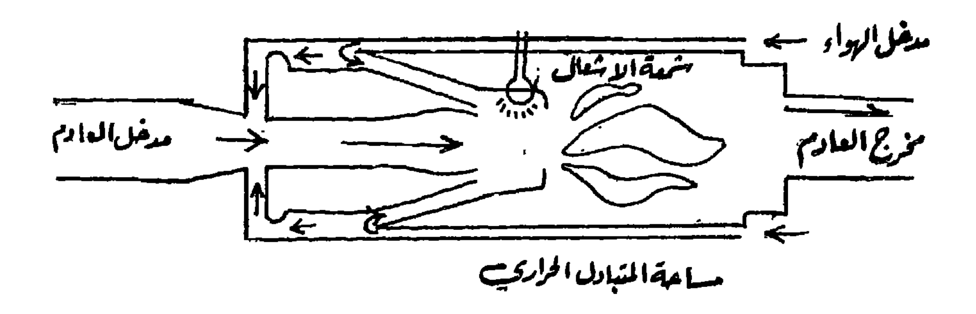
ترتاح النفس العالمة الى الدقة فى القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن البحاث الى ثلاثــة مناسيب عياريــة للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب انذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منســوب الاستعــداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تفير فى وظائف اعضاء الجسم يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي الموت او مرض مفاجيء حاد . ولواردنا دقة فى القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء **من مليون جزء من الهواء من الملوثات فى مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .**

المــادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
أول اكسيد الكربون	ـ	١٢٠	٢٤٠
اثيلين	٠ر٥	ـ	ـ
كبريتيد الهيدروجين	١ر٠	٥	ـ
ثاني اكسيد الكبريت	١٠ر١	٥	١٠
الكاربوهيدرات	٠ر١٥	ـ	ـ
ثاني اكسيد الازوت	٠ر١٥	ـ	ـ
مؤكسد	٠ر١٥	ـ	ـ
اوزون	٠ر١٥	ـ	ـ
دخان	٠ر١٥	ـ	ـ

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .
على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجــين ، ومنسوب الاستعداد فى حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما فى الجدول (١) حيث لا اتفاق بين البحاث على رقم بعينه لذا جــاء الجدول أدرداً كأسنــان العجوز .

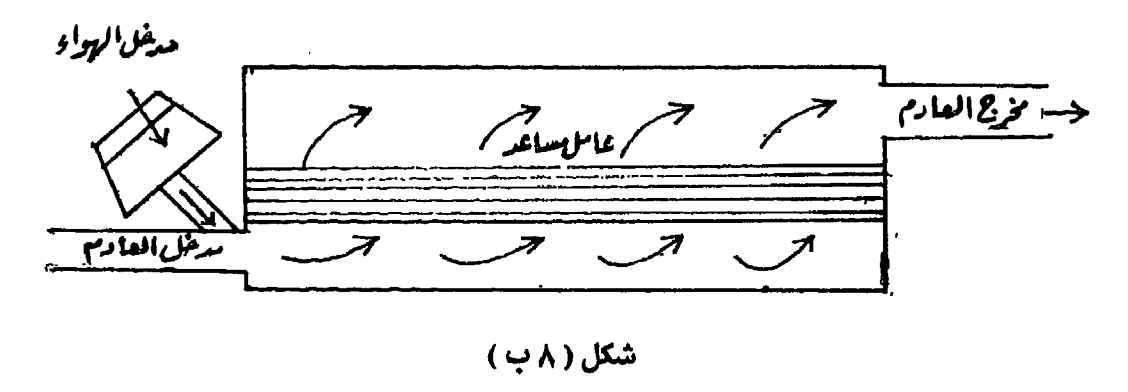
ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيــد الكبريت فى دخـــان المصانع ومحطات القوى ، ونتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكــن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (٨ آ)

جهاز يضاف الى السيارة لاعادة احتراق غير المحترق من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يضاف الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المحترق من الغازات عند درجة حرارة أقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احداهمــاوترعرعت عند تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيــد الكبريت فيمراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءا من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوثمباشرةمن الغلاية شكل (٩ أ) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءا من المحطة فيسخن الموقد مــاءالغلاية وفى الوقت نفسه يسخن الغاز المطلــوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالثاكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شــكل (٩ ب)مأخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هوخارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحــظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لاعادة تسخــينالغاز الخارج .

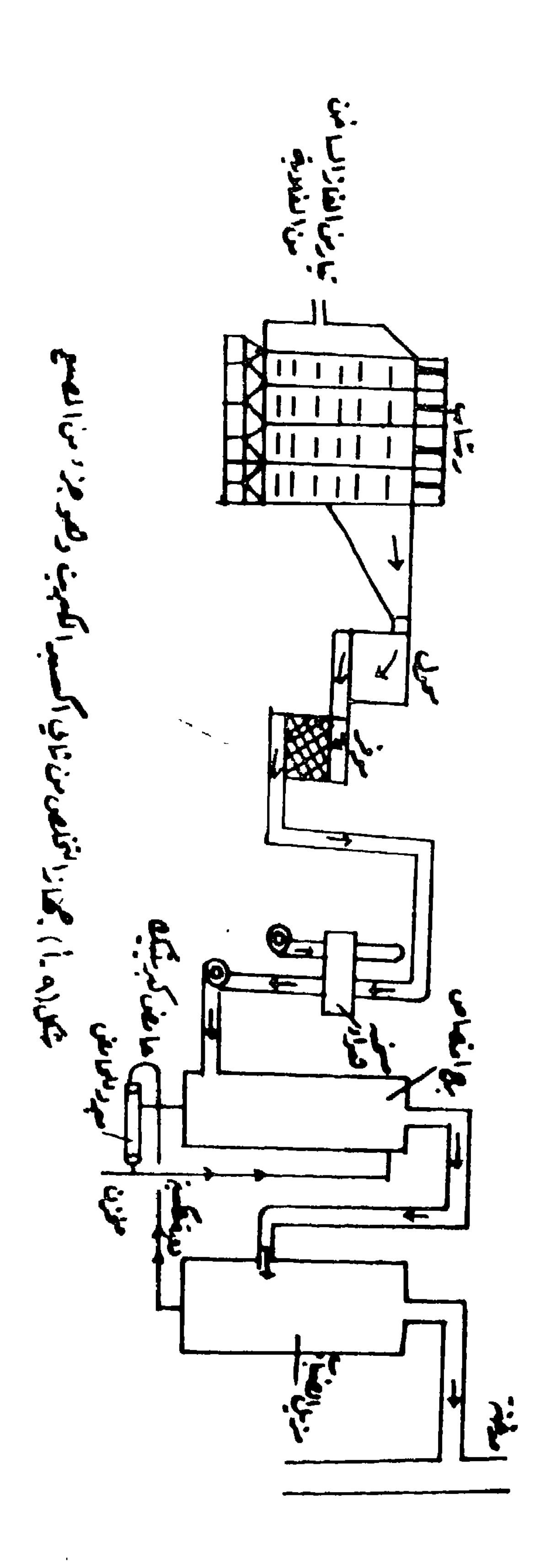
ووجد ان الطريقة الاولى تزيل ٩٠٪ منثاني اكسيد الكبريت فى حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدى الىازالة فى حدود ٨٥٪ .

ويفصل فى كلتا الحالتين في الطريقة الاولىوالطريقة الثانية يفصل الرماد والحبيبات شكل (١٠) أولا بوساطة عملية الفصل الميكانيكي ثمالترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمحول فى شكلي (١٣ ،أ،ب)حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد فى رفع اكسدة ثاني اكسيدالكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبحبخار حامض كبريتيك،حيث يبرد فى برج الامتصاص ويخرج سائلا هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهيازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحوله الى سائل .

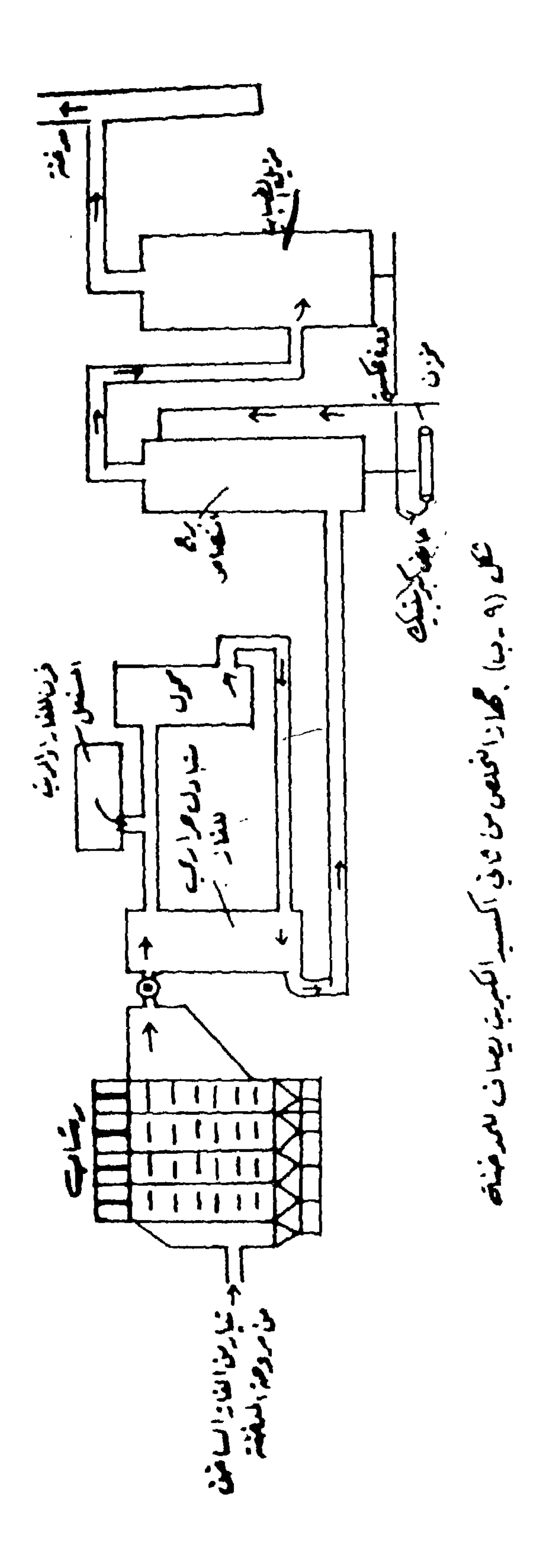
الانســان المتهم

غريب أمر الانسان يلقي التهمة على الآلــةوهو المتهم الاول المتسبب فى التلوث فقد خلق مصدرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئــة التييعيشها حتى لو كان قعيدا لا يبرح فراشه مــن المهد الى اللحد .

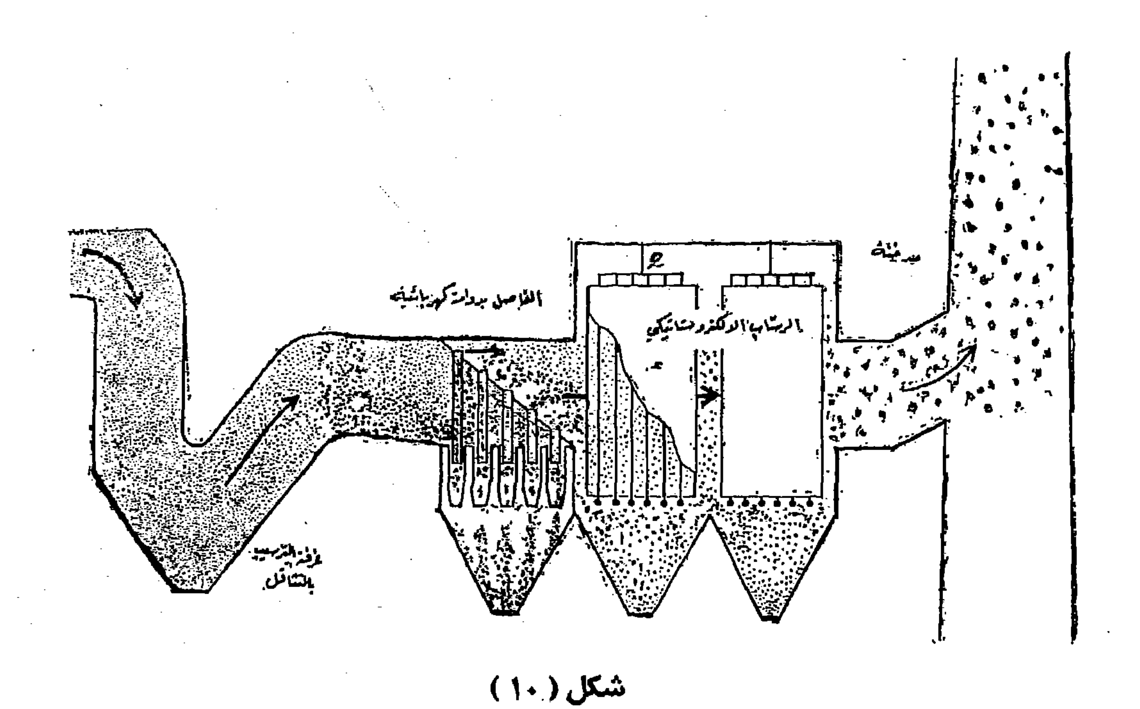
دع عنك افرازاته ، تراه يأخذ منالاكسجين ٣٥٠ سم ٣ شهيقا فى كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلا عنه ٢٠٠ سم ٣ من ثاني اكسيد الكربون .ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجــهمتنفسا ليعيش ويعيش ابناؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهرنهارا باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو فى عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهــي عمليــةعكسية لتنفس الانسان فحصيلة العملية ظهور مادة محببة للحياة هي الاكسجين الذي يخرجالى الجو المحيط بديلا عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لوثهالانسان أثناء تنفسه فهو مسئول أولا واخيرا عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكنلا يــزال يعترينا بعض الخوفــ ، فنحــن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي انكماشالرقعة الخضراءمن الارض، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم البحاثفى التلوث هو ضبط المقدار وتقنين ما يسمح به ،



شكل (٩ - أ) جهاز التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وهو جزء من المصنع



شكل (٩ ـ ب) جهاز التخلص من ثاني أكسيد الكبريت بعادم المدخنة



شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الغازات بعد خروج العادم من الافران وتتاين ذرات الغاز وتلتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والانسان طرف فى هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الابحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول انها تقل وبسوء الاداء كلما كثر التلوث فى الجو ، ويضيفون الى الملوثات المعروفة الاصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه ونقول يخدع الانسان نفسه ويظن انه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد ان ملك انجلترا ادوارد الاول حرم استعمال الفحم فى لندن لانه اعتبر وبحق الدخان غير صحي فهو نوع من انواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

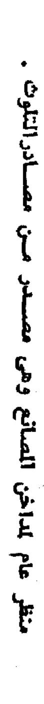
انواع التلوث

قسم التلوث الجوي الى نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبيته من مركبات الكبريت الناتج عن احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكاربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو أخطر النوعين واذكر ان آلافا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط اكسيد الكبريت بالضباب . واني أترك الامر لاحساس القارىء وهو ينظر الى شكل (١١) حيث يرى المداخن وما يخرج منها ، ومن جهة اخرى لو نظرنا الى أثر حركة مرور السيارات فى مدينة لوس انجلوس بامريكا شكل (١٢) نرى فعل الكاربوهيدرات واكاسيد الازوت فى الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (جـ) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (أ) ولكني سأكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي أخطر الفصيلتين .

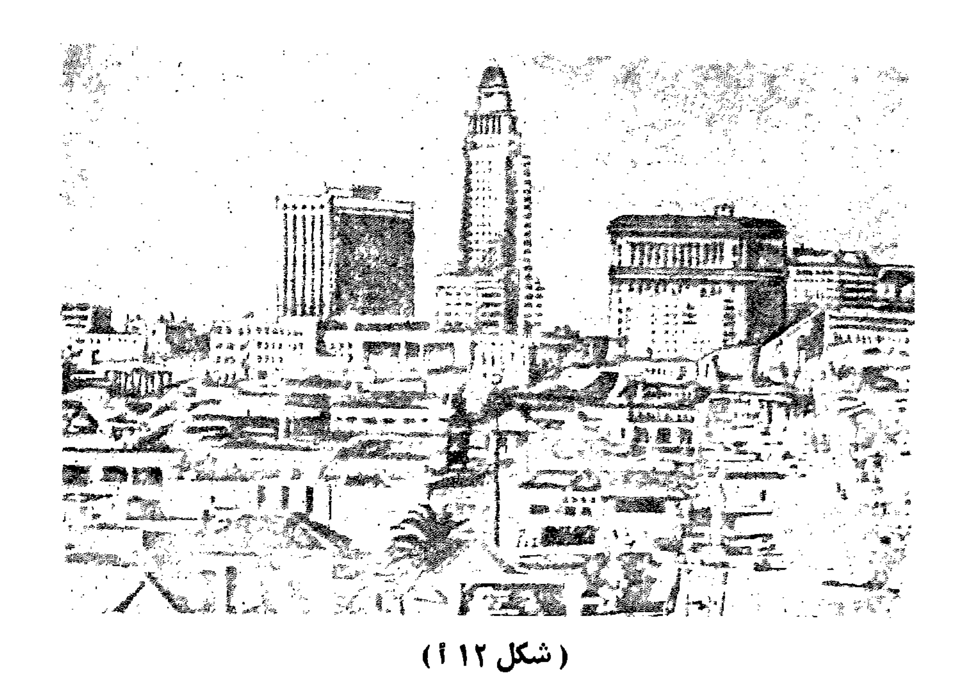
لندن والتلوث

اثبت علماء الانكليز ان التخلص من ثاني اكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، اذ اظهرت الاحصائيات ان انجلترا خسرت فى عام واحد نتيجة تلوث الجو أكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لاصابتهم بالتهاب فى الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء انجلترا التلوث فى جوها الى ثلاثة اصناف : **جزئيات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** ويبين جدول (٢) خصائص هذه الاصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فان مقداره يحسب حسابه اذ يزن الهواء الجوي ٥ر٧ × ١٠ ١٥ طن ويصل مقدار التلوث الى ١٠ ٨ طن . ولعلماء الانجليز طريقة فى التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا او سائلا او جامدا اذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب ـ (١٠ ـ ٦ جم م ـ ٣) ويبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث فى لندن فى ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث فى هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثاني اكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من الغبار والحبيبات الخشنة فى السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر فى جدول (٤) .



(شكل ١١)

منظر عام لمداخن المصانع وهى مصدر من مصادر التلوث .



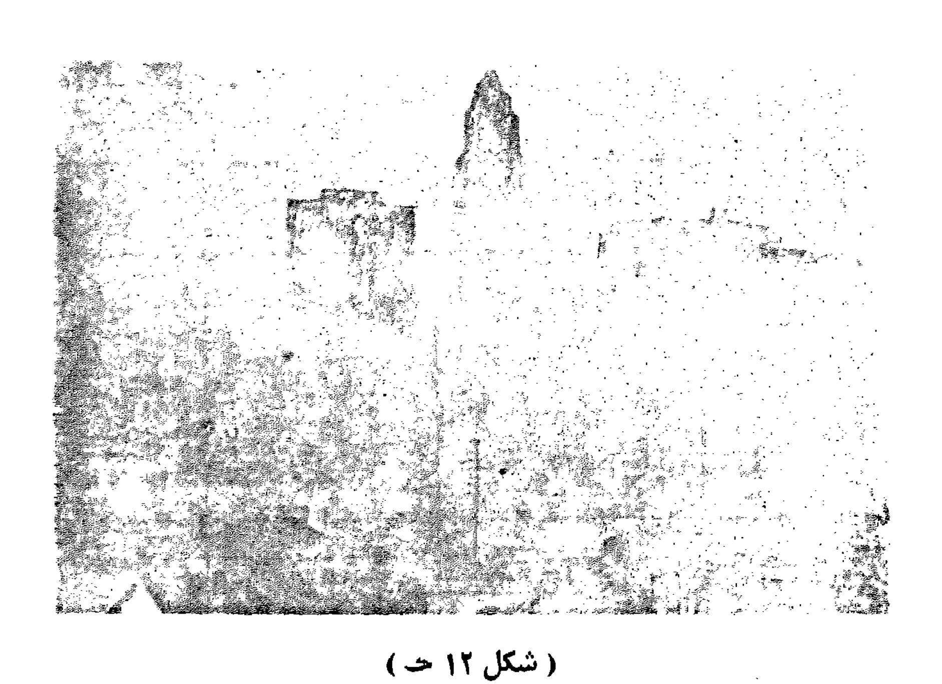
(شكل ١٢ أ)

(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة لوس انجلوس .

(أ) فى يوم لا غبار فيه ولا تلوث .

(ب) فى يوم حار ترتفع فى الغازات الملوثة الى اعلى .



(شكل ١٢ حـ)

(جـ) فى يوم فيه ضباب مكثف .

ويرينا جدول (٥) التلوث من اول اكسيدالكربون عام ١٩٦٨ ويعطينا جدول (٦) بعض البيانات عن حافلات الطريق . وهناك مقارنة بين التلوث في العالم ككل والتلوث في المناطـق الاكثر تقدما ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ° ، ٦٠ ° نراه في جدول (٧) ونلاحظ من هـذا الجـدول ان التلوث من ثاني اكسيد الكبريت من صنع الانسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

أصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقـة جدا	جسيمات مرئية
الملـوثات المنتشـرة في انجلترا البعد النموذجي خواص	ثاني اكسيد الكبريت تقاس يوميا ـ ١٠ ـ ٧سم تختلط مع الهواء غير مرئية اكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ ـ ٤ سم تطفو في الهواء لاترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وحبيبـات خشنة تقاس شهريا ١٠ ـ ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يحبس في الانف والقصبة الهوائية
المصـدر	الوقود كـل انـواع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدمات المنزلية	كل ما يفضـي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لهـا أهمية محلية	اكاسيد الازوت أول اكسيد الكربون في تراكمات راكدة المرور	رذاذ حـامـض كبريتيك ضباب دخان الديزل الابخرة في الصناعة	الاتربة في الصناعة من المصنوعات من التخزين

جدول (٣)

دخان وثاني اكسيد الكبريت فى ٦١٠ طن

السنة		←	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
دخان	من الفحم	منازل	١ر٧٤	١ر٢١	٠ر٧٥
		قطارات	٠ر٢٦	٠ر٠٧	ضئيل
		صناعات وغيرها	٠ر٧٥	٠ر١٩	٠ر٠٩
		مجموع	٢ر٧٥	١ر٤٧	٠ر٨٤
ثاني اكسيد الكبريت	من الفحم	منازل	١ر٢٣	٠ر٩٢	٠ر٦٠
		محطات قوى كهربائية	٠ر٤١	١ر٥٦	٢ر١١
		قطارات	٠ر٣٧	٠ر٢٦	٠ر٠١
		نقالات فحم المناجم	٠ر٣٢	٠ر١٤	٠ر٠٧
		صناعات وغيرها	١ر٣٥	١ر٢٢	٠ر٧٧
		افران كوك	٠ر٠٧	٠ر١١	٠ر٠٩
		صناعات الغاز	٠ر١٤	٠ر١٦	٠ر٠٧
		مجموع	٣ر٨٩	٤ر٣٧	٣ر٧٢
	من الزيت	منازل		ضئيلة	٠ر٠١
		صناعات وسوق التجارة	٠ر٠٥	١ر١٧	٢ر٠١
		طرق وقاطرات	٠ر٠١	٠ر٠٥	٠ر٠٩
		بواخر داخلية	—	٠ر٠٤	٠ر٠٢
		مجموع	٠ر٠٦	١ر٢٦	٢ر١٣
	من الكوك	منازل ووقود بغير دخان	٠و٠٦	٠ر١٠	٠ر١٤
		صناعات	٠ر١٨	٠ر٢٦	٠ر١٥
		مجموع	٠ر٢٤	٠ر٣٦	٠ر٢٩
المجموع	الكلي لثاني	اكسيد الكبريت	٤ر١٩	٥ر٩٩	٦ر١٤

جدول (٤)

الغبار والحبيبات الخشنة فى ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقد منزلية	٠ر١٤٥	٠ر١	٠ر١٠
محطات قـوى	٠ر١٤٥	٠ر٤	٠ر٣٢
قطارات	٠ر١٤٥	٠ر١	ـــ
فحم وكوك يستعمل فى الصناعة	ر٢١٥	٠ر٢	٠ر١
المجمـــوع	٠ر٦٥٠	٠ر٨	٠ر٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٠ر٥	٠ر٥	٠ر٥
المجمـوع الكلي	١ر١٥	١ر٣	١ر١

جدول (٥)

اول اكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من	
الصناعة	٦ر٠
المنازل	٥ر٠
آلات بترولية	٦ر١
آلات ديزل	٠ر١
المجموع	١٧ر٢

جدول (٦)

التلوث من حافلات الطرق فى ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

نــوع الآلة	آلات بالبنزين	آلات بالديزل
أول أكسيد الكربون	١ر٦	١٠ر٠
كاربوهيدرات	٣٠ر٠	١٨ر٠
الدأهايد	٠١ر٠	٠٠٣ر٠
اكاسيد الازوت	٢١ر٠	٠٥ر٠
ثاني أكسيد الكبريت	٠٢ر٠	٠٣ر٠
المجمــوع	٦٤ر٦	٣٦٣ر٠

جدول (٧)

التلوث الكلي فى ٦١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنــع الانسان	العالم	مناطق متقــدمة بــين خطي عرض ٣٠°، ٦٠°
ثاني أكسيد الكربون	٢ × ٥١٠	٢ × ٤١٠	العالم	————
أول اكسيد الكربون	٢ × ٢١٠	٢ × ٢٢٠	العالم	————
ثاني أكسيد الكبريت	مهمل	١ × ٢١٠	———	مناطق متقدمة
اكاسيد الازوت	٢ × ٢١٠	٥٠	———	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٣ × ٢١٠	٩٠	العالم	————
جسيمات	٢١٠	٢١٠	———	مناطق متقدمة

التلوث فى الميزان

تضاربت الآراء واصبحنا فى احتيـاج الىالمزيد من الابحاث حتى نصل الى راي حاسم عن مدى أثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتـوري**باتريك لوثر** مدير وحدة تلوث الهواء فى مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويـه دمالذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلـة وبغير افراط من أول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دمالمعرضين لحركة المرور فى لندن ولعد ةساعات .

ومن الغريب اني قرات تقريرا لرابطـةالمستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحـاث اجريت فى نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الذهنـيلاربعة من الشبان أثناء استنشاقهم هواء على علو ٣٧ر٥ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقريرعن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يـرىفريق ان جملة جرعات صغيرة من أول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسمما ،لان أثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريـق آخر غير هذا الـراى ، وتسرب الشك ايضا الـىثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز فى سبب موت آلاف فى لندن سنة ١٩٥٢ وقـد نسـبالسبب حينذاك الى الضباب المكبرت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط رغم تشابـه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا أنه قد صدر قانونانجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القـراروكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتـى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلافالآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان أول اكسيـدالكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماما بالتلوث . وان أنس لا أنسى رؤيتي مـن سـنين مضـتالعديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحـة كبيرة فى ميناء بيريه باليونان . .

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية فى اغلببلاد العالم ، بل اصبحت ابحاث تلوث البيئـة عالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيـقللجميع لصالح الانسان والبشرية .

* * *

حسن صادق المرصفاوي

البيئة والجريمة

تشغل الجريمة فى عصرنا الراهن – كماشغلت دواما فى الازمنة السالفة – بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكشفت خطورتها وتفاقمت جسامتها وزاد انتشارها بين أفراد عديدين من مختلف الجماعات ، مهما تباينت اتجاهاتها او اختلفت درجتها فى التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عاشها ، ليتبين صورا من الجريمة خلقت مع الايام وليدة ظروف معينة، يستوى فى هذا الدول المتقدمة والاخرى النامية، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم أو التخلف ، فاثرهذا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور فى ذاته يؤدى الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بخطي سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين فى المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقى من واقع الحياة دليلا لوجدناه فى الجرائم التى برزت حديثا بشكل ملموس – لا سيما فى أعقاب الحرب العالمية الثانية – وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة.

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنةاو انها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما فى الامر أن الجريمة تختلف فى مفهومها وفى مــدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينةفى وقت معين وفى مكان معين . والعدوان هــو الاساس فى الجريمة ، بل هو الاســاس فى كـل الافعال التي تلحق بالغير ضررا وتستوجب فعل هذا الضرر . والعدوان منشؤه بعض الفرائز التىقضت حكمة الله سبحانه وتعــالى ايجادهــا فى الانســان ، تلك الفرائز التي لن تزول الا بفناءالانسان وتحركه نحو كل ما من شأنه أن يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح .وفى سبيل البقاء ينشب العدوان الذى هو أساس كل نزاع ، عدوان مرجعه الفريزة . واذا اردناتقصى اسباب الجريمة والبواعث عليهــا لانتهينا معها الى الفرائز البدائية فى الانســـان . ولهــذافمن الملاحظ انه كلما تهذبت غرائز الانسان قــل عدوانه ، وتبعا لهذا انكمش نطاق الاجرام دونأن ينعدم .

واذا كانت الفرائز هي المحركة لكل عدوانفهي أيضا المحركة لكل دفاع فى مواجهة العدوان ، فغريزة البقاء التى تدفع بالانسان الى السعى نحوالمحافظة على كيانه مهما كان فى تصرفه من مساس بغيره هي بذاتها التي تحرك هذا الغير الى دفــعالاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كــان فى هــذا مساس بالمعتدى . وهذا هو الأصل فى نظريةالدفاع الشرعى ، التي تقرها التشريعات جميعا على أساس ان المحرك للدفاع المتمثل فى اعتداء هوالفريزة التي خلقها اللــه سبحانــه وتعالــى فى الانسان. ومتى كان الامر كذلك فالجريمةمرتبطةبالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانســـان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ،وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة ــ على اية صورة كانت ــ غير مقبول .

والعدوان فى الصورة التي عرضناها ، هوالذى يقع من فرد ، والدفاع الموجه نحو العدوان يصدر عن فرد ، ولكن الفرد المنعــزل عن غــيرهانعزالا كاملا لا وجود له ، بل ان مــن علمــــاء الاجتماع من يرىان الانسان وجد دائمافى مجتمعخلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور العدوان ــمع تطور المجتمعات ــ بدات تتغير ، واثرها لم يعد قاصرا على من وجهت اليه افعالــه ، بــلاصبحت الجماعة ذاتها كوحــدة متكاملــة تحس بالعدوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بأنعليها واجبا ازاء ذلك العدوان . فالجماعة لهــا كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيهاغريزة المحافظة على بقائها ــ وهي ذات الفريزة التى دفعت الانسان للمحافظــة علــى نفســه ــووجهتها نحو طريق رد كل عدوان ، سواء وجــه اليها بطريقمباشر ام وجه الى احد افرادها فلحقبها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذى يثير كثيرا من التساؤلات ، أولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة فى هذا النطاق . وغايةالبحث هي تعرف مــدى العلاقــة بــين البيئــة والجريمة وتأثير كل منهما فى الآخر ، وقدر مــاتمثله البيئة فى السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فاذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة فى موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء فى ذلك بارادته، كالاكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لارادته دخل فى ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعنينا فى هذا المقام النوع الاخير ولكن يهمنا بالدرجة الاولى النوع الاول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الاثر فى المحيط الخارجي والتي قد تؤثر فى الجماعة المنتمى اليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة عن حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات او رغبات له ، يستوى فى ذلك الظاهرة منها للعيان والمفهوم أمرها ، أم الخافية الناشئة عن انفعالات او خلجات قد يعسر فهمها وتحتاج الى تعمق فى شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . واذا كان الانسان فردا فى مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه فى نواميسه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التغيير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لردفعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواءمتها لطبيعة تكوينه أو عدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يرتبط بموقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، واخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفر منها . والنوع الاول من التصرفات ينطوى تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص ــ والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز ــ وهو الناشىء عن التكوين العضوى لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لارادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصدده . والاصل فى هذه التصرفات كقاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى انه لا يتدخل فى أمرها مادامت تتم فى حدود النواميس والقواعد والنظم التي تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النواميس والقواعد والنظم التي تضعها الجماعة ولايقف منها المجتمع موقفا سلبيا، بل انه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدى اليه من بقائه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التى تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العمد الاساسية فى بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخى بين أفرادها ، والتعاون المثمر الذى ينعكس اثره على أمر المجتمع وهدوئه ، ومن هذا القبيل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير واعانة المحتاج .

---

(١) يرى بعض الباحثين ان الاهتمام بظاهرة زيادة السلوك الاجرامي يوجب العناية التامة باظهار الحقائق ، وبدلا من الاندفاع فى سياسة عقابية يتعين النظر بعمق الى طبيعة المجتمع للتحرى عما اذا كانت هناك قوى ذات صبغة اجتماعية وبيئية مؤثرة فى السلوك يكون من الافضل الكشف عنها (جون مايز ص ٩) .

والنوع الأخير من التصرفات يتعارض مع النواميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضاد من الجماعة متنوع النوع والمقدار دفاعا منها عن كيانها ، وعملا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالمجتمع كالانسان خلق كل منهما وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع عنه كل مايهدد كيانه . فاذا كان الفرد العادى يرفع يده فى حركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوع به يتهدده ، فالشأن كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانه لدرء كل ما من شأنه ان يؤثر فى بقائه واستمراره . واذا كان رد الفعل الغريزى لدى الانسان ازاء أى خطر يتهدده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أن تصرفه الغريزى ليس مطلقا من كل القيود وانما تحده اعتبارات عديدة ــ لعل اخصها درجة العدوان وكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرئه ــ اذا كان الأمر كذلك بالنسبة للانسان فهو الحال ايضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نواميسه وقواعده ونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الأثر يختلف من حالة الى اخرى وفقا لقدر العدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحق الجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابق كامل لتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه وأثره ، ومع هذا فانه تقريبا للأمور يمكن ضم بعض التصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقارب الذى لا يصل الى حد التطابق . وتمشيا مع الفكرة آنفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفرد التى لا تلقى رضاء من المجتمع الى عدة اقسام استنادا الى درجة رد الفعل الذى يقابل به المجتمع تلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فيبدأ بمجرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجان جزاء تاديبى ، أو قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضلا عن استهجان المجتمع للتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا تتفاوت درجات عدم رضاء المجتمع ورد فعله عن التصرف الذى يقع مخالفا لنواميسه وقواعده ونظمه. فاذا وقف رد الفعل عند مجرد الاستهجان اعتبر التصرف جريمة تاديبية ، اما ان وصل الحد الى أحد الجزاءات المنصوص عليها فى قانون العقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذا يتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقع منافية للمجتمع .

ويهمنا بالمقام الأول الجريمة الجنائية ، وهي النشاط الذى يصدر من الشخص ايجابا كان أو سلبا يقرر له القانون عقوبة من بين العقوبات المقررة بقانون العقوبات . فالمجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما من شأنه أن يخل بأمنه ونظامه ، يستوى فى هذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم ان أثرها يصيب المجتمع باعتباره شخصية قائمة بذاتها تدفع عنها كل ما يهدد كيانها . وهو فى هذا السبيل ينذر بالعقاب كل من تسول له نفسه مقارفة مثل تلك الأمور ، فان أتى الفرد واحدا منها ، رغم تحذير القانون ، وقع تحت طائلة العقوبات المقررة فى هذا الشأن ــ بالتصرف الذى يشكل جريمة جنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتاديبية ، بيد ان خطورة التصرف تجعل المشرع يتدخل بتقرير

احدى العقوبات الجنائية . وبهذا ايضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا فى التزام المشرع الجنائى والقاضى من بعده بقاعدة ان لا جريمة ولا عقوبة بغير نص فى القانون . ومعنى هذا انه ان انتفى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معينا فعلا معاقبا عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخذة الشخص جنائيا .

وليس بالضرورة ان تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية او الخلقية، لان هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها القواعد الدين او الاخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجماعة السياسية فى الدولة فى وقت ما ولظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة أو تبدلت الظروف التى استوجبت تجريم فعل معين فان هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم فى ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على ان هذا القول ، وان كان فيه جزء من الصحة فانه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر احد ان هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتا لأركانها او تحقيقا لسياسة معينة تنشدها . وهناك ايضا من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وان كان قد يغيب عن بعض الأفراد الغاية من التحريم ، كالجرائم التموينية او جرائم الضرائب . ولكن الى جوار هذا يوجد من الافعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلا عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وان كان من بينها ما لا يعد جريمة احيانا فى قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الأخلاقية لأن نواميس المجتمع وتقاليده تأباها . بل لقد ذهب البعض الى اعتبار مثل هذه الأمثال جرائم طبيعية لأنها تأتى ضد الطبيعة الموجودة فى المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره أثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، اذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجبا اجتماعيا ، وغيرها لا يرى فى فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفا من جانب الفرد فى حريته الشخصية .

ويعنينا فى بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن اضفاء صفة الجريمة على نشاط معين امر نسبى يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت الى آخر ومن مكان الى غيره . فمن المسلم به أن هناك من الافعال ما يعد جريمة فى دولة ما فى حين انه من الأفعال المباحة فى دولة أخرى ، بل انه فى الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع فى سياسته وينقله الى قائمة الأفعال التى لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا من بعد ان يعود الى الجريمة مرة أخرى .

وتختلف التشريعات فى تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائى فالجريمة تكون على نوع من اثنين اما جناية أو جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثى للجرائم ــ الجناية والجنحة والمخالفة ــ ومن بينها التشريع المصرى . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعدودة من المخالفات لأنها من البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكتفى القانـون فى الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائى فى مرتكبها ، اى انه لا يتمثل فيه او فيما وقـع منه خطورة شديدة على المجتمع .

أما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح اقل منها فى هذا المقام ، الا أن هذا لا ينفى ان اهتمامات البحث فى عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الأسرار الحربية الي دولة معادية أشد خطورة فى نظر المشرع من جريمة قتل ترتكب أخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فان الباحث فى عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الأولى الجريمة الأخيرة وحدها . واذا كانت الجنـايات والجنح لاتتساوى فى أهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صـفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التى لا يشعر مقارفها احيـانا بتأثيم الاجرام حين يأتى أحد الأفعال المكونة لهـا بسبب عدم ادراكه للفائدة التى يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ فى اعتباره الا القدر من المال الذى يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التى تحدد الجريمة التى تكون محلا للبحث ، ولا شك فى أن الجريمة التى تثير الاهتمام تكون قد وصلت فى المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن أن لها من العوامل ما يمتد جذوره فى الجماعة بما يمكن من متابعتها والاهتداء اليها ، اى أن يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصـالح لوقوع الجـريمة ، وكأن الجريمة المعنية أصبحت آفة المجتـمع يسـتحق الجرى وراءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التى ترتكب بصفة عارضة تخـرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهى جرائم ــ قلت أم كثرت ــ ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من اى فرد وفى اى وقت دون أن يجمعها ضابط معين يمكن الاهتداء به أو البحث عن اسـبابها للعمل على مكافحتها .

واذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليـدة حاجاته ، فان تحديد الجريمة يهتدى فيه بالدرجة التى وصلت اليها والتى تقاس باستنكار المجتمع لها ــ كله تقريبا وفى كل وقت ــ واحساسه أنها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى ان تكون الجريمة المعنية موجودة فى كل الدول ، بل هي قد توجد فى دولة ولا تتوافر فى غيرها . وعـلى سبيل المثال اذا أردنا تطبيق المقياس السـابق على الجريمة فى مصر لوجدنا أن أخطرها جريمة القتل ، لا سيما ماكان منها متصلا بالثأر . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التى تنتشر فى المجتمع بصورة مذهلة ، حتى حركت كثيرا مـن الأجهزة الباحثة وراءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك احد فى خطورة جرائم المواد المخدرة . واخيرا تأخـذ الجرائم التى تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التى تكون محلا للبحث ، لأنه كما يقـال **حدث اليوم هو رجل الغد** ، ورعـايته وتنويره حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة فى موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرةمادية نتيجة لعمليات متعددةومعقدة ، وتضر بالمجتمع،وهو لا يقف منها عاجزا وانما حمايةلنفسه يوقع الجزاء على مرتكبهاوحتىيكون عنوانا يردع الغير عن الاقتداء به . وردفعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الأثر الظاهرلتصرف الانسان ـ اى الجريمة ـ ولا شك فى انه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها،وهو ما يقتضى البحث عن أسبابها لعل فىمعرفتها ما يمكن من علاجها ودرء خطر الاجرام .

ولما كانت الجـريمة نتيجة لعمليات بشريةواجتماعية ونفسية فان البحث فى أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفى التخصصات . فلقد شارك فى الدراسة والأبحاث فلاسفة واطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ،ونظركل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعا لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . .بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذى يتبعه فى أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال ارجعلومبروزو ـ الذى كان يعمل طبيبا ـ عامل الاجرام أساسا الى التكوين العضوى للفـرد . وفضلا عن هذا فان اختيار الانسان لطريق معين فى بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التى تيسرله الاستعانة بها ، واقرب الأدوات اليه هـو ما تمده به حياته العملية (٢) .

واذا كان الانسان فردا فى مجتمع ، وكانتالجريمة ظاهرة انسانية فقد لزم البحث عما اذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمعمنعدمه . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥)(٣) من أوائل من نظروا الى الجريمة فى ارتباطهـاابالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن فى المجتمعنفسه، وكان ذلك فى قصته الشـهيرة (Wopia) وهيمستوحاة من المدينة الفاضلة لأفلاطون . ووصف توماس مور الظـروف التى كانت تعيش فيهـاانجلترا آنذاك وانتشار الاجرام وقسوة القانون ، واشار الى وجوبتعرف عوامل الجريمةوالتخلصمنها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن صـور عوامل الاجرامذكر الحروبالمستمرة التىاسفرتعن المحاربين العاطلين . وقال أن العامل الأساسى يكمن فى ظروف الحالة الزراعية ، ذلك انه بعـدانتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الاراضى الزراعية أملاكهم الى مراع للغنم ،وترتبعلى هذا تعطل آلاف من المزارعين الذين رحـلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلةللوقوعفى وهدة الاجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الثـراء الفاحش الذى سرعان ما يزول ويؤدى بدوره الىطريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامنعشر نجداشارة الى الجريمة والظروفالاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر **منتسكيو** أن المشرعالناجح هو الذى يكافح الجريمة لمنع وقوعها اكثر منه بالعقاب عليها . وكتب **روسو** ان الفقر هـوأهم الجرائم الكبيرة ، وأن المجرمين قلة فى ولاية

---

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الاجرام ، بيناتل ،ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٣١ وما بعدها .

منظمة تنظيما حسنا . كما ذكر **بكاريا** أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفى كتابات **بنتام** نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو أن تمنع الجريمة لا ان يعاقب عليها . وعدد صورا من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الخمور التى اعتبرها من الاسباب الهامة . وفى صدد الجرائم الاقتصادية يحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا أصبحوا مجرمين ، ولن يقعدهم عن هذا الطريق أى تهديد بالعقاب .

وبعد أن أرسيت الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة فى الدراسات الاجتماعية ، وفى ضوئها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة فى الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد **أندريه جيري** فى فرنسا (١٨٠٢ ـ ١٨٦٦) ما يسمي بالاحصاء الاخلاقى ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسن من ناحية ، والاجرام من ناحية أخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة فى فرنسا التي اتضح منها أن بالمناطق الغنية أكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية ـ والذى أيده **فرى** ـ حيث اكد أن الجرائم ضد الاشخاص تغلب فى الاقاليم الجنوبية خلال أوقات الحر ، وأن الجرائم ضد المال تغلب فى الاقاليم الشمالية أثناء فترات البرد (٥) .

وأبان أودلف كاتليه (١٧٩٦ ـ ١٨٧٤) ثبات اية جريمة من عام الى آخر حتى فى تفاصيلها أو طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التى وقعت فى فرنسا . وقال ان الارقام لا تتغير وهي ثابتة بشكل مطرد فى كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادى ، كالقتل الذى يحدث فجأة وبلا اية بواعث مسبقة . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلة ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بأن على كل مجتمع أن يعد نفسه على أساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية ، وهو ما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث **كاتليه** أيضا بعض البواعث التي تؤثر على الاتجاهات العامة فى الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجو وتغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (٦) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة أن الجريمة حصيلة فرعية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي فى الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على أساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي أوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

---

(٥) ستيفانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، واشار الى معارضة البعض لهذا الراى حيث ان الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففى بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد تبعا لهذا الحياة الاجتماعية وتكفى لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين أن الظلام فى ليالي الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع أيضا بوزا وبناتل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونجر ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى انه لن تكون هناك جريمة في المجتمع الاشتراكي، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صداه على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعي الى الاقتصاد الصناعي خلال القرن التاسع عشر ، صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الذكاء. وعدم الاستقرار الاقتصادي الناشيء عن عدم استقرار الأثمان والاجور والاسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذي يقصد منه الكسب ، ويؤدي تحسن الظروف الاقتصادية الى نقص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدي الى زيادة تلك الجرائم .

ومن أشهر المدارس في بحث عوامل الجريمة المدرسة الايطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على أن الظواهر الاجتماعية – شأنها شأن الظواهر الطبيعية – تنشأ وتتتابع وفقا لقواعد تحكمها وتربط بينها بعلاقة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف العديدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الاجرامية ينبغي الاعتداد بعنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوي لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هذا في عديد من النقاط.

فلقد اعتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد اعتد بالظروف الاجتماعية ، وقال أن لكل جريمة اسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب الا يؤخذ كل سبب فيها على انفراد ، ومن بعد هذا اعتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص أقل شراسة ، وتميزت بأنواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والاسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

واعتد فري بالعوامل البيولوجية واضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وأنواع الجرائم المرتكبة. وقسم المجرمين الى خمسة انواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فري مبناها تساؤل هو **انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تكون مصدر الاجرام فما يزال السؤال باقيا لمعرفة ما يدعو عدة افراد يسيرون في طريق الجريمة بينما لا يسير غيرهم فيه ، والجميع يخضعون لمؤثرات واحدة** . وفي رايه ان الجريمة ظاهرة ذات اساس معقد بين عضوي ونفسي واجتماعي ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فري عوامل الاجرام الى ثلاثة انواع انثروبولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة عن الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المجرم ، أي السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعي والمنظمات

(٧) بونجر ص ٥٦ وما بعدها .

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشبع الاجرامى أى أنه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جاروفالو أن الجريمة نتاج عيب شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها المشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقى العام الذى اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رأيه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علاتها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، فعرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير فى تقدمها شيئا لازدياد الاجرام، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الايطالية انها حصرت أسباب الاجرام فى نوعين **أولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **وثانيهما** أسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التى يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا فى هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على أساس أن الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذى توجد فيه ، فالسلوك الاجرامي ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصي ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزاء من الوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروبها هو المجرم الذى ليست له أهمية الا من اليوم الذى يجد فيه التربة الصالحة لانباته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من العسير وضع تقسيم يحدد معالمها .

ومن أقطاب هذه المدرسة لاكاساني(٨) الذى قال عبارته الشهيرة « ليس للجماعة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى أن حرارة الجو تؤدى الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدى الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف عن اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريزى فى الانسان كالانتقام والطمع ، أما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاغتصاب وهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابرييل تارد (٩) أن المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة أسباب فسيولوجية وطبيعية واجتماعية، الا ان الاخيرة هي الغالبة وذات الاثر الفعال فى

---

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجردالانسأن الحي وانما من شخصية الانسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته فى أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك فى أن الاجرام كالشأن فى كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة فى التقليد ،وذلك فى صور الصفة الخاصةبالصبغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخى وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا الى الطبقات الدنيا ، وقديما كان يجرى تقليد الطبقة الارستقراطية ، أما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة الى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتذى به . ويذهب تارد الى أن الفقر لا يؤدى وحده الى الجريمة ، وانما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذى يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجدعند الفقير فانه قد يتوافر لدى الغنى .

ولا يختلف دوركهايم عن غيره من علماءمدرسة الوسط الاجتماعى فى اعتبار الجريمة وليدة الظروف الاجتماعيةواليها ترجع أسبابها .على انه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير عادية فى المجتمع ، بل انه يؤكد صفتها الاجتماعيةالعادية ، فهي موجودة فى كل مجتمع انسانى ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمعلا تحدث فيه يوميا انتهاكات لاخلاقياته . ويؤدى رأيه الى انه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهيلا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافى الذى تنتمى اليه . وانه لما كانت الجريمةناتجة عن التيارات الاجتماعية الكبيرة فى الجماعة فان وجودها وعلاقاتها بالهيكل الاجتماعى يحملان لها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فانه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها الا بالثقافةالغالبة فى وقت ومكان محددين .

ويرى سذرلاند (١٠) — وهو من المدرسةالاجتماعية فى الولايات المتحدة الامريكية — أن السلوك الاجرامي هو سلوك انساني يشترك فىالكثير مع السلوك غير الاجرامي . ويضع سذرلاند نظرية تكوينية للسلوك الاجرامى ، مبينا كيف تتمالعملية التى تؤدى بشخص معين الى السلوك الاجرامى . وتتلخص فى أن السلوك الاجرامىيُتَعَلَّم ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع أشخاص آخرين فى عملية اتصال ، وهو يحدث فى نطاقجماعات الأشخاص ذات العلاقة الودية الوثيقة ، وتعليم السلوك الاجرامى يتضمن فن ارتكابالجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجح له كفة الآراء التى تحبذ انتهاك القوانين على كفة الآراءالتى لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجرمين فهم يقبلون هذا لاتصالهم بنماذج اجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التى تقاوم الاجرام من جهة أخرى ، وأى فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به الا اذا وجد حوله نماذجاخرى فى صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذى يكتشف فى الطفولة المبكرةقد يستمر طول الحياة ، كما ان السلوكالمنحرف الذى يكتشف فى الطفولة المبكرة قد يستمربدورهطول الحياة . وتبدو اهمية الأسبقية من خلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقف الاختبار .

---

(١٠) سذر لاند وكريسي — الترجمة الفرنسية ص٨٨ ، الترجمة العربية ص ١٠١ .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الابحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طبائعه وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من أساسه ، فاذا قيل أن التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، أو قبول الاعانة العامة ، أو احتراف التسول او التشدد او السرقة او الانتحار . فالعامل الاقتصادى قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقا دون الآخر ؟ والجواب على هذا انه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل أيا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل بديله ليس هو ارتكاب الجريمة وانما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد أردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة اسناد السلوك الاجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الانسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الأنواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل أثر أكبر من غيره ، ولكن لن يتأتى منفردا حتى يؤدى قطعا الى سلوك معين . فاذا قلنا ان المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للاجرام فمما لا جدال فيه ان بعضا ممن نشأ فى منازل متصدعة لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، اى باعتباره مؤثرا فى السلوك الاجرامى او بغير أثر عليه . واذا كان السلوك الاجرامى ينشأ عن تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على أسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الاجرامى، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات، وعلى سبيل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يتصل بشخص الفاعل فلا شك ايضا انه يمكن ادراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تقاليدها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى واسعا ام نطاقا ضيقا ؟ اى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، او المحيط العام الذى تجرى فيه حياته ام الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

---

(١١) نوروود ايست ص ٢١٩ .

(١٢) تنبوم ص ٢١٦ ، وقد ذكر حالة امراة من متشجان حكم عليها بالحبس لمدة شهر وبدلا من تحمل الحبس قتلت اطفالها الثلاثة وانتحرت ، وهذه الاستجابة تحققت بسبب تحديدها لمعنى الشرف والمهانة وقيمة الحياة . فاذا كانت تؤمن بأن الانتحار سوف يدمر روحها وروح اولادها لماكان الانتحار بدلا من المهانة . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التي حددت الطريقة .

(١٣) وقد استعير علم البيئة اساسا من علم الاحياء حيث لفت الانتباه الى حقيقة ان مختلف انواع النباتات تتجه نحو النمو معا ـ كالشأن بالنسبة للمجتمعات البشرية ـ ولها بداية مؤقتة ثم تتغير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (برنس ص ٣٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفى عبارة اخرى هل يرادبالبيئةالدولة أو جزء منها أم المنطقة التى يعيش فيهـا أم وسط ضيق سواء تمثل فى اسرة أو مدرسـةاو عمل ؟ ومما ينبغى التنويه اليه ابتداء منجميع الاتجاهات التى حـاولت ان ترد الجـريمة الىعوامل محددة لم تغفل وجـود مسـحة من اثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أى من تلكالعوامل . فالعامل الجغرافى سواء تعلق بالشتاء او الصيف لا يمكن نزعه عن المجتمع الذى يعملأثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجهعام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع اننا فى مجال هذه الدراسة نقتصر على عواملالجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الىبيئة جغرافية واخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة واخرى خاصة . والبيئة الجـغرافية هيالتى يعيش فيها الانسان وتتعلق بالجو والفصول والرياح ، وان أثرها بالنسبة الى الانسان ثانوى،الا انه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتـماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق فى الظروفالمدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، اى تشمل الظروف العامةلوسطمعين له تاثير على كل الأفراد فى هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين اثرها الواضح عـلىالفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى أقسام ثلاثة (١٤) ، **الأول** بيئة لاخيارالفرد منها وهي التى تتصل بالأسرة ، فالطفليتبع المكان الذى يوجد فيه . **والقسم الثانى** هو البيئةالعارضة ومثالها المدرسة والمصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، فحياةالانسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقاعدة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتهاعلى الفرد . وأخيرا **الوسط المختـار** أو المقبول حيث يختارها الفرد فى فترة المراهقة والبلوغ أويرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل فى هذا أيضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكـونلهم اثرهم فى السلوك الاجـرامى وعلى وجـه الخصوص تكوين العصابات (١٥) .

وفى سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعـينعلينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التىتقوم عليها . فالانسان بطبيعة الحال اينما كان لابدوانيوجد فى جماعة معينة يعيش معها أو يعايشـها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضيه التنقل من ذلكالمكان ، ولكنه غالبا ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان اكثرها التصاقا بشخصه ، وهو يتاثر بهويؤثر فيه . ولما كان السلوك الاجرامى يعتبـر نتيجة لعمليات انسانية ونفسية داخل الفردفلابدان يكون لها جذورها فى حياته السابقة ، وهذه

---

(١٤) راجع فى هذا الصدد ستيفاني وآخرين ص ٩٤وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ٥٧ وما بعدها وهو يقول ان البيئة في المعنى الدارج تفيد الوسط الخارجي المحيـطبالشخص ولكن المتخصصين يؤكدون فى تحديد البيئة على الدور الايجابي الذي يلعبه الوسط فى صدد كل كائن يتحركتحتسلطاته،وقد ادخلعلم الاجتماع الحديث فيتعريفهللوسط عنصرا جديدا يقتصر على الانسان دون غيره من الكائنات .ويذهب ارنست سيلج (ص٦ و ١٨٦) الـى ان الاسبـاب المباشرة للجريمة تتركزفيعنصرين الاول البيئة والآخر شخصيةالجاني ، والبيئة تعني الظروف القائمة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتجعل تنفيذه ممكنا او يمتنع عن التنفيذ ،اما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فانها تتالف من مكونات شخصيته في الحياة .

(١٥) ستيفاني بند ١٠٠ .

الجذور تستوحى من المكان الذى يعيش فيه ،فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخرويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له فى غيره . ويلزم انيكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم أو النماذج السلوكيةلترسخ فى نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد فى حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر فى الانسان فانه يعتبر بيئة له.على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دواما فلا يبرحه ، بلعلى العكس ان مقياسها هو درجةماتتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت .وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة فى احدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزءمن حياته لما تتركه من آثار فى نفسه تنعكس على سلوكه .

وتمشيا مع سير الأمور الطبيعى فى الحياةيمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجدفيه الشخص والريف والحضر،وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أوتضاريس اليابس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى علىسلوك الفرد بصفة عامة ، والذى قد يكون اجراميا .

واذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورةواقعية ، فاننا نستعين بالأدوات المتاحة لذلكوهي الاحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمةوحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول الىالعوامل المتصلة بالبيئة ، وفى معرفتها ما قد يسهلالبحثبعد ذلك فى كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبذا يكون الاقلال من حجم الجريمة . هذا مع التنويهبما يوجه الى الاحصائيات الجنائية من نقد ،حيث تعتبر ارقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشرللباحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة فى البيئةصورتى الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الاجرام وحجمهوعوامله وخطورته فى المدن الصغيرة منهاوالكبيرة، مع مقابلة بينهما على أساس من نسبة تعدادالسكان .

ومشكلة الجريمة فى المدينة الكبيرة أكثرتعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة اجرامية عالية لا سيما فى أطراف المدنبالقربمنالمناطقالصناعيةحيث يستقرالمهاجرون، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها منالمدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . واهتداءبهذا الاتجاه فان البيئة العربية سواء فى جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة فىالدولالأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فان مصر ما تزال ــ رغم تقدم بعض الصناعات ــ تعتمدأساسا على الثروة الزراعية فى حين أن الصناعات متقدمة فى الدول الغربية بدرجة مذهلة ، وكانمن الطبيعى أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

---

(١٦) حسن المرصفاوي ــ ص ٥٤ .

ويذهب بعض العلماء الى القول بأن الفوارق بين الاجرام فى الريف والاجرام فى الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية فى الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها فى العلاقات بين الناس وبالتالى فى الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا أن هذا التغيير يراد به أن يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج فى مصر بالذات الى أجيال عدة. ويرجع هذا الى ان العماد الأساسى لغالبية الشعب فى عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسير تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لأن المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآية ما نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين أن الجرائم الدموية التى يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت فى الريف فى العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

ويبين الجدول التالى جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها فى محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحرى ومحافظات الوجه القبلي :

المكان / السنة	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحرى	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٣٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن أنه الى حوالى اربعين عاما مضت زادت جنايات القتل العمد والشروع فيه فى الوجه القبلي عنها فى الوجه البحرى ، رغم تدرجها الى خاصية النزول فى كل من الوجهين البحرى والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة ان تعداد سكان الوجه البحرى يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تتبين من الجدول الى عادة الثأر التى ما تزال قائمة بين أهالي البلاد ، ويتضح هذا من الاحصاء الجنائي الذى يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . وبمراجعة جدول جنايات القتل العمد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ فى بعض بلاد الحضر والريف – والذى يأتى بيانه – يتضح أن الجزء الاكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. ونتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة فى البيئة .

• • •

عوامل طبيعة البيئة .

نقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقةمعينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالي ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية فى ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض منناحية اليابسوالماء والسهولوالمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والامطاروالجفاف بما يترتبعلىهذا منالمواسم الزراعية.

ولقد استلفتتحرارةالجو وبرودتهوآثارهاعلى الجريمة أنظار الباحثين ، وقيل أن الجو الحار يساعد على توتر الاعصاب ويضيف تحكمالانسان فى ارادته لما يصنعه من ضيق فى التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفردسريعة دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المالوف ، هذا اذا كانت درجة الحرارة فىحدود المعقول ، اما اذا زادت عما يتحمله الانسان عادة فان أثرها يكون عكسيا ، اذ يترتب عليهاالخمول وقلة الحركة ، وقليلا ما يسلك الفرد سلوكا عدوانيا ، وفى الجو البارد تنعكس الآيةفتكون أعصاب الانسان أكثر هدوءا وتصرفاته أكثر اندفاعا ، بل ان البرد فى حد ذاته ، اذا زادعن المالوف ، يدفع الفرد الى الانزواء فى الاماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وتبعالذلك يقل الاحتكاك الذى قد يؤدى الى السلوك الاجرامي .

وهذا الذى سقناه انما يخص الجرائم التيتمسسلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآية بالنسبة الى جرائم الاعتداء على المال ، فهيتقل فى الجو الحار وتزيد فى الجو البارد ، وبمعنى آخر تقلفى شهور الصيف وتزيدفى شهور الشتاء،ذلك ان حرارة الجو من شانها ان تقلل من نوم الافراد ، الامر الذى يجعل الظروف غير مواتيةلارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات . أما برودة الجو فى الشتاء فاناليل وانكماش الناس طلبا للدفء يتيح الفرصة للمجرمين ـ لا سيما اللصوص ـ لارتكابجرائمهم .

ومع هذا فانه لا يمكن القطع بأن حرارة الجو أو برودته عامل أساسي فى الاجرام ، وانما قد تكونطرفا مساعدا له يرتبط بغيره منالظروفالتي تؤدىالى الجريمة . فاذا كانت بعضالابحاث قد أثبتتزيادة الجرائم ضد الاشخاصفى الصيفوزيادة الجرائم ضد الاموال فى الشتاء بما يتفق مع أثر الحرارة فى خط سير الجريمة ،فهناك من يقول بأن الجرائم تزيد فى الصيف لان الناس أكثر اتصالا فى الصيف مع بعضهم ، الامرالذى يدعو لبحث ما اذا كانت للحرارة آثار على البناء الانساني ، ثم يأتى بعد هذا البحث الاكثراهمية وهو قيام الصعوبة فى وسيلة التغلب على هذا التاثير على البناء الانساني (١٧) .

واذا نظرنا الى واقع مصر وجدنا ان جوهابصفة عامة معتدل ، ومع هذا فان جو الصيف يعد حارا نسبيا فى حين أن الشتاء متميز بالبردنسبيا ، هذا فضلا عن ان الجو فى بلاد الوجه

---

(١٧) برنس ص ٣٥ .

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نغفل فى هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم لدورهم فى الصيف والمبيت على أسطحهامما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة فى جرائم القتل اخذا بالثأر ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو اردنا ترجمة أثر حرارة الجو فى ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات فى مصر بالوجهين البحرى والقبلى من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائيــة أن جنايــات القتــل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذى تنشأعنه عاهة مستديمة غالبا مــا تقع فى شـــهور الصيف ، كما أن نسبتها فى محافظــات الوجــه القبلي أعلى منها فى محافظات الوجه البحرى ، الا انه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الــى حــرارة الجو وحدها ، ذلك أن هناك من الزراعات خــلال شهور يوليو واغسطس وسبتمبر ما يكون عاليا ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولايجب أن ننسى عواقب الثأر وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل فى المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثأر هو الذى جعل جنايات القتل العمد تزيد فى الوجه القبلي عنها فى الوجه البحرى . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن أن يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو أو برودته ، ومما يســتلفت النظــر فى الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية فى الجو المعتدل .

ولعل أقل عوامل الطبيعة تأثيرا فى وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ومع هــذا فان هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجــانى لوقت ارتكابها ليلا مما يساعده على اتمامها فى الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس بعــد عنائهم من العمــل ، يعمل فيه المجرمون وهم فى مأمن كبير من أعين الرقباء ، وليست الجرائم على درجة واحــدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الأمر وفقا لموضوع الجريمة . فالجــرائم التى يراد منهــا الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفا خاصا الا فى صور مستثناة أبرزها القتل اخــذا بالثأر أو انتقاما ، ولهذا يستوى أن يقع فى الليل أو فى النهار . أما الجرائم التى يكون موضــوعها الاعتداء على المال فان الجانى غالبا ما يتخذ مــن الليل ستارا لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمشرع الى اعتبار الليل ظرفا مشددا فى تلك الجرائم .

ويبين من الاحصائيات الجنائية فى مصر عن السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنايات القتل العمد والخطف تزيد نهارا عنها ليلا ، وأن جنايات السرقة وجنايات الحريق وجنح السرقة تزيد ليلا عنها نهارا ، وهو أمر ملاحظ بصفة مضــطردة خلال الخمس سنوات السابقة . على ان هــذا لا يقطع بأثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الأمر مغايرا لما تقدم فى الثلاثينات بالنســبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلا فى السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنايات نهارا ، ثم انه فضلا عما تقدم فان النهار ــ ونقصد به فتــرة انتشار الضوء ــ يطول كثيرا بالنسبة الى الليل ــ أى وقت الاظــلام ــ خــلال شــهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغى أن يؤخذ فى الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعنينا على وجه الخصوص العلاقة بينطبيعة البيئة والجريمة فى المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر فى الجانب الأكبر من اقتصادهاعلى الانتاج الزراعى، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون فى حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة فى مصر فى ثلاث دورات رئيسية : الصيفى والقبلى والشتوى ، وتعتمد الأراضي الزراعيةفى ريها على مياه النيل ، واذا كان عماد الفلاح فى حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لتصورنا مدى أثر الزراعة والمياه فى حياة الفلاح . والزراعة فى مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهىء لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصرى يحرص على زراعته حرصهعلى حياته، واى ضرر او أذى يصيبها انما يصيبه فى قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاحيتمثل فى قطعة الأرض التى يقوم بزراعتها والحياة التى تستخدم فى ريها . والرقعة الزراعية فىمصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فان ما يضع الفلاح يده عليها منهايحرص ويتفانى فى المحافظة عليه ، واى مساس بالأرض التى يزرعها يدفع به الى حمايتهالدرجةارتكاب أخطر الجرائم : ويتمثل ذلك المساس فى صورة من اثنتين **الأولى** منهما محاولة من جانبالمالك او نحوه رفع يده عن أرضه لأى سبب من الأسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورةالأخرى** محاولة بعض الجيرانالافتئاتعلىالحدود للأراضى الزراعية ، وضم بعض الارض الى الجزءمن الأرض الذى يحوزه .

أما بالنسبة الى مياه الرى فانه الى ما قبلاقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل. حيث تتوافر المياه فيستطيع كل فلاح رى أرضهفى يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذىتقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الرىعلى البلاد فى فترات محددة، فىخلال تلكالفترات التى كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التزاحم بينالفلاحين حول اسبقية الرى ، ومن الطبيعى أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهامالذى قد يتطور الى معارك تنشأ عنها أخطر الجرائم .

هذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائملأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الايجار أو المزارعة ، أو طرد مستأجر من أرضه ، اوتوقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام ادوات الزراعة أو ادواتالرى كالآلات الميكانيكية أو ادواترفع المياه . وقد تكون الماشية التى تستخدم فى الزراعة سببالبعضالجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ،كالاضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهيىءللاجرام، ففى شهور الصيف علىوجه الخصوص يكون انتاج بعض المحصولات الزراعية والاعدادلأنواع اخرى من الزراعة . ولهذا فانه اذا كان

قد سبق القول بأن حرارة الجو فى شهورالصيفمن عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففى شهر مايو يكون حصـدالقمح ووضعه فى الأجران تمهيدا لعملية فصـل حبه عن قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئـذلارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منهـا انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيثيتيسر اقتناص المجنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت فى الأجران اثناء جمع المحاصيل . وفىشهر مايو ايضا تكون شجيرات القطن قد اخـذت تكسو الأرض ويكون اشد ما يصيب الفلاح اتلافهاانتقاما . وفى أغسطس وسبتمبر يجنى القـطن ويحصد الذرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطـرجرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطـن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجـةللمقاومة . وفى فترات بذر البذور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدىالى اخطر الجرائم ، فيبذر الذرة الشـامى فى سبتمبر ويبذر القمح والفول والبرسيم فىاكتوبر . ومما يلاحظ ايضا أن الذرة الصيفية خلاليونيو ويوليو واغسطس تكون متكاثفة الأعـواد طويلةالسيقان ، ويقابلها فى موسم الشتاء زراعةالقصب الذى يغرس فى مارس وابريل ويحصد فىديسمبرفى الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفاءبها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما أن هـذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالى صورة عن جنايات الحريق العمد خـلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣ و ١٩٧٤ * (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الاتهـام		أعلى شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا		
		نهارا	ليلا	مجهول	معلوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢	٣
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٣٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٦٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونيه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارسية	بضائع

واعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمشتغلينبالأعمال الزراعية والصيد فى البحر والبر واعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم اصحاب الحـرفوالصناع والعمال والمشتغلين فى عملية الانتـاج والفعلة والعتالين ، والذين لم يصنفوا فى مكانآخر .

(١٨) راجع تقارير الامن العام فى مصر عن السنواتالمشار اليها بالمتن .

يتضح من الجدول آنف البيان أن صور جريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثانى أو الثالث ، وأن موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثانى ، وأن الجريمة غالبا ما تقع فى شهور الصيف ، الأمر الذى يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وانتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جناية اتلاف المزروعات وفق الجدول التالى :

السنة	مجموع الجنايات	وقت الجريمة		الاتهام		أعلى شهور السنة تنازليا		
		ليلا	نهارا	مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	—	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يونيو	ابريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم اتلاف المزروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم من المشتغلين بالاعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية ، والجزء الاكبر من جنايات اتلاف المزروعات يتم ليلا ، ولذلك فان الاتهام فيها يكون نادرا أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الارض الزراعية ، وما يتركه من أثر فى الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وافرخ نوعا معينا من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى المجنى عليه . وقد تركزت جنايات الخطف فى مصر فى محافظات المنيا واسيوط وسوهاج وقنا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف افرادها الحصول على المال ، وغالبية المجنى عليهم فى تلك الجرائم من البالغين ، وتتراوح الفدية للافراج عن المخطوف بين مائة والف جنيه . وقد ساعدت انواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد فى مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واخفاء المجنى عليهم فى تلك الزراعات ، كزراعات القصب فى محافظة قنا وزراعات الذرة فى محافظتي اسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التى تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية فى ارتكاب جرائم الخطف ، ويعتصمون بالجبال حيث يقيمون اقامة دائمة . وهي تتركز فى محافظتى اسيوط وسوهاج . ويحول مكان اقامتهم

---

(١٩) زكريا مصطفى طه ـ ص ١٩ ، ٢٥ .

دون وصول رجال الشرطة اليهم بسبب وجـودالمغارات والدروب التى يجهلونها ، والتى يعتصم بها المجرمون ويقيمون فى أعلى الجبـال ، حتـىتستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من اماكنهم السيطرة على كـل قوةمهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسـان هو الشق الاصلى فى الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشـق الثانى ، اى الجريمة حسبما وقعت فى المحيطالخارجي،والانسـان وليد البيئة والظروفالمحيطة به،بمعنى ان ظروف البيئـة هي التي تهيىءالسلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجـة انـه يمكن القول بأن تغير الظروف من شأنه أن يؤدىبدوره الى تغير السلوك الانساني سواء فى هـذا اكانسلوكا حميدا أو سلوكا غير قويم . والانسانفى هذا الصدد شأنه شأن بذرة النبات فانها ان وضعتفى الارض فقد تصادفتربة صالحةتتفاعلمعها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، أو لا تصادف هذه التربة فتنشأ معتلة ان لم يقدر لهـا عـدمالنبت اطلاقا بسبب عدم ملاءمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة أو مجتمعالجريمة التي تتوافق معه .

واعمال القاعدة آنفة البيان لا بد وأن ينتهىبنا الى أن الانسـان لو شاء له قدره أن يسـلك سبيل الجريمة فان اختيار نوعيتها يكون متوائمامع طبيعة المكان الذى يوجـد فيـه والظـروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالأعمالالزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون فى نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائمالاعتداء على المال جرائم اتلاف المزروعات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهبتجرائمه نحو الاعمـال الصناعيـة التـي تتعلـق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كـان يعمـلبالخدمة لدى الافراد كانت جريمتـه فى غالـب الاحيان سرقة مال مخدومه .

ومما يتصل بالبيئة فى صدد تحديد السلوكالاجرامي الذى يتخذه الشخص هـي الطبيعـة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها ونقصد بهاطبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية أم صحراوية أو مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلكالموقع من حدود الدولة لما يساعـده من وقـوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرناعند الكلام علىجريمةالخطف كيفيتخذ الجناةمن البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمغارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم عن اعين رجال الامن ومقاومة كلمن يتصدى لقرهم . وقد لاحظنـا أن جريمـة الخطف استيفاء اقتضاء فدية تتركز فى المحافظاتالمتاخمة للمناطق الجبلية .

---

(٢٠) ومن بين تلك العصابات عصابة الخطف فى أسيوطسنة ١٩٤٥ ، وعصابة حامد الاعمى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وعصابة مصطفى هاشم رشيد الصعيدي بمحافظةسوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (المرجع السابق ص ٢٩).

(٢١) فعلى ما سبق القول لفت كاتليه النظر الىجغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتفكير العام وانها تختلف فى الجبال عنها فى السهول الزراعية او المناطق البحرية حيثيوجد جمهور الصيادين (ستيفاني وليفاسير ص ٨٠) .

واذا كانت غالبية سكان جمهورية مصرالعربية يعتمدون فى وادى النيل ـ اى فى الارض الزراعية على شاطىء النيل ـ والجرائم التيترتكب من بعض افراده اما ان تتسم بطابع الريف او تكون من جرائم الحضر ، فانه الى جوار هذايوجد فريق من السكان يقيمون فى الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطىء البحيرات الواقعة فى شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافيةلتلك المناطق نوعية الجرائم التي ترتكب فيها . وآية هذا دراسة عن سمات الجريمة فى محافظةالبحيرة واخرى لسمات الجريمة فى بحيرة المنزلة.

تتميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٢٢) بانها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الابيض المتوسط ، واخرى زراعيةتتصل بباقى الاراضى الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذهالمحافظة خاصية اخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجرى فيها استصلاح الاراضيالقابلةللزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعتان هما بحيرتا ادكو ومريوط . ومن الطبيعي ان يترتبعلى هذه الطبيعة المختلفة فى جغرافية الارض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهمعن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفةالتي قامت فى هذه المنطقة .

ويعنينا فى محافظة البحيرة الاقليم الصحراوى منها الذى يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يغلب عليهمالفقر بسبب ضيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون فى مكان وان كانوا يتمسكوندواما بانتسابهم القبلي وخضوعهم لعرف القبيلة وبعدهم عن اجهزة الدولة ، ومن ثم تتسمجرائمهم بالطابع القبلي والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقراء الحوادثفى تلك البيئة الصحراوية (٢٣) أن جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها الى السرقة أو الثارأو النزاعالطارىء أو النزاع على الارض،وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذهالمحافظة ومشروعات استصلاح الاراضي الصحراوية وزراعتها مما دعا الى تهجير عديد منالافراد وعمال التراحيل اليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وادى هذا الى ازدياد مستمر فى معدلجرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والذى ينشأ عنه عاهة مستديمةوالسرقات بالاكراه والحريق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحا فىجغرافيةمحافظةالبحيرة هي جنايات سرقات الأسلاك والكابلات ، حيث كانعددهاست جنايات عام١٩٧١واصبحت١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت الى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلكالجرائم الى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاكالتليفونية والكابلات لمسافات طويلة فى مناطق

---

(٢٢) عبد العزيز محمد القطني ص ٣٦ .

(٢٣) عبد العزيز محمد القطني ص ٤١ .

غير آهلة بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليهابالامكانيات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال الى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها فى توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو أثرجغرافية المحافظة على وجه خاص فى صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، ويبين هذا بوضوح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات فى محافظات البحيرة والشرقية والاسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبنى سويف والمنيا خلال عامى ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

المحافظة / السنة	١٩٧٣	١٩٧٤
البحيرة	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٢٩٨
الاسكندرية	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٣٠
المنوفية	٧٠	٦٦
بنى سويف	٤١	٣٨
المنيا	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦٢

والمثال الثانى لأثر البيئة فى السلوك الاجرامى يتضح من دراسة سمات الجريمة فى بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التى تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل فى حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمياط وبورسعيد والاسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة فى الأراضى المحيطة بالبحيرة فى حزام عريض يغطيه الماء على شاطىء البحيرة ومثبتة فى القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من أنواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الاجرامى بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشأن بالنسبة لأسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضرورى أن تكون سمات الجريمة متوائمة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب أغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم اخفاء الجثة فى باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل اخفاء المجنى عليه فى الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتى لا يمكن حصرها أو كشفها بسبب حجبها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من العسير الوصول اليها . ولذات السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص اخفاء المسروقات . وكذلك الحال بالنسبة الى الجرائم الخلقية حيث يسهل تهيئة المكان لها فى البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطى المخدرات ، وأخطر الجرائم التى ترتكب

فى البحيرةهي جرائم التهريب سواء كانموضوعهاالأسلحة والذخائر أو المخدرات أو المحصـولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن ابرز الجرائمكذلكما يخالفاحكام قوانينالصيد وتراخيصالوحدات المائية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصـفاتالمقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص. ومن اهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفةعصابات مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمةللبحيرة ، ثم اخفائها فى الجزر داخل البحيرةحتى لا يسهل الوصول اليها . ويبين هذا من الجدولالتالى الذى يبين جنح سرقة المواشى فى مركز المنزلة بالنسبة الى جملة الجنح به خلال المـدةمن ١٩٧١ الى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافى لبحـيرة المنزلة أثره فىالسلوك الاجرامى والحد من قدرة رجال الأمن على مكافحته ، حيث يساعد هـذا الموقع علىصعوبة الوصول اليها وخاصة فى فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية الى هنـاك ،وكثرة الأمطار والأوحال التى كثيرا ما تعرقلعمل رجال الحفظ عن مطـاردة المجـرمين والقيـامبالدوريات ، فضلا عن انعـدام الوسـائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائى ، الأمر الذىيشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفـاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد أسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتهـاالجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالى فى معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ،وقد لا تفى بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذى لا يقف حائلا امامالنزعات الاجرامية للفرد ، وآية هذا ان غالبيـة المحكوم عليهم فى القضايا من الفقراء المعدمين (٢٧) .

وتركزت عوامل الاجرام فى بحيرة المنـزلةحول عوامل ساعدت عليهـا البيئة الجغـرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سعة مساحة البحيرةالتى يقع بها اربعمائة وخمسون جـزيرة آهـلة

---

(٢٤) المرجع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) المرجع السابق ص ٦٠

(٢٧) المرجع السابق ص ٦٢

(٢٨) المرجع السابق ص ٦٢

بالسكان ، يتنافس الأهالى فيها على وضع اليـد على تلك الجزر واستغلالها استغلالا غير مشروع، بما يسفر عن ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه، هذا بالاضافة الى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة واخفاء المسروقات واختفاء الأشقياء .

ولا شك فى أن الموقع الجغرافى لحدود الدولة يساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال فى الجمهورية العربية الليبيـة تقع محافظة غـريان فى الجنـوب الغـربى من الجمهورية ، وتشـترك فى حـدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيهـا جريمتا التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعى. فيعمد البعض الى اتخاذ التجارة فى السلع المهربة موردا لهم ، خصوصا بالنسبة الى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس الـى آخره . وهم يستخدمون فى ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب فى المناطق الجبلية. ومن ناحية أخرى فان توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢، بشأن دخول البلاد . وبالاضافة الى ما تقـدم فان منافذ الخروج أو الدخول الى البلاد تكون محلا لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقـع جرائم جلب المواد المخدرة عن طـريق الموانىء والمطارات (٢٩) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا فى أكثر من مناسبة ان الانسان كائن حي ينفعل ويتفاعل مع الوسط الذى يوجـد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنـات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائما أن كل مجموعة من الأفراد توجـد فى مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سـلوك أفرادهـا بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر فى نفوسهم ـ ومن قبلهم أصولهم ـ من مجابهة مختلف شئون الحياة بتصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها تلقـائيا دون اجتهاد من جانبهم لمعرفة الطـريق الذى ينبغى سلوكه . ولا شك فى اختلاف كل بيئـة عن الأخرى فى بعض ظروفها وتبعا طريق سلوكها، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على ان هذا لا يمنـع مـن التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد فى السمات الأساسـية لكل منها .

وابـرز انواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينعكس أثره على سمات الاجرام فى الريف وفى المدن ،بسبب التقاليد الراسخة فى الريف والصبغة المادية التى يتسم بها السلوك فى المدن (٣٠) . هذا بالاضـافة الى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التى تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القـرية والمدينة أثرها فى جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٢٩) منصور غيث قنديل ، وقـد أورد ان جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ فى طرابلس هي ٧ ، ٢٤ وفى بنغازي هي ٢٤ و ٤٤ على التوالي .

(٣٠) راجع ما سبق لنا ذكره عند الكلام عن المقصود بالبيئة فى موطن البحث .

الثأر المتأصلة فى نفس اهل الريف ، وكذلك فيمايتسم به اجرام المرأة والأحداث فى كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين فى الغرب الى تأييدالتفرقة بين اجرام الريف واجرام الحضرسواء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابعالاجرام فى الريف هو الاعتداء على الأشخاص فى حين أن طابع اجرام المدينة هو جرائم المال ،فضلا عن الوسائل المستخدمة فى طريقة تنفيذ الجريمة فى كل من المنطقتين . ويقف بعضالعلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة علىذلك(٢١)

ان الحياة فى القرية المصرية تختلف عنالحياة فى المدينة اختلافا كليا ويرجع هذا فى أساسه الى اختلاف تكوين كل منهما ، ففىالقرية المصرية يسيطر على العلاقات بين افرادها الى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقةبين عائلاتها والمصالح المشتركة التى تجمعهم وطبيعة الحياة التى يعيشونها ، ولعلنا نلحظهذا فى تضافر أبناء القرية نحو اى خطب يقع بواحد منهم . اما فى المدينة فالأمر على خلافذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين افرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلةالواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مشاغل الناس فى المدينة وهنت العلاقات والاتصالات .هذا من ناحية ، والى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام فى التفرقة ، فلا شك اننسبةالجهل التى تسود مجتمع القرية اكبر بكثير من نسبتها فى المدينة،ومن اجلهذا كانتهناك سماتتميز اجرام الريف عن اجرام المدن .

وطبيعة الاجرام فى الريف تختلف عنه فىالمدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية فى حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففى القريةنادرا ما يكون الدافع الى الاجرام هو الكسب المادى ، وذلك بسبب التضامن بين افرادها ممالا يجعل للحاجة الملحة وجودا، ولأن الفلاحبطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فانالاجرام فى الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائما الأشخاص كالقتل والضرب ،وهووان وقع فى بعض الأحوال على المال فلا يكون الغرض منه الكسب المادى . وفى المدينة ـ حيثلا روابط ولا تقاليد ـ يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وانأعوزه المال فقدىلجأ الىالجريمة وهدفهالحصول عليه وتدفعه المغريات الشديدة فى المدينة وسائروسائل المتعة الى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

واذا كانت عواصم المحافظات فىمصرتدخلفى حدود المدينة ويطلق عليها البندر او القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلادالمركز فان الاحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الاجرام فى الريف والمدن .

---

(٢١) ستيفاني ص ٨١ وما بعدها حيث يعرض لمقياسالتفرقة بين الريف والحضر ، ويشير الى المناطق الريفية المتحضرة ، وضواحي المدينة والمناطق القامة خارجها ،وتقسيمات المدينة فى ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . وراجع كذلك بوزا وبنائل ص ٩٢ ومابعدها .

عدد جنايات القتل والشروع فيه فى بعض الجهات

من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة / اسم الجهة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٠	٥٣	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٩	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٣٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر اسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز أسيوط	٣٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

ويبين من هذا الجدول أن جنايات القتل والشروع فيه هي فى المراكز دائما – سواء فى الوجه البحرى أم فى الوجه القبلى – وهي اعلى منها فى البنادر ، بل أن الحد الأدنى دائما فى المراكز أعلى من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر . ولم تتغير النتيجة بالنسبة الى الدراســة التى أجريت (٣٢) عن توزيع الجنــايات والجنـح فى المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية ســنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة الف نسمة من السكان فى جرائم الجنايات موزعة حسب المناطق الحضرية وغير الحضرية فى مصر عام ١٩٤٧

أنواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١ر٢٨	١٧ر٥٠
ضرب أفضى الى موت	ر٩٦	١ر٦١
ضرب نشأت عنه عاهة	٧ر٥٠	٨ر٥٠
سرقة وشروع	٨ر٨٦	٦ر٢٠
حريق واتلاف وتسميم مواشى	٢ر٨٤	٥ر٩٢
فسق وهتك عرض	٣ر٧٢	٠ر٦٥
رشوة وتزوير	٩ر٣٤	١ر٩٥
عـود	٨ر٧٠	١ر٤٧

(٣٢) دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصري –ص ١ وما بعدها .

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف من السكان من جرائم الجنح موزعة حسب المناطق الحضرية وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٣ر٨٦	٢ر٨٠
هتك عرض وفعل فاضح	٤ر٥٦	٠ر٣٧
سرقة	١٠٤ر٥٦	١٩٩ر٠٧
نصب وخيانة أمانة	١٣٩ر٢٦	٧٠ر٥٩
تسميم مواشي	٠ر٥٠	١ر١١
اتلاف مزروعات	١ر٩٤	١٧ر٤٣
تشرد	١٥٤ر٧٢	١٥ر٥٨
رشـوة	٤ر٤٦	٠ر٧٥

وهذا أيضاً بيان من بعض الجنايات والجنح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنـايات

نوع الجريمة / البندر والمركز	قتل وشروع	ضرب لموت	ضرب لعاهة	سرقة وشروع	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	عود	مخدرات
البنادر	٦٣	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنـح

الجريمة / البندر والمركز	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اتلاف مزروعات	تشرد
البنـادر	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المـراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ عن الجنايات في البنادر والمراكز البيـان التـالي :

الجريمة / البندر او المركز	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمـد
المراكز	١٢٤	١١	٧
البنـادر	٤٣	١١	٤

والبيانات آنفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الأشخاص ، وأن سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة عن المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٣) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين. لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنايات لمجموع الجرائم المرتكبة من أهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٣ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجنح من أهل الريف اقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد الغش وهي الجرائم التي تتسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فجرائم القتل والضرب المفضي الى موت واحداث العاهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١١ ٪ في القطاع الحضري . ومعنى ذلك أن هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضري تقل نسبة الجرائم العنيفة وتتضاءل عدد الجرائم ضد الغش . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة أعلى منها في المناطق الريفية ،٦٠ ٪ من العينة يقيمون في أحياء شعبية . ٢٨٫٥ ٪ يقيمون في احياء متوسطة ، ١١٫٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في أحياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والمكوجية وغيرهم ممن تحتم عليهم الاقامة في هذه الاحياء. وقد قسمت الأحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والمعيشة في هذه الاحياء ومن الواضح ان الأمية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الاحياء الشعبية عن غيرها من الأحياء، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . أن ٢٨٫٥ ٪ من مجموع أفراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١٫٥٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى أن المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والمعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري . ويتبين أن هذا التباين بالاضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد ادى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما ترتب عليه أن تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين أعلى منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين ان الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالاضافة الى صعوبات كثيرة في الموطن الاصلي ، وتكون الهجرة اما مع اقارب أو مع أسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الاحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى أن ٩٢٫٤٪ من مجموع مهاجري العينة قد اقاموا

---

(٣٣) محمد خيري ، ص ١٣٦ وما بعدها .

عند هجرتهم فى أحياء شعبية ، وتبرير ذلك أنالاحياء الشعبية قد تكون قريبة الشبه لقرية المهاجر من حيث المستوى الاقتصادى ، كما قديرجع ذلك الى أن الاحياء الشعبية غالبا ما تتسم بالطابع الديني وهي سمة تشترك فيهاهذه الاحياء مع مجتمع القرية . وقد يرجع ذلك أيضا الى أن الاقامة فى الاحياء الشعبية ـ حيثيتيسر تأجير الفرفة الواحدة الى عدة أشخاص ـ أيسر من الاقامة فى الاحياء المتوسطة أوالراقية التى لا توجد فيها هذه الظاهرة . ان أسباب ارتكاب الجريمة طبقا للمعلومات التيأدلى بها المجرمون هي قلة الدخل وعدم وجود عمل ، وهما العاملان الرئيسيان لارتكابالجريمة .

ويبين الجدول التالى ما يتميز به اجرامالمدن الكبيرة من الطابع المادى عن غيره من المدن أو الريف . ويتضمن جنايات تزييف المسكوكاتوتزوير الاوراق المالية (بنكنوت) والرشوة والاختلاس سنة ١٩٧٤ ، وسوف تضممحافظات الوجه البحرى فى مجموعة ومحافظات الوجه القبلي فى مجموعة أخرى .

الجريمة / الجهات	التزييف	تزوير أوراق مالية	الرشوة	الاختلاس
القاهرة	١	ـ	٣٧	٤٤
الاسكندرية	١	ـ	٩	٤٣
الوجه البحرى	ـ	٧	٣٧	٨٠
الوجه القبلى	١	١	١٥	٣٢

هذا وتكشف الاحصائيات بسبب الماديةالتي تطغى على حياة المدينة والامكانيات المتاحة لذلك عن ازدياد مطرد فى جنايات الرشوةوالاختلاس . وكذلك الشأن بالنسبة للجرائم التى تتعلق بالآداب العامة ، فالحياة فى المدينةالكبيرة بما فيها من مغريات تجعل هذه الجرائم اكثر وقوعا فيها ، أما فى الريف فنظرا للتقاليدالمرعية يكاد يكون وقوع تلك الجرائم قاصرا على عواصم المحافظات ، وهو فى الوجهالقبلى أقل عددا منه فى الوجه البحرى ، كما يبين من الجدول التالى عن أحصاء الامن العام سنة١٩٥٢ .

الجرائم / الجهات	منازل الدعارة السرية	تحريض على الفسق من النساء	معاكسة بالطريق من شبان	القوادون	جرائم فنادق وبنسيونات	جرائم محال عامة	ألعاب قمار	مراهنات خيل	مطبوعات مخلة بالآداب	زنا	فعل علني فاضح	تسول
القاهرة	١٢٣	٣٧٦	١٢٢٢	٤٩	٨٦	٤٨	١٣٠	٢٣	١١	٦	٢١	٣٠٠١
الاسكندرية	٣١	١٢٩٦	ـ	٧	٥٤	١٥	١٠	١٠	١	ـ	ـ	١٧
الوجه البحرى	٩	١٦٦	٣	ـ	٣	٧	٣٢	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٣٥
الوجه القبلي	١٦	٥٩	ـ	ـ	١	٨	١٣	ـ	ـ	ـ	ـ	١٩١

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة فى الريفنجد ان نسبة قتل الاطفال مجهولي النسب الى مجموع جنايات القتل بكل محافظة مرتفعة فىالقاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة فى باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ فىالقاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٣ر٢٪ والغربية ٧ر١٠٪والدقهلية ٤ر٢٪ والقليوبية٨ر٣٪ وأسيوط ٣٪ وقنا ٢ر٦٪ .وقد لوحظ ان أسوان ٥ر١٢٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جناياتالقتل ذاتها اذ هي ٧ وجنايات قتل الاطفال اثنتان فقط .

ويترتب على التضامن الاسري الموجود فىالريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد فى القرية الا نادرا ، وتتركز فى المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ،فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعةللعيش . وفى الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كلالايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد فى المدن ـ لاسيما الكبيرةمنها ـ فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيشافضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما تقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	البحيرة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	أسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	أسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ،فالروابط العائلية فىالريف يجعل انحراف الحدث وسيره فى تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لانشئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجعلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذاايضا من الجدول المقارن التالي : ـ

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز / الجريمة	سرقة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عـن ظاهرة الاجرام فى مصر :

١ ـ ان محافظات المدن تتميز عن غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية فى جنايات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ ـ فى محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها فى جنـايات الضرب المحدث عاهة والحريق العمد واتـلاف المزروعات ، يضـاف اليهـا جنايات القتـل فى محافظتي الشرقية والقليوبية وجنايات السرقة فى محافظة الشرقية وحدها .

٣ ـ فى محافظات الوجـه القبلـي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها فى جنايات القتل العمد والضرب المحدث عاهة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام سنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل فى الوجه القبلي فالحال لم يتغير أبدا الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك فى السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام فى الريف عنه فى المدن ببلادنا ، لما هـو مدون من بسط التقدم الحضاري فى بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنايات القتل والشروع فيه لكـل
عشرة آلاف نفس فى السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،
١٩٣٣ فى بعض مديريات مصر

اسم المديرية / السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢ر٠٤	٢ر٦٠	٢ر٦٥
البحيرة	١ر٤٢	١ر٤٧	١ر٢٢
الغربية	١ر٤٨	١ر٦٨	١ر٥٩
المنوفية	١ر٢٣	١ر٣٥	١ر٤٦
الشرقية	١ر٠٧	١ر٤٠	١ر٧٧
الدقهلية	٠ر٨٧	٠ر٨٨	٠ر٨٣
بني سويف	٢ر٦٧	٣ر٣٤	٢ر٨٦
الفيـوم	٣ر١٢	٣ر٦٢	٤ر٠٢
المنيـا	٢ر٣٨	٢ر٥٩	٢ر٥٩
اسيوط	٤ر٤٣	٣ر٠٥	٣ر٥٥
جرجا	١ر٦٠	٢ر٠٢	٢ر٢٢
قنـا	٠ر٨٨	٠ر٧٧	١ر٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة ادى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادى ، فان هناك تفرقـة اخـرى مترتبة على ذلـك هي اختيار الوسيلة المستخدمة فى ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجرى تنفيذها بوسـائـل

تتسم بالعنف والقسوة وتمثل انعكاسا لغريزةالعدوان البدائية . فالقتل يتم بالاسلحة النارية على اختلاف انواعها ، أو بالآلات الحادة التييستخدمها الفلاحون اساسا فى اعمالهم اليومية كالفأس وما اليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلةدون أن يتنبه اليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب فى المدينة فلاتحتاج الى استخدام العنف وانما وسيلتها ذكاء المجرم الذى يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الاشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشفالاحصائيات الجنائية عن أن غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الاسلحة الناريةوالآلات الحادة ، فى حين أن جرائم القتل تنتشر فى المدن والاماكن المزدحمة والسرقات من المساكنفى غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالكسر والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصةبين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالاضافة الى هذا هناكمجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى أنها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها. ومن هذه الظاهرة ما يشاهد فى تجارة المخدرات، حيث يقوم أفراد جماعة معينة ــ وعلى ما هومعروف ــ باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة يعتبرالخروج عنها جرما فى حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذى تراه فى مواجهته .

على انأخطر التقاليد الموجودةفىالبيئةالمصريةهو ما كان متعلقا بالثأر (٣٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن اكثر الجرائم وقوعا فى الريف هو ما كانموجها ضد الاشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضى الى الموت والضرب الذى تنشأعنه عاهة مستديمة . وتأتي بعد هذا جرائم اتلاف المزروعات والحريق ولا نكون مبالغين اذاقلنا أن الجهل هو العامل الاساسى وراء الاجرام فى الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفىقوة العقيدة . فأخذا من الاحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نعنى بهذا أن الجهل يؤدى الى الاجرام ، وانما المراد هو انه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح فىالريف يعيش أسيرا للتقاليد والمعتقدات التي اصبحت راسخة فى نفسه ولا قوة اعلى منالقانون .

وفكرة الثأر تتمثل فى أن الاعتداء الذى يقععلى فرد فى الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الااذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطانآخر يجازىالفاعل على جرمه . وكان من الطبيعى كذلك ان تقع احدى جرائم القتل فيبلغ عنهاولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٣٤) احمد ابو زيد ــ الثأر ــ دراسة انثروبولوجيةباحدى قرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلا من الطرفين ــ أهل القتيل وأهل القاتل ــ يدرى بتبين من هو مرتكب الجريمــة ، وعائلــة القتيل تتحين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع العدوان عليها ، ولا زلنا الى اليوم نسمع ان الثار ما يزال متوارثا في بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثأر تقاليده المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الاخذ بالثأر ، بل أن من يكون موضوعا له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز أن يكون موضوعا لها الاطفال ، ومــا كانت تقام المآتم الا اذا تم الأخذ بالثار ، ولقــد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٣٥) حكم فيه بالادانة ، حيث لم يشاهــد القاتل أحد وقت ارتكاب فعلته ، ولكن في اليوم التالى للجريمة اقيم المأتم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى راسه ورفع القناع عن وجهه ، واذ درست المحكمة قانون الثأر وفقا للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجانى لفعلته .

ومن بين الاسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثأر قصص البطولة التى تحكى في مختلف المناسبات ، وتصور الأمر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه تقصير يتسم بالجبن ، ويبقى واجب الاخذ بالثأر قائما مهما امتد الوقت ولو لعدة سنوات . والاعتقاد السائد ان روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار الا اذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد أهل القتيل ، ومن ثــم فــلا ينبغي للحكومة أن تتدخل فى الامر لان الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثأر لدى الفلاحين ، أن وجد فريق من المجرمين الذى احترفوا الاجرام الانتقامى وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القتيل من يتمكن من الاخذ بالثأر لصغر السن مثلا ، فتلجأ الاسرة الى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يثير جدال أخطر انواع الاجرام ، ولا شك في أن الجهل هو الذى يوصل الى هذه الحالــة حيث ابقى كثيرا من المعتقدات سائدة فى أوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جزاء له الا القتل أما أحكام المحاكم دون الاعدام ــ ولو بالاشــغال الشاقة المؤبدة ــ فانها لا ترضى مشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية أخرى فان استخدام الاشقياء يبعد عن اهل المجنى عليه من فرض الاتهام ، اذ يستطيعون اعداد دفاعهم سلفا ، كما أن الاشقياء انفسهم يحترفون اعداد ادلة النفى قبل اقدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا ان نسبة كبيرة من جنايات القتل والشروع فيه ينتهى فيها الامر باصدار قرار بأن لا وجه لاقامة الدعوى .

وقد عنيت الاحصائيات الجنائيــة ببيــان عدد جرائم القتل التى يكون الدافع اليها الثأر ، فبمراجعة الجداول الخاصة ببواعــث ارتكــاب جنايات القتل تبين ان الغالبية منها كما يلي : ــ

الانتقام والثأر ، رفع العار ، استفــزاز ، نزاع على حد أرض . واذا استعرضنا في ذاكرتنا تاريخ القضاء المصرى لوجدنا أن هذه البواعــث كانت غالبة دائما . ويؤيد هذا ان جنايات القتل

---

(٣٥) محمد البابلي ص ٧٤ و العللي ص ١٥٨ وما بعدها

التي وقعتمع سبق الاصرار والترصد كانت أعلىمما وقع منها بدون سبق أصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطورفى اساليب الحياة فى مصر الا أن التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة فى كثير من النواحي . واكثرمن هذا ما زالت الوسائل المستعملة فى جريمة القتل على ما هى عليه . الاسلحة النارية الآلاتالحادة ، الخنق ، العصا .... الخ .

جدول خاص بالبواعث لجريمة القتل

السنة / الباعث	الثار	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	نزاع على حد ارض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الاصرار والترصد	بدون سبق اصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام احيانا مختلطا بالثار .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعيةوالجنائية فى مصر بدراسة لظاهرة الجريمة فى قرية طهواى (٣٦) ، حيث تبين ان سكان القريةتتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان .ويعيش جميع أفراد مجتمع الفجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات الماشية ،والسرقة بطريق النشل ، ويتوارثون هذا العمل جيلا عن جيل ، ولا يتحرجون من ذكر أنهم يحترفون السرقة ، وهم يحترفون السرقة دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدامالعنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التى يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقة بالتنشئةالاجتماعية حيث أعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقة كان نتيجة لضغط الأسر عليهم ، وانممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) منالمسروقات شخصيا أو فى نطاق الاسرة ، ويتميز مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الأفراد ،حيث أنهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذاما قبض على أحدهم أو أودع السجن فانهم يقدمون لهولأسرته العون سواءكان فىصورة عينية أو مالية.

(٣٦) احمد المجدوب ص ١٦٣ وما بعدها

البيئة واجرام المراة :

انه وان كان اجرام المراة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التى لاجرام الرجل ــ كما هو واضح فى جلاء من الاحصائيات الجنائية ــ الا ان عــلاقة البيئة باجرام المراة لها مظاهر واضحة تستدعى الدراسة والعناية ، وآية ما تقدم أن كثيرا مــن نشاط المراة الذى يشكل جريمة ينتهى الأمر به الى الحفظ نظرا لظروفها فى البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التى يراد منها رفع العار . بل أن طبيعة المراة ووضعها فى الاسرة العربية يجعل أجرامها ودواما مما يتسم بالجبن والحذر ، ولذا فهو يتم فى خفاء وينتهى الامر فى كثير من وقائعه الى قيده ضد مجهول .

ووضع المراة بالنسبة الى البيئة التى تعيش فيها جعلت حجم اجرامها أقل بكثير من حجــم اجرام الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل ثقة أو كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا امر لا تختلف فيه الدول العــربية عن غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ أن عدد المتهــمين فى الجنايات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجــال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المراة كأنثى ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئــة التى تعيش فيها ، فالمراة أقل من الرجل فى قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مــداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى ان حجم اجرام المراة لا ينبغى ان يتعدى نصف حجم اجرام الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق فى القوة الجسمانية ان الجرائم التى ترتكبها المراة لا تحتاج فى تنفيذها الى العنف . بل ان جريمة القتل غالبا مايستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله ســبحانه وتعالى المراة لتكون اما ، اذ زودتها الطبيعة بعاطفة الحنان والرحمة والشفقة مما يتمشى مع رسالتها ، وهو ما يتنافى مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها اى معنى من هذه المعانى ، فان هي أقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان اجرامها قليلا .

وفى خصوص المجتمع المصرى بالذات نجد ان الظروف الاجتماعية ومكانة المراة من الأسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المراة على سمعتها فى مجتمع تغلب فيه القيم الدينيــة والخلقية يدفعها الى الابتعاد عن طريق الجريمــة تامينا لمستقبلها .

والمراة فى الريف تحتل السواد الأغلب من النساء ، وتعتمد فى حياتها على الرجل ، سواء أكان أبا أو أخا أو زوجا أو أى عائل آخر ، بل ان كثيرا من الرجال يأبون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد أدى هذا الى بعد المراة عن الاحتكاك بالناس ، واصبحت اكثر ميلا للعزلة ، مما يبعدها عن الاسباب التى تدفعها الى الاجرام . والملاحظ فى الريف المصرى أن المراة تعتمد على الرجل فى حياتها اعتمادا كليا . أما فى المدينة فانه وان كانت المراة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس ، الا انها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التى تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل أن الملاحظ هو أن الغالبية العظمى من النساء المجرمات من الأميات . أى انه كلما تعلمت المراة

وتثقفت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية فى مايو ١٩٥٩ الذى قام به المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية (٣٧) ان أغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشتغلن بأى مهنة أو عمل ، وان هذا لايخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجي فى المجتمع الحر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل، وانه وان كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمرأة فانا نحاول أن نحيط بصورته على قدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والامر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو أن نسبة الجنايات التى تقع من المرأة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الاشخاص ، أى القتل العمد والضرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المرأة عام ١٩٧٤ (١١١) جناية بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب أفضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، اى ان جملة جرائم الاعتداء على الاشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنايات. واذا أردنا تعليل هذه الظاهرة لوجدناه فى أمرين ، الأول منهما هو أن المرأة فى غالب الاحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها : اما اجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى أقصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة أن فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والآخر يتمثل فى باعث المرأة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تكرس له كل جهودها ، فاذا قام فى سبيله عائق فانها تزيحه عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المرأة بالريف جعلت أخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الغيرة ، ذلك انها بمجرد ان تنتقل الى منزل الزوجية ترى انه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وانها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يرعاها ومن ثم فان أى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقائها وتدفعها الرغبة فى المحافظة على نفسها الى ارتكاب أشد الجرائم خطورة ، وتتحرك غيرة المرأة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لأى سبب من الأسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع ان تصب غضبها على زوجها لأنها فى قرارة نفسها تعتقد أنه يستعمل حقا مشروعا له فضلا عن انها فى حقيقتها ليس بمقدورها أن توجه اجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المرأة الدخيلة على حياتها وتبقى صورتها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنها بسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، وأحيانا قد تندفع المرأة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما أحست انه قد ينصرف عنها الى الزواج من

---

(٣٧) سمير الجنزوري ــ ص ٣٠٥ وما بعدها

اخرى . ويندر فى مصر ان ترتكب المراة جريمةالقتل لاسباب عاطفية ، كصورة تخلى الشخص عنها وانصرافه الى غيرها لأن التقاليد ما زالتلا تقر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الاسباب العاطفية اندفعت الىالمساس بالحياة فانما يكون هذا فى صورة انتحار .

واذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدها فى ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المراة لا تختلف عن الرجل فى هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها .ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المراة فيها دورا هاما تحت تأثير عادةالثار ، سواء بنفسها او بتلقينها اياها لأطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المراة احيانا الجريمة ضدالنفس تجنبا للفضيحة فى البيئة كما فى حالة جريمتى الاجهاض وقتل المولودة حيث أن الحملسفاحا يمثل عيبا خطيرا هو فى الريف اشد منه فى المدن ، حيث تعرف الفتاة أن جزاءها اذاما كشف امرها لن يكون الا ازهاق روحها ، لا سيما وان سبيل اخفاء امرها ليس بالامرالسهل حيث لاتوجد اماكن لايواء اللقطاء ، كما هو الحال فى المدن ــ وقد تقارف المراة الجريمةقتلا دفاعا عن العرض وذلك ان تفريط المراة فى عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الىازالته الا بقتلها ، وقد تأصلت هذه التقاليد فى نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أنالأم تتغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفاعا عن عرضها ، بل قد تقتل الأم أمها أو الأختاختها لهذا السبب .

اقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن فى صدد بحثالجريمة وعلاقتها بالبيئة أن نغفل اثر العامل الاقتصادى فى هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتهاتتلون ظروفها وفقا لسلوك افرادها ووفقا لاقتصادياتها ، وانه وان كان العامل الاقتصادىمن أدق واهم ما تتصل به الظاهرة الاجرامية ، وهو فى حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الاانا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر فى البيئة وقتيا فى السلوكالاجرامى فلا جدال فى أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الأقل بالنسبةالى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب .وقد عكس التطور الاقتصادى صداه على تطورالجريمةفالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقالمن جرائم العنف الى جرائم الذكاء ، وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشىء عن عدم استقرارالاثمان والاجور والنقود كان له اثره فى الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصاديةوالاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل ايجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعواملالاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الىالموضوع الذى تتعلق به أو بالنسبة الى وقت حدوثها ،وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبةالى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولةكلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلةمناسبة . ثم أخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفتراتالازمات وأوقات الرخاء (٣٨) وبالاضافة الى ما تقدم فان جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الاحصائياتالجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المظلمة ، واخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء أو جرائمالخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخلكبير فتنعكس آثارها عليها .

ولقد أصبح الشائع ربط الجريمة منالناحية الاقتصادية بالفقر (٣٩) ، ولكن هل يؤدى الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصودبالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين منالطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقيرهو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر، فيكاد لايوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعيالموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الانسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتزق يوما بيوم ،وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . واذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه منالفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقعون فى طريق الجريمة ، فاذا قيل بأن الانسان الفقير هومن لا يوجد لديه ما يفى باحتياجاته لكانت المسألة نسبية تختلف من حالة الى أخرى ، ومن ثم لايمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الاجرامى .. ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناكدليلعلى وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا أنه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأنمؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وان كانوا لم يدخوا السجن بعد فانهم فى الطريق اليه،حقيقة أن بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وان لم يدخلوا السجون ؟!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالاجرام فىصلته بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر أن يوصل الى عوامل اخرى كثيرة متداخلةفى التكوين الاجتماعى ، وهي التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائمالاموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات اكثر من الحاجات الاقتصادية التي تؤدى الى السلوكالاجرامي . والفقر فى المدنية الحديثة يعنى عادة انفصال مناطق الايجار المنخفض ، حيث يعزلالناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للاجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذجالسلوك الاجرامي . والفقر بوجه عام يعني مركزا

---

(٣٨) راجع أثر الازمات الاقتصادية والرواج الاقتصادي- ستيفاني وآخرين ص ٨٧

(٣٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقةالاجتماعية والاجرام (جون كلاذل وآخرين ص ٤٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترامأو ما يخشى عليه من الضياع أما ما يشجع على بذل الجهد لتحقيق حياة أفضل ، وهو بوجه عامكذلك يعني ظروفا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقدبالنسبة الى غيرها منالظروفالمالية والصحية ، يعنى أن الوالدين يبعدان عن المنزل خلال أغلب الساعات التي يستيقظ فيهاالاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام أيضا أن الطفل يؤخذ منالمدرسة فى سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادى . وقد يصحب الفقر فى المدينة الصغيرة قليل منالمصاحبات .

ويعرض برنس (٤٠) الى أن الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى أنه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع فى كل الاوساط الا انهاأكبر وقوعا فى أوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا . ويتساءل عن السبب فىهذا هل هو النقص فى اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ ، هل فرصة الحياة الشريفة أقل لديهم ؟ أو انهناك جرثومة اجرامية أسهل انتشارا فى هذه الاوساط عنالاوساط الاعلىاجتماعيا واقتصاديا؟وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين فى أوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى أن الزيادة فىالاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه فى الجماعات التارفة .وباختصار فان هذا يعنى أنه اذا عرض فرد الى مؤثرات أكثر اجرامية من غيرها فى الوسط الذىيعيش فيه فانفرص مخالفته القانون تكون أكبر. ويرى برنس (٤١) أن اعتبار الجريمة أكثر وقوعافى الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة فى الطبقاتالدنيا ، ومعهذا فالجريمة موجودة فى الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفى دراسة أجريت سنة١٩٦٧ ثبت أن المذنبين الصغار فى لندن كانوا من جميع الطبقات ، وأن الجرائم لم يختلف نوعهامن طبقة الى أخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهورالجريمة ومداها فى مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي أجريت بالنسبة الى علاقةالفقر كعامل اقتصادي بالجريمة ــ رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات ــ قدوصلت الى نتائج متضاربة. ففي احدى الدراسات وجد أن معدل نسبة الانحراف الى مجموعة منالاطفال فى مكان يعد منخفضاجدا ،معأنهممن أسر كانت فى فقر اشد من فقر السكان فى المناطقالمحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف ... وفى دراسة اخرى اكتشفعدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرىثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العواملالاقتصادية ثابتة .

---

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد أشار الى الدراسات فىالولايات المتحدة الامريكية وفى انجلترا عن مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

فى المجتمع المصري ــ لاسيما المجتمع الريفي ــ لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة فى هذه الحالة (٤٢) . وفى اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر أو غيرها . ولقد ثبت فى دراسة بامريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون فى فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة فى مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث واتجاهاتها وعواملها فى مصر اذ جاء بــه انه من المؤكــد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك فى توجيه الحدث نحو السوك الجانح . فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشــي للاسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخــــذه الاسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه اسرة الحدث بحــكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة هي التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي أجريت فى هذا المجال. ففي دراسة عن أثر العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث (٤٣) وضحت الفروق بين متوسط أفراد مجموعة الاحداث جامعي الاعقــاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للاسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للانفاق على الاسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كــان متوسط الانسبة منخفضا فى المجموعــة الاولى عنهــا فى المجموعة الثانية ، وفى بحث السرقة عند الاحداث (٤٤) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقة فى مستوى منخفض جدا .

ولا بــد لنــا من التسليم بان للعوامـــل الاقتصادية اثرها فى الظاهرة الاجرامية ســواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تأثر سير الاجرام بالعوامــل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها عن غيرها ولانها متشابكة يؤثر بعضها فى البعض الاخر، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لهــا .وعلى هذا فان الظروف الشخصية المحضة قــد تؤثر بدورها فى العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف أخرى تهيىء لتأثيره فى ارتكاب الجريمة (٤٥) . فمثلا قد تحــل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهو امر ملحوظ فى حياتنا العادية . وقد يكون للجو

---

(٤٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٤٣) أثر العوامل الاجتماعية في تشرد الاحداث

(٤٤) السرقة عند الاحداث

(٤٥) ستيفاني وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا فى انتفاء السلوك الاجرامي أو وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمــل المناسب لامكانيات الشخص ويكون متوائما معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له علـى ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من أثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان قفزت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما اغرى البعض وبيسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بأن للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفـع الفقر لارتكاب بعض الجرائـم كالسرقة ، نرى الثروة ـ على الاخص الفجائية ـ تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي الغلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصاديـة كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال أحيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألـة ترجع الى الاستعـداد الشخصي للفـرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقلاع عـن حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يرتزقون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحـدث امـر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتعـقد لـه المؤتمرات والحلقات الدراسية مـن فترة الـى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكـرة يخرج الى الحياة المليئة بالمتناقضـات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهـو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على ايـة صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان أخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للاحداث يتمثل في جنح السرقة (٤٦) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدات في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه أشد اتقانا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هـو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحيـاة في القريـة المصرية تبعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنتفي في القرية ، نظرا للترابط العائلي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحـداث في الريف يجري نظـرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليد مرعية ،

(٤٦) يبين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عـن الجنح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخامسة عشرة مرتبة تنازليا كالاتي : الضرب ، السرقة ، ركوب المواصلات بدون أجرة ، الاتلاف ، القتل والاصابة الخطأ ، ولا شك ان السرقة هي أخطر تلك الجنح .

ومن ثم لا يدرك شيء من أمر الجريمة . والامر الاخر هو ان الارقام المظلمة فى الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الاحداث ، فالملاحظ فى البيئة المصرية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الاحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورأفة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشيء عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث ويتفاعل معها هي الاسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث فى حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد يتنقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو فى كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالقدر الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الاسرة أخطر الادوار فى تنشئة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وبنماذجها السلوكية ، سواء اكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة معه . فلكل اسرة تقاليدها وعاداتها وانماط سلوكها تسير عليها فى مراحلها ، الامر الذي قد تختلف فيه أسرة عن اخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية فى المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان فى القرى .

واول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل فى حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالامثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للاجرام فان الحدث سوف يقتدى بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل اخرى تغير السير الطبيعي للامور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع فى ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من امور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، اى منغمسا فى الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي فى ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الاب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

---

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث فى الشرق الاوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الاحداث فى الشرق الاوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الاب او الام يكافيء الصغير او يعاقبه حسب ما يرى فى تصرف الصغير من حسن او سوء وفقا لتقدير ايهما بصرف النظر عن المقاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه فى مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والديه حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشا الشخص عدوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البغي قد تقوم بتربية صغيرها فى وسط يبعد عما هي منه ، وتغرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والاسرة هي اول مؤسسة لصياغة السلوك الاجتماعي ، عن والديه يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه فى الحياة ، فاذا كانت القيم والمواقف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متفقا والقانون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٣٠) .

وللقواعد السلوكية فى تربية الصغير أثرعميق فىسلوكه واحتمال أوعدم احتمال انحرافه. اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربيةالصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهوالذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا الى قلة الكتب التي تتناول أسلوب معاملة الطفلثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما منوحي الساعة . ومن اخطر العوامل المؤثرة فى سلوك الصغير هو جهل أحد الوالدين بأن منشأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التيلا مبرر لها حين ارتكابه لخطأ وقد يصل الحال الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوةاللين المتناهي لاى سبب كان ، لان التغاضي عن أخطاء الصغير او التهوين من أمرها قد يكون منأثره استمرار الصغير فى سلوك يؤدي الى انحرافه . وقد يكون الاهمال بدوره من عواملالانحراف ، لان معناه افتقاد الصغير للرعاية والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك،يستوي فى هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفى بعض الاحيانقد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ،وهو شعور اذا عززته عوامل أخرى قد يؤدي بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصاديةوعلاقتها بالبيئة ، ولاشك فيان المقدرة الاقتصادية للاسرة تكون سعيا فى تحديد كثير من العواملالمؤثرة والتي قد تؤدى الى اجرام الاحداث (٤٩) . واول ما يتأثر بالظروف الاقتصادية هوالمسكن الذى يقيم فيه الحدث ، ذلك أنرب البيت يتخير المكان فى الحي الذى يتماشى مع اقتصادياتهوموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية فى تحديد مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية أثاثهواتساعه وكونه صحيا من عدمه ، ولهذا اكبر الاثر فى استقرار الصغير داخل المسكن أو الثورةعليه والهرب منه الى الطريق لا سيما فى اوقات الفراغ . ولعلنا نلحظ هذا فى انطلاق الاحداث فيكثير من الاحيان الى الشوارع فى تجمعات لقتل الوقت وهي فى ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومةالاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم السرقة عند الاحداث (٥٠) ان حالة اسر الاحداثالمهنية فى مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الأب والأم لها أثرها الكبير فىسلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يميل بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشفعن مشاعره فى صورة صريحة فينعكس هذا فى صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقديرجع انتفاء الهدوء فى المنزل الى ضعف احد الزوجين ازاء الآخر ، على أن أحد الطرفين ـ لاسيما اذا كان الاب ـ يعطي أمثلة للأولاد فتطبعهم باحدى الصورتين الضعف أو التحكم ، وهو أمرلا تحمد عواقبه . ومن الأمور الملحوظة فى حياتنا

---

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث فى الشرق الاوسطص ٢٤

(٥٠) بحث السرقة عند الاحداث .

أن ضرورات الحياة اضطرت كلا من الأب والأم الى الانطلاق فى سبيل الحياة كسبا للعيش . ويترتب على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الاسرية له ، ويترك فى بعض الاحيان فى مجتمع الطريق لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت او الجهد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف أنما يؤثر فى سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما عن وفاة أحد الوالدين أو هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل للأب أو الأم .

وللتعليم أثره العميق فى الارتفاع بالمستوى الفكرى والثقافى للانسان ويساعد على تكوين شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتدل الاحصائيات الجنائية سواء فى مصر أم فى الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين ـ احداثا وبالغين ـ هي للأميين ولمن لا يحسنون القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادى للاجرام . والمدرسة من أولى الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل فى خارج منزله فى السنوات الاولى من حياته ، واذا كان الصغير يجد فى المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج عديدة متآلفة أو متنافرة ، وهو فى حداثته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار بعضها سواء بمجرد دافع التقليد أو انسياقا فى تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره فى عملية الاختيار (٥١) . وتأتي اثر هذا أهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت والمدرسة فى تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده او على المدرسة وحدها أمر غير مقبول ، وانما الخير فى المعاونة بينهما فى تعرف عيوب الصغير الذي يحتمل ان تؤدي الى انحرافه والعمل معا على ابعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما فى الاسرة التي تحتاج اقتصاديا الى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة فى المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق بأحد الاعمال ، وفى العمل يلتقي الحدث بأفراد عديدين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالاخير يحوي الحسن الى جوار السيء ، واذا كانت المدرسة تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني الا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك الا ما يؤثر فى سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها أثر كبير فى النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء اكانت اجرامية او معادية للاجرام ، وقد تفرض ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بأفراد معينين لاخيار لهم فى انتقائهم . ومن هذا قد تبدأ بذرة الجريمة فى الانبات ، ويتصل بها الحدث متأثرا بغريزة الجماعة دون ان توجد نماذج اخرى معادية للاجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

---

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنح وسطا يعمل اما للخير اوللشر ، سلوك الفرد (برنس ص ٤٠)

واخيرا فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء أمر تدفع اليه الغريزة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه أو يكبره أو يصغره ، فتكون الجماعات الصغيرة . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر او يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيأ له . ولما كان السلوك غير المعادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة أمر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من أثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية اخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بأن هناك ضابطا محددا يمكن معه التفرقة بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقا للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، أما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كان مفاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى أن تعتبر الصناعة العمود الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمنشآت الصناعية المستحدثة مجتمعا صناعيا .

ومع هذا فبقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سببا في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية اخرى يفتقر الحال الى الاحصائيات التفصيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغيير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيرا من الجرائم المنتشرة والمعروفة حاليا لم تدرج بها . وأكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

---

(٥٢) راجع الكتاب السنوي للاحصائيات العامة لمصر الذي يصدره الجهاز المركزي للتعبئة .

صامتة فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، فى حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحـوي دراسة عنهـا وتقليلا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن فى كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائيـة ـ لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام ـ لوجدنا ان الجرائم ـ وعلى الاخص الخطيرة منها ـ تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدعو لدراسة خاصـة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا أم يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرأ على المجتمع او الى تقدم المدنية الطبيعي فى كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحقة لآثار التحول يجب أن تبدأ بالريف أولا .

والبحث فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصرى ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلـة من دول العالـم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولى الثانى لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذى عقد فى لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الراى لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادى فى حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايـرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفى مقدمـة هـذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا فى ان الارقام عن الحضر والارقام عن الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضرى وما هو ريفي فى ذاته ليس شيئا محددا ، بل حتى ولو كانت الارقـام مما يمكـن الاعتماد عليه فانها لا تفصـح عن المضـمون الاجتماعى وراء هذه الارقام ، وهـو مضـمون شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيـق لهـذه الارقام ، أو امكان اتخاذها أساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي أقرها المؤتمر ما يأتى (٥٣) :

١ ـ ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادى ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقـد يؤديان فى ظروف مناسبة الى نقص الجريمـة . وتعبير الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادى فحسب .

---

(٥٣) احمد خليفة ص ٣٦ .

٢ ــ الاجرام الذى قد ينشأ عن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التي لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ ــ قد ظن خطأ ان الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقترن عادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من اسباب الاجرام ، والواقع ان الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل ان عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شانه ان يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق ايضا بالنسبة الى ظاهرتي التحضر والتصنيع .

٤ ــ ويلاحظ انه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو أمر وان كان من الممكن تبريره الا ان الحكمة تقتضي ايضا ان يوضع موضع النظر والاعتبار اثر التغير الاجتماعي فى المناطق الريفية ذاتها ، اذ ان ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التي تعلن عن نفسها فيما بعد فى المجتمع الحضرى .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة التحضر والجريمة فى مصر(٥٤) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لما توافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التبويب والتصنيف للبيانات المختلفة فى المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهي من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة أن جرائم الجنايات والجنح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنايات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشي فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . أما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنح تزيد الجنح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشي واتلاف المزروعات . اما الجنح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرد ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

---

(٥٤) بحث التحضر والجريمة في مصر ــ ص ١ ومابعدها .

وفى محاولة معرفة اتجاه الجريمة فى المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ الى ١٩٥٧ اتضح الآتي :

١ ــ ان جرائم الجنايات بصفة عامة أخذت فى الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات فى المناطق غير الحضرية أكبر من نسبة انخفاضها فى المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ ــ بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة فى الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذى زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي الى ارتفاع تدريجي .

٣ ــ كانت جرائم الجنايات بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، بينما تميل الى الانخفاض بشدة فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية .

٤ ــ جرائم الجنح بصفة عامة أخذت فى الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وايضا تبين أن الجنح بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية .

والذى يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن الجرائم التي يمكن ان يطلق عليها الجرائم الانتقامية ــ لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الاشخاص ــ تغلب دائما فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . وان جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تغلب فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ أيضا ان مختلف أنواع الجرائم ــ الجنايات والجنح ــ تتجه دائما نحو الارتفاع . هذا وانه وان كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ الا انها لا تكشف عن أثر التحول الذى حدث فى المجتمع على سير الاجرام ، لانها اعتمدت على احصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جداولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة اخرى عن ظاهرة الجريمة فى أسوان (٥٥) وذلك فى المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ . وقد جاء فى مقدمة هذه الدراسة أن مجتمع أسوان كان ــ الى حين تنفيذ مشروع السد العالى ــ مجتمعا محتفظا بأصالته الريفية وبالعلاقات الاجتماعية التى تنمو فى كل مجتمع زراعى ، وقد ترتب على تنفيذ مشروع السد العالى ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع انحاء الجمهورية بمنطقة السد

---

(٥٥) سيد عويس وشهيرة الباز ، ص ١٧٩ وما بعدها.

العالى ، وقيام بعض الصناعات التى يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون اساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم واخلاقيات وعادات اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والاخلاقيات والعادات الاجتماعية التى تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وانه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع أسوان قد تحول بعد بدء العمل فى مشروع السد العالى الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التى يتسم بها هذا النوع من المجتمعات ، ومن الظواهر التى تأثرت تأثيرا كبيرا بالتغيير الجذرى الذى حدث فى تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالى جرائم الجنايات التى وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣
١٩٦٠	١٠	١	—	٣	٢٥	٣٩
١٩٦١	٥	٢	—	—	٢٧	٣٤
١٩٦٢	٥	١٠	—	١	٢٠	٢٧
١٩٦٣	٤	٢	—	١	٣٩	٤٦
١٩٦٤	١٤	٣	١	—	١٥	٦٩

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالى كما يأتى : ٩ر٣١ ٪ ، ٢ر٢٧ ٪ ٥ر٢٥ ٪ ، ٣ر٣٢ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن اضافة الجدول التالى عن جرائم الجنايات :

الجريمة / السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	—	١٧
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢
١٩٧١	١١	١١	١	١
١٩٧٤	٧	٤	—	١

فهل يمكن أن نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات اثر تحول المجتمع فى أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، فى رأينا انه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالقياس الى عدد السكان فى محافظة اسوان الذى تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدى الى الانخفاض فى نسبة الاجرام لا فى زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثانى حيث تكاد تكون جنايات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة عن تحول المجتمع فى سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الأمر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعى عليها ؟ والأمر لا يختلف بالنسبة الى الجنح حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الأمر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتغير الحضارى وله اثر بالغ فى سلوك الفرد على اية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية ، هو اثر اجهزة الثقافة والترفيه فى الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذى يعيش فيه الفرد ويتأثر به (٥٦). فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا فى الحياة الثقافية لافراد الشعب ، فاذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكى ، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يثير الغرائز الكامنة فى الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامى . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام فى نشر الجريمة او مكافحتها ، حيث يسعى بعضها الى مجرد الكسب المادى دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين فى صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامى .

ونستطيع القول بأن الآثار الخطيرة التى ظهرت لوسائل الاعلام فى بعض البلاد الاجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التى ينشر بها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التى اعترف فيها المتهمون بأنهم رسموا طريقهم فى ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه فى بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التى اجريت قديما وحديثا بيان تأثير ادوات الاعلام فى السلوك الاجرامى لا سيما بالنسبة الى الأحداث .

خاتمة :

رأينا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدى الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورة فهي فى ذات الوقت شر ، يقتضي مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الأمر تحديد الجريمة التى نستحث الباحث على الاهتمام بها

(٥٦) ستيفاني وآخرون ، بند ١٠١

ومتابعتها وتقصي عواملها وتتبع آثارها ، ثم لزم تبعا لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن اى حدود لمعنى البيئة ــ اتسعت أم ضاقت ــ لابد وان يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على اية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا أن كل ما يراه العلماء عاملا من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب أو بعيد ، واقتضانا هذا ان نتناول تلك العوامل واحدا بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من أثر فى السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك فى أن كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلا وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ، ولكننا أردنا فى هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين ان يكون فى اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .

* * *

المراجـع

أولا ـ اللغة العربية :

١ ـ احمد ابو زيد — الثأر ، دراسة انثروبولوجية باحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ـ القاهرة ١٩٦٥ .
المجـلة الجنائية القـومية ، نوفمبر ١٩٦٣ .

٢ ـ احمد على المجـدوب — دراسة لظاهرة الجريمة فى قرية طهواى ـ المجلة الجنائية القومية ـ يولية ١٩٧٣ .

٣ ـ احمد محمـد خليـفة — الوقاية من الجريمة الناشئة عن التغير الاجتماعى المصاحب للتنمية الاقتصادية فى البلاد الاقل نموا ـ المجلة الجنائية القومية . مارس ١٩٦١ .

٤ ـ حسن المرصـفاوى — الاجرام والعقاب في مصر ـ الاسكندرية ـ ١٩٧٢ .

٥ ـ حسن المرصفاوى ومحمود السباعى ـ مبادىء علم الاجرام ، مترجم (سنرلاندو كريسي) القاهرة ١٩٦٩ .

٦ ـ زكريا طـه — جريمة الخطف فى جمهورية مصر العربية ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٤ .

٧ ـ سـمير الجـزورى — النزيلات المحكوم عليهن بسجون الاقليم المصرى ـ المجلة الجنائية القومية نوفمبر ١٩٥٩ .

٨ ـ سـيد عويس — حجم مشكلة جناح الأحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة ـ المجلة الجنائية القومية ـ يولية ١٩٦٥ .

٩ ـ سيد عويس ، شهيرة الباز — ظاهرة الجريمة فى محافظة أسوان ـ المجلة الجنائية القومية ـ يوليو ١٩٦٦ .

١٠ ـ عبد العزيز محمد القطنى — سمات الجريمة فى محافظة البحيرة والتخطيط لمكافحتها ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٤ .

١١ ـ محمـــد البـــابلى — الاجرام في مصر ـ أسبابه وطرق علاجه ـ القاهرة ١٩٤١

١٢ ـ محمد خـيرى محمـد على — الريف والحضر وظاهرة الجريمة ـ القاهرة ١٩٦٥ .

١٣ ـ محمود عبد الرزاق عبد العال — نوعية الجريمة فى بحيرة المنزلة ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٥ .

١٤ ـ منصور غيث قنـديل — الامن العام فى الجمهورية الليبية ـ معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة ـ القاهرة ١٩٧٥ .

١٥ ـ الأمم المتحـــدة — دراسة مقارنة عن اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .

١٦ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائيـة — دراسة التحضر والجريمة فى الاقليم المصرى ـ المجلة الجنائية القومية ـ مارس ١٩٥٩ .

١٧ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنـائية — السرقة عند الاحداث ـ من منشورات المركز القومى للبحـوث الاجتماعيـة والجنائية .

١٨ ـ المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية — العوامل الاجتماعية فى تشرد الاحداث ، المجلة الجنائية القومية ـ نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانيا ــ اللغة الاجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminolilé astuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Strecture, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et sience penitentiaire 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairtz & Norman Johston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

* * *

محمد عبد الرحمن الشرنوبي *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال احد ان جنسا واحدا من أجناس الكائنات الحية العديدة التى تحيا حياة الارض ؛ يمكن أن يعمل بجد ـ سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد ـ على دمار هذا الكوكب او تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت فى صورة هذا الانسان الجوال المطارد ، الذى يطوف اجزاء الارض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الارض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التي ضوعفت فتضاعفت المخاطر التي تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجرى القديم . وكانت فى هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبي ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت .

المجتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الادوات التي استخدمها الانسان آنذاك فى تكوين اسرة مدربة تدريبا راقيا على مطاردة الحيوانات والايقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الانسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أى نوع من أنواع الكائنات الاخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماما مع مسيرة التاريخ الانسانى الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الانسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير فى حد ذاته من أهم الاحداث التي عاصرت خروج الانسان من اسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادىء مع عناصرها . فليس هناك اى كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الانسان يتحكم فى هذه الظاهرة الخطيرة ــ النار ــ ازداد استخدامه لها، فأحدث بذلك الكثير جدا من التأثيرات الايكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الانسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان فى كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيا للمبادىء الايكولوجية ، كما نجح فى استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح فى استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، الا ان اثبات ذلك يعتبر امرا عسيرا ، وان كان من الثابت ان ذلك الانسان لم يكن يميز ــ كما يفعل انسان العصر ــ بين ذاته كانسان ، وبين العالم الطبيعى المحيط به .

لقد أطلق علماء الانثربولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجرى الحديث Neolithic Revolution ، رغم ان اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماما مع التغييرات التى حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت فى أزمنة متباينة ، وفى تلاحق مستمر ، وفى اجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الانسان آنذاك ــ رغم اعداده البسيطة ــ ان يتدخل فى بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الانسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير ادوات صيده وأسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفا فى ذلك الى حد كبير . (٢) فكان يقود قطعان الحيوانات الى الشراك المختلفة والى الجروف ليسهل القضاء عليها فى جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقلة اعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الانسان فى البيئة تأثيرا محليا ومؤقتا . فالارض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتى ، وكان الانسان يعود اليها ليمارس نشاطه من جديد وكأنها ارض جديدة حل بها .

---

(١) Marston Bates : „ The Human Ecosystem ", Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « جغرافية السكان » القاهرة ــ مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ص . ٥٥ ــ ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجرى الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجرى الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجرى الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع فى غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجرى الحديث فى البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات ، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات ، مما تسبب فى ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان اعداد الحقول وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنتجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية فى قرى اكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع فؤوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطمى لصناعة الاوانى ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنتقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذى استلزم تمهيد بعض الطرق لتيسير الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقى لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرتنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شىء ينبغى اخضاعه لكافة متطلباتنا فى الوقت الحالى ، وليس شيئا ينبغي ان نتعايش معه فى وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذى يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التى سبق ان تعايش معها وفى ظلها ، بل قدسها وعبدها احيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلاسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتمادى فى استغلال الارض والغابات ومصائد الاسماك فى البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظما غريبة للحياة ، فى الوقت الذى استأصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني **جوردن تشيلد** Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجرى الحديث انحصر فى حدود ثورتين : الأولى هى الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل فى الامكان ظهور المدن والتخصص فى العمل

---

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي كون Carlton S. Coon **ان حضارة العصر الحجري الحديث اكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وان التباعد عنها ربما يكون من اصعب المشاكل فى العالم . (راجع :** Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثـورة الصناعيـة Industrial Revolution ، والتي قامت على اساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وان كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسماهـا بالثـورة العلميـة Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التى جاءت عن اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التى اتاحت للانسان زيادة درامية مخزنة فى الطاقـة خلال هذا القرن بما فى ذلك الطاقة النووية الرهيبة ، وتطور الأجهزة الالكترونية . وتعتبر هذه الثورة الاخيرة بالذات ، سببا رئيسيا فى تلك التغيرات الايكولوجية على نطاق عالمى اكثر من اى تغيرات اخرى .

• • •

ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي تزخـر بهـا بيئة هـذا الكوكب فى حياة ذات نظم وقوانين محكمة أيما احكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « أغلفة » الكرة الارضية الاخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثـل وحـدة واحـدة مترابطة اثبتت الثورة العلميـة المعاصرة ان لـه تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (٤)

واهمية هذا الغلاف تتمثل فى ان الانسان ، وهو احد عناصره الرئيسية ، قد اصبح يدرك جيدا الآن ان هناك نوعا من « التكافل » الفريزى بين مجتمعاته . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذى لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم انه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الانواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التى تكوّن الغلاف الحيـوى توضح وحـدة حقيقية بالفعل . فالحياة فى كل موقع منظمـة وقائمة على مبادىء اساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الاحياء جميعا ــ من نباتات وحيوانات وكائنات اخرى ــ والتي تعيش فى منطقة ما ، وتكوّن مجتمعا بيولوجيا مميزا ، تترابط فيما بينها فى شبكة من العلاقات المعقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديـه لافراد المجموعـات الاخـرى . ويميز علمـاء الايكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

---

(٤) اغلفة الارض تبدأ حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، وامكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه اطلق عليها تروبوسفير Troposphere وستراتوسفير Stratosphere وايونوسفير Inosphere ونلاحظ ان الغلاف الحيوي Biosphere قد سقط من هـذه التقسيمات فى شتى الدراسات رغم اهميته وارتباطه بالاغلفة الاخرى .

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحللات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها فى تحلل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « معالعناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجى Ecosystem .ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يعرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتتمثل هذهالعلاقات الوظيفية فى سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك فى الطرق اوالمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة فى ذلك النظام البيئي او ذاك .

ولا شك ان الالمام بظروف هذه العلاقاتوالوظائف أمر حيوى للغاية لفهم الآثار التى يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضرورى من اجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . واذا كان الاقدمون قد تصرفوا بوعى بيئي عن غير قصد ، فليس اقل من أن نتصرف بنفس المنطق، ولكن عن قصد . وحتى يعود التوازن الى حالته ينبغي الا نظل على اسرافنا فى اتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية :استثمارا أو استغلالا أو ثراء أو رفاها . ان كل ما يلصق بزيادة السكان او بالثورة التكنولوجيةكعوامل ساهمت فى تلف البيئة لا بد أن يوضع تحت المجهر ، ولا شك ان الادراك الواعى للانسانية ، والذى لن يتحقق فى عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل الى اعادة الصداقةاللازمةلبقاء الانسان معالطرف الآخر ... البيئة.

• • •

انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالى ٦ر٣بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . الا ان هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف علىحافة عصر انقراض كامل ، نتيجة لتدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلالالبليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الالتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهةبقارات باكملها) قد هددت او عرضت الحياة على سطح الارض للفناء ، مثلما تفعل الآن ظاهرةالانفجار السكانى الذى نشهده منذ فترة .

وقد يمكن أن نميز بين نمو سكان مجموعةمن الدول ونمو سكان مجموعة أخرى ، لكن الحقيقة تقول بعالم واحد . فليست المشكلة فيتزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتتعرض لمشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة اخرى بمعدلاتاقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ،نستطيع على أساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . الا انهمن المعتقد ان جملة عدد السكان فى زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت أعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة فى عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة فى عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت أعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون فى عام ١٩٣٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة اعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٣٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثانى خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان فى عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط .(٥) ويعنى هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالى ٢٠ نسمة لكل الف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل الف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو راس المال عند حساب فوائده بطريقة الربح المركب ، اى كما يربح المال من ذاته ربحا معينا ، ثم يربح هذا الربح ربحا آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاما وليس ٥٠ عاما . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم فى فترة أقصر(٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** أول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان فى عام (١٧٩٨) أى فى الوقت الذى كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا أيكولوجيا سليما. فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة اعدادهم كل ربع قرن ، فى الوقت الذى لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا فى هذه الزيادة، فان اعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه Dismal Thorem هى بؤس الانسان .(٧)

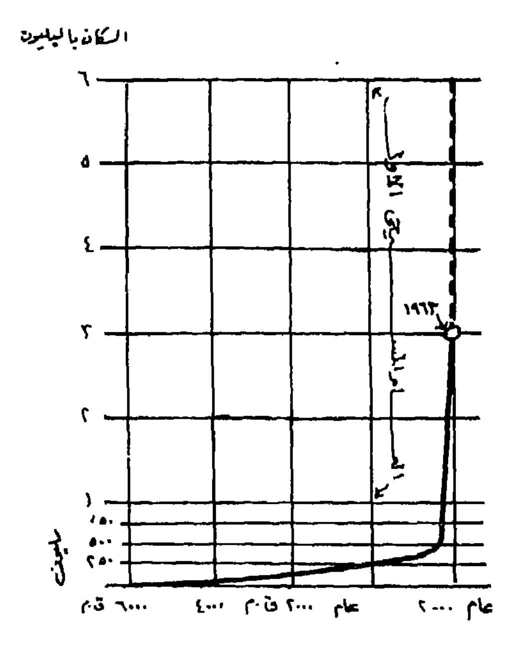
ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها اكثر من مرة ، ففى ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد توقفت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت فى مجاعة كبيرة عام

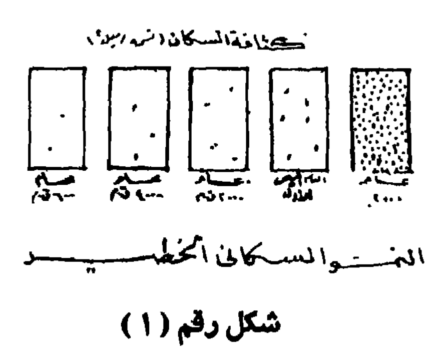
---

(٥) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية ـ العدد الاول ـ ١٩٧٦ ـ الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H., : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.





النمو السكاني الخطير

شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدريجية فى اعـداد السكان منذ الاف السنين حتى حدوث الانفجار السكانى الهائل فى الوقت الحاضر والمنتظر عام ٢٠٠٠ لو ظلت الزيادة الطبيعية الحالية على ماهى عليه . ففى خلال القرن الماضي تضاعف عـدد السكان فى العالم ، وفى مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة اخرى حتى وصل الى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو الخطير اصبحت كثافة السكان العامة فى العالم ١٢٥ نسمة فى الميل المربع مقابل ٦ نسمة فى العام المسيحى الأول . والحالة تبعا لذلك لاتبشر بالخير ، فالاراضي التى يمكن زراعتها على سطح الكرة الارضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما ان معظم اراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج قارة آسيا التى يتركز فيها نصف سكان العالم .

١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة فى الهند فى الآونة الاخيرة ، الى عجز البيئة عن مسايرة النمو السكانى هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعا أو بسبب سوء التغذية فى العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرى واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال اكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع .(٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بأن المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هى التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها فى الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الذهول الشعب الامريكى الذى يقود ويوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء فى الولايات المتحدة ، فقد اثبت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينامون جوعى كل ليلة فى قلب الولايات المتحدة الامريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا أحد يدرى تماما الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه « سعة حمل » Carrying Capacity كوكبنا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان فى المستقبل سوف يزيد عن التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الايكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الاخرى . فهى فى غير الانسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم عن غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض وافتراس . ولكن الانسان يبذل جهدا جهيدا من أجل منع تلك الضوابط الايكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الانسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الامراض حتى لا تتعرض اعداد السكان الى تقلبات عنيفة كتلك التى حدثت فى العصور الوسطى ، عندما ادى مرض الموت الاسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تغلب الانسان منذ زمن طويل على افتراس الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم فى اعداد البشرية . والانسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب أو على الاقل الحد منها . كما يعتمد الانسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامداد أعداده المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم فى الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء فى البحيرات الصناعية ، وازالة املاح البحر ، لها حدود . وهى على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة . . ومجرد أمل نقتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم فى اعداد البشرية .

---

(٨) Peter Farb, : Man Versus Nature in " Eco-Crisis ", London, 1970, P. 19.



صورة رقم (٢)

بلغ عدد الموتى جوعا أو بسبب سوء التغذية فى العالمعشرة آلاف نسمة يوميا ، ان اكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة عن وكالات الانباء من اقليمبيافرا خلال المجاعة التى حلت به اخيرا) .

ان سكان العالم اليوم يعيشون حالة من الفزع امام هذا التزايد الفريد ، وبديهى اننا فى ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة فى تاريخ البشرية ، اهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة(٩) . ولا شك ان رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه وتلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والآخر ايكولوجى والثالث تاريخى والرابع حضارى وغيره تاريخى ووراثى وهكذا . وليست هذه العوامل بؤرة بحثنا ، وانما اهتمامنا اساسا بالظواهر الناجمة عن هذه الزيادة والتى انعكست على ذلك التلف الذى أصاب اركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيئة ولا هى خافية .

ان نمو السكان الانفجاري الاخير قد ساهم ، مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت فى حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلميـة الحديثة ، فى التدهور العام الذى اصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك أن اساس هذا التدهور كان تدخل الانسان بلا روية فى النظم الايكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء فى الوجود تقريبا الآن . فقد لوثنا مياهنا وارضنا وهواءنا وحياة مدننا وهدوءها . فهل يبقى الانسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القذر»(١٠) الذى لوث كل شيء حوله ؟ ونجح فى استعداء الطبيعة ثقة منه فى قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي فى ذلك بغير حساب من الطرف الآخر ؟

• • •

مظاهر التلف البيئى :

فى القرن التاسع عشر عبر الشاعر الانجليزى **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن مأساة عصره آنذاك بحسه المرهف تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل فى عالمه المحيط به ، والذى غيرته يد الانسان فيقول :

Nature'spolluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

---

(٩) U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Con itions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Jseph L. Myler وهو احد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصريح من United Press International فى كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ ـ ١٣٢) انظر المرجع .

هكذا .. كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الانسان اصبح يعبث فيها فسادا ، فى كل ركن من اركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والفن فيها . انه مما لا شك فيه ان ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن ان نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له ان يعيش حياة الربع الاخير من القرن العشرين ؟ اننا نعيش الآن عصرا يحاول الانسان فيه جاهدا ان يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا ان تتوالى « الصرعات » المخيبة للآمال فى كثير من اركان العالم الغربى المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . انهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضى البدائي البسيط ، او يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة او نائية منعزلة ، ما زالت ترتبط فى توافق وثيق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش افرادها فى صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب **كالمذهب البوذى** يصون الحيوانات ولا يقدم على ايذاءها بأى صورة من الصور ، لان **« بوذا »** كان يحترم كافة اشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الاراضى المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رائعة من الارض التى تحتضن فعلا الحياة البرية بعناصرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل ان **مذهب اليانيه** Jainism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة اشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكنسة) صغيرة معه دائما لازاحة ما يصادفه من حشرات خشية ان يدهمها صدفة . ان هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا الفئران ترتفع فى المخازن واصروا على ترك المياه لها لكى تشرب منها . (١٢)

وفى هذا المقام يردد العالم الانسانى الدكتور البرت شفاتيرز Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر ان الخطأ الاكبر الذى ارتكبته كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الانسان بالانسان .

فالى اين ذهب ذلك الانسان فى تماديه وتحديه للروابط والنظم الايكولوجية التى يعيش حلقة من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى ان حالة الانسان الراهنة فى العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

---

(١١) « اليانية » مذهب هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، وتعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالمعرفة والايمان وحسن السلوك .

(١٢) Peter Farb, : op. cit. P. 15.

عشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماءالمتخصصون وخبراء الشئون الانسانية ، ومن هذه العناوين على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival

The Rap of the Earth

Our Plundered Planet

The Geography of Hunger

The Limits of the Earth

The Prevalence of People

Man Versus Nature

The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة فى البيئةالطبيعية ذاتها ــ كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغييرات التىتحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان فى حالات كثيرة مزق فرص التجديدهذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا فى هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلاتطفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى منالرقى سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدأ فى تغيير البيئة تغييرا فيزيائيا . فقد جاهدضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى الذروة .

وبزراعته للمحاصيل وتربيته للحيواناتجعل هناك انواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها فى بقائه . فالقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاءنفسه ، والبقرة التى تهجر السهول تقع فريسة فى وقت قصير للحيوانات المفترسة خارجالسهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صغاره الىمصنع متحرك للالبان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدمافى عصره الصناعى ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام ايكولوجي جديد تماما ليحل محلالنظام الطبيعي ، ولقد ارتكبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسععشر خطأ فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة فى ذلك الحين ،وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل فى نهب موارد الثروة الطبيعية فىالعالم . ولقد ترتب عليها تغييرات خطيرة فى مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلقالانسان صحارى جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة فى جنوب شرق تينسى Tennessee بسببمناجم النحاس ، وصحراء سدبرى Sudbury فى انتاريو بسبب دخان النيكل . وفىسعيهلتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدث السدود التى تقام عبر الانهار ، ففسرت نظامالصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية رأسا على عقب ، بالاضافة الى العديدمن مظاهر الخلل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثةالمواد الرخيصة حقا ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعى حديث ، ولكنها ساعدت علىتراكم عبء ضخم لاستنفاذ موارد الثروة التى كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحنالآن « نسرق » حق الاجيال القادمة ليس فقط فى الاخشاب والفحم ، بل ايضا فى ضرورياتهمالاساسية فى الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم فى حاجة ماسة لحركة « صيانة »تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .

• • •

ماذا عن المياه :

لم تنشا الحضارات وتنمو وتعطى بسخاءالا مع وفرة المياه ، وما توارث عبر سطور التاريخ الا بتاثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ،قلت او كثرت . وكم من حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه فى كل اجزاءالعالم : غرب امريكا الشمالية فى القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق أنهار الصين والهندوالنيل والاردن ، مياه الينابيع فى آلاف الواحات المبعثرةعلىبحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيدا عنها . وحديثا اصبح مستوى المعيشةيقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيدا وهناك ستكلمات قرآنية كريمة تحدد بايجاز واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حيٍّ » . فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو اكثر اهمية من الاكسوجين الذييطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدرالاول للاكسوجين فى الهواء الذي نحيا به ونتنفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الارضانما نشأت اصلا فى البحار القديمة أو الاولية Primitive Seas قبل ان يكون هناكاي اثر للاكسوجين فى الفلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زالدم الكائنات الحية بما فيها الانسان ـ عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ،كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للارض والاكسوجين في الهواء. ويأتي ٧٠٪من الاكسوجين كما يقول كول Dr. Lamon Cole من النباتات الدقيقة الخضراء فى البحار التيتستهلك ـ شأنها فى ذلك شأن نباتات الارض ـ غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقةالشمسية ، وتقذف بالاكسوجين كناتج أشبه ما يكون بنفاية له . (١٣)

تتوفر للكرة الارضية كمية هائلة من المياهتقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٣١٧ مليون ميل مكعب تستقر فى احواض البحاروالمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

---

(١٣) Joseph L. Myler op. cit., P. 119.

الارضية ، أما الباقي فيتمثل في المياه المجمدةبصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تقطير مياه البحار ، فيعمل ذلك الاتون المتقد المسلط عليها على تبخير ٨٠ الف ميل مكعب تصبح مياهها عذبة كل عام ، بالاضافةالى ١٥ الف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الارض بعيدا عن البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ ألف ميل مكعب تتحرك منذ الازل في حركة سرمدية رائعة بين السماء والارض فيما يعرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، واذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يدب باقدامه على سطح الارض عامة او يضرب بجذوره في تربتها ، الا انه لكائنات اخرى حيوي وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للبشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . . فماذا اعد لها الانسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه انهار الارض وبحيراتها . لا شك ان الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالانسان يضخ من النفايات والملوثات الى مصادر المياه الطبيعية ما لايتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما احدثه الانسان لاتلاف وتلويث هذه المصادر تتعدد صوره ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات ، والاحماض والسموم الناتجة عن الصناعة ، والاملاح المتخلفة عن المناجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع ، والمنظفات ومبيدات الاعشاب والمبيدات الحشرية ، بالاضافة الى الملوثات الاشعاعية من المناجم والمصانع الذرية ومولدات الطاقة . ان كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة ان الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الاحصاءات ، وانما تستعمل كصندوق قمامة للتخلص من النفايات ، حتى اصبحت انهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد أشار دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg **رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية ، ان نظم الانهار الاثنى والعشرين في الولايات المتحدة الامريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (اى ستموت) في نهاية هذا القرن اذا استمر التلوث على معدلاته الحالية** . اذ يتسبب التلف الذي تتعرض له هذه المجاري المائية بتاثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقى بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاذ الاكسوجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد . .

---

(١٤) لدراسة الموضوع بتفصيل اكبر يرجع الى :

محمد عبد الرحمن الشرنوبي : « الانسان والبيئة » القاهرة ، مكتبة الانجلو ١٩٧٦ ، ص ص ٣٢٩ ـ ٩٣٣ .

وليس غريبا ان نتحدث عن تلوث المحيطات. فهذا حادث بالفعل : فلقد وجدت مادة الـD.D.T بتركزات مختلفة فى الكائنات البحرية فى كل مكان. ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من مواردالاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربارة فى كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « تورى كانيون » ببعض الشعاب المرجانية قرب الشواطىء الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقدتسببت هذه الحادثة فى تدفق ١٢٠ ألف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطىء الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز انفاق ٥ر٢ مليون جنيه استرليني انفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها أحدثت تلوثا خطيرا للمياه أسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل فى قاع المحيط محدثة خللا بيولوجيا محققا لكونها سموما خانقة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندينافيا نصيبا من تلوث المياه ، وبدات أسراب الاسماك تموت فى انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد الباراثيون فى الدانمرك الاسماك على شواطىء البحر ، والقت بجثثها على الشاطىء على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق المانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه فى سخرية مريرة عبارتهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما فى اليابان فقد ظهرت أعراض ارتخاء فى عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف فى المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بغيبوبة ووفاة ، ذلك فى خليج « ميناماتا » بتأثير القاء أحد مصانع الزئبق بمخلفاته فى ذلك الخليج : مرض ميناماتا !! . وفى السويد حرم صيد الاسماك فى أربعين نهرا وبحيرة لتركز مركبات الزئبق فيها . . كما يمكن ملاحظة ان الالتهابات الكبدية المعدية قد اخذت تتفشى بدرجة مزعجة حقا فى كثير من الدول الاوروبية والامريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض المعدي الى انابيب مياه الشرب . اما فى الوادي الاوسط بكاليفورنيا ، فان الاطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب المغلي فقط .
ولقد اضطرت مدينة الجن Elgin بمنيسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتراكم بتركز شديد فى المحصولات الزراعية ، والنترات فى حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا فى الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نتريت (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملونة (الحاملة للاوكسجين) لخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الاصابة بمرض الميثيموجلوبينيميا ، واهم اعرض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

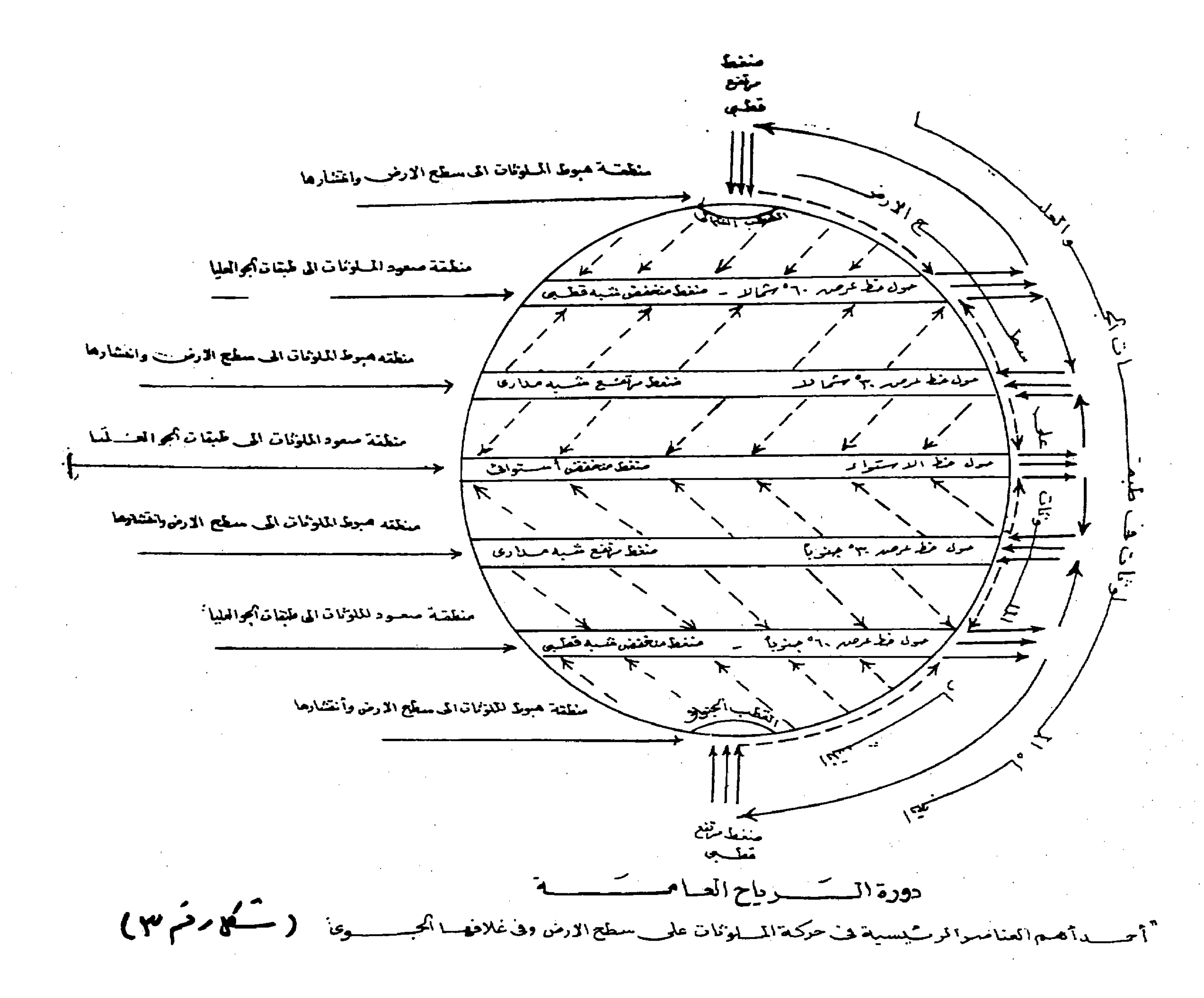
• • •

وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الغلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكرنا في كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن في تلك الوقفة لا بد ان نؤمن بأن تلوث الهواء في المناطق الصناعية ليس قصرا عليها ، فالعالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كررنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا هنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض في حركة سطحية نحسها ونلمسها ممثلة في الرياح السطحية . كما تغذي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن في نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذاك في دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظاهرات المحلية كسلاسل المرتفعات والمسطحات المائية الكبرى ، بالاضافة الى التغييرات الموسمية لموقع الشمس في حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أو حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان ثمة مناطق نقية حقا . ويعتبر تلوث الهواء من أقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ويلمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا او يهيج رئاتنا ، ويشعر سكان المدن ــ والمدن الصناعية بصفة خاصة ــ بوطأة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سريعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والامثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تحيق بسكان المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء سدني الكئيب المظلم بتأثير سحب الدخان المتحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ في نيويورك و ٤٠٪ في شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من اول اكسيد الكربون نفثتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة في الولايات المتحدة ، غير ملايين اخرى من اكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع أثيل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ عنه من كوارث أودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تتكرر في وادي الميز ببلجيكا وبوزاريكا في المكسيك ، آلاف التقارير المعلنة الرسمية وغير الرسمية مع آلاف اخرى سرية مرفوعة الى المستويات العليا في الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات في الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الاساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل في العطاء السلبي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظلل خطوات النهضة الصناعية .

أن تلوث الهواء بأول اكسيد الكربون ــ وهو امر قائم ما بقيت السيارة والطائرة واية آلة في اي مصنع و مزرعة ــ يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين



دورة الرياح العامة

(شكل رقم ٣) "أحد أهم العناصر الرئيسية في حركة الملوثات على سطح الارض وفي غلافها الجوي"

الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين أقوى من اتحاد الاكسوجين . ويسبب أول اكسيد الكربون اختناقا وتسمما لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للاكسوجين لحفظ ما يعرف بالايض (Metabolism) ـ أو مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما في الخلايا . وعندما يقل امداد الخلايا بالاكسوجين فان القلب يرفع معدل خفقاته وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذاك يتسببان في توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز أول اكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الاكسوجين تقل سرعته بنسبة ١٥ ٪ ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءا من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم الشوارع بوسائط النقل المختلفة في اوقات الذروة ، فان محتوى الهواء من أول أكسيد الكربون يبلغ ٤٠ جزءا في المليون . لذلك كثيرا مايصاب سكان المناطق المزدحمة بالمرور باعراض التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، ونقص في تناسق العضلات ، والغثيان ، وكثير من الآلام الباطنية ، وفي الاحوال الاكثر حدة قد تكون هذه الاعراض مصحوبة بفقدان للوعي ، ووفاة أحيانا .

وهناك غازات اخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني اكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولا عن زيادة معدلات الاصابة بامراض الربو المزمن والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، اما تلوث الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من أهم مضاعفاته الاصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى الوفاة . كما أن هناك غازات أخرى مثل ثاني اكسيد الكبريت واكاسيد النيتروجين وغيرها كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الامريكية على سبيل المثال ان انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الامريكية سوف يرتفع من ٢٠ مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترتفع بالنسبة لاكاسيد النيتروجين من ١١ الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتأثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من عوادم الى الهواء ، والذي يقدر باربعة أضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع(١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكتشف بدقة حتى الآن ، كما ان تركز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافا جغرافيا ، ولكنه كما سبق ان قدمنا

---

(١٥) هناك ملوثات اخرى للهواء ولكن لادخل للانسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الايدروجين المتصاعد من البراكين واكاسيد النيتروجين الناتجة عن التفريغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الايدروجين الناتج عن تسرب الغاز الطبيعي من جوف الارض او بسبب البراكين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، وغاز الاوزون المتخلف ضوئيا في الهواء الجوي ، او بسبب التفريغ الكهربائي في السحب ، وتساقط الهباء المتخلف عن احتراق الشهب والنيازك نتيجة لاحتكاكها بطبقات الجو ، والاملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والعواصف والاشعاعات الشمسية على المحيطات والبحار والبحيرات الملحة ، والاتربة التي تثيرها الرياح والعواصف او تاتي بها الجبهات الجوية وتيارات الحمل الحرارية من التربة المفككة ، وحبيبات اللقاح والفطريات والبكتيريا المنتشرة في الهواء منبعثة من التربة او لتعفن الهواء والطيور الميتة والفضلات الآدمية ، واخيرا المواد ذات النشاط الاشعاعي كتلك الموجودة في بعض تربات وصخور القشرة الارضية او الناتجة عن بعض الغازات الجوية بفعل الاشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات اضرار جسيمة لان معظم الوان الحياة قد تاقلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٤)

تلقى الطائرات بمئات الاطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بغازات سامة اهمها اول اكسيد الكربون . فتساهم مع وسائط النقل الاخرى على الارض فى تلوث الهواء .

ليس قصرا على مكان ، ولكنه اكثر تركزا فى مكانعن مكان آخر . كذلك فان وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال فى كثير من المناطق غيركافيةبالمرة ، كما ان التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

وتعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباطـوثيق بعوامل أخرى تختلف منشخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للارهاقعلى سبيل المثال ، وعلى السكان فى مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السنوالاطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وغيرهامن عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فان البحث العلمي فى حد ذاته معقد للغايةفى موضوع كهذا ، لان عنصرا واحدا من عناصر التلوث قد لا يعطـي مردودا سيئا ، او يسببمشكلة فى حد ذاته لو وضـع تحت الاختبـار كعنصر مستقل ، فى حين انه لو ارتبـط بعناصرأخرى لاعطى مردودا فى غاية الخطورة ، ولهدد حياة الافراد والمنشآت فى منطقة ما . لذلك كانعزل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا انالعلم لا يزال عاجزا عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مرمزيد من الوقت .

• • •

التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمهايكتسب الانسان مزيدا من الكم الحضاري الماضي الذي ـ من المفروض ـ ان يعود عليـه وعلـىمجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي ييسر لـه الحياة بشكل او بآخر . الا انـه كلمـا تقدمتالصناعـة القت بالمزيـد مـن النواتج الثانوية ، سواء كانت فى شكل غازات او نفايات صلبة اونصف صلبة او سائله ، الى الهواء او على الارض او فى المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول الموادالخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة، وهي حينما لا تجد فى هذه النواتج الثانوية قدرامن النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقي بها الى اي مكان . ومن أهم تلك النواتج تلـكالنفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قـد عولجت قبل القائها خارج المصانع . وليس منالمعقول ان تظل هذه النفايات بجوار المصنع بـلا حراك لو قـدر لها ان تلقى قريبا منه ، فالرياحتحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هـو سام ، كما ان النفايـاتالسائلة التي يلقى بها فى الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبهـاوشرورها .

وقد تكون غازات هـذه السوائل ملوثاتهوائية ، كما قد تكون سوائل هـذه النواتـج ملوثات مائية او أرضية ، لكن النفايات الصناعيةالصلبة والتي تتنوع تنوعا كبيرا بين صناديـق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانويـةاخرى تتخلف عن المواد المصنعة ، كقشور الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعملعلى خلق مرتع خصيب للجـراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال القيم الانسانية وتقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان. ومن اهم هذه النواتج مساحيق أكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق المحيطة بالمصنع فتكسوها بغبار أحمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبرتيك بكفر الزيات ، او بغبار الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي يأتي على النبات بالدمار فيقتل خلاياه ويعطي لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمعصرة بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقي به مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبروتينية ناتجة عن عمليات التصنيع ، اومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع النسيج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلوية واملاح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلوية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالاضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيميائية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تتسبب فى كثير من المشكلات المتعلقة بالملاحة والانتقال فى هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات فى هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها فى كثير من الاغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف عن النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنطلق الى الهواء قبل ان تترسب على الارض او فى المياه . ولا تكاد تخلو أي عملية صناعية من عوادم غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للامطار او تصلها المياه من اي مصدر لفترة طويلة ــ تعمل ــ بما يتحلل عنها ويتسرب منها الى التربة ــ على تلوث المياه الجوفية . وفى دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج امر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي فى حد ذاتها نفايات صلبة ايضا (!!) .

• • •



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالنواتج الثانوية للصناعة)

هباء الاسمنت المتصاعد يقتل الحياة فى الاشجار على طريق القاهرة - حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

اخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الاعشاب :

امدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة مـن المركبات الكيميائية التى اسرفنا فى استخدامها أيما اسراف ، حتى اننا اصبحنا نعمل على تدمير ذاتنا بخطى حثيثة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المعالجة بالكلور والرصاص والزئبق والفلوريدات، وهذه تصل الينا فى مجموعها كملوثات للبيئة ، ومن هذه المـواد تلك المـادة التى اصطلح على تسميتها Decloro-dephenyl Trichlorethane ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشـاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهى اخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل الى مفعولها العالم السويسرى بول مولر فنشطت مصانعه الضخمة فى انتاج العديد مـن الانواع والمشتقات . ولقد أسرف الانسان فى استخدام هذه المنتجات منذ اواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تركزات قـد تبلغ ١٢ جزءا فى المليون فى الدهون البشرية ، واكثر من خمسة اجزاء فى المليون فى لبن الأمهات، رغم ان التركزات العادية تتراوح بين (٠٥ر٠) جـزء فى المليـون و (٢٦ر٠) جـزء فى المليون . ويحتوى لبن الامهات في كافـة الدول الآن على تركزات تختلف باختلاف استخدام هذه المادة فى المنتجات الزراعية التى تستخدمها(١٦) . كذلى تتركز فى البان الابقار لدرجة اصبح معها ما يصل الى الاطفال منها يزيد عن ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحـة العالمية .

ولا شك ان مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد أصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد انها تستخدم وتتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالاسراف منها فى ابادة حشرات الزراعة امـر مقبول الى حد ما ، ولكن ان يقوم بعض الجهلاء من اصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الأرفف جنبا الى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الامور الغريبة التى تضاعف مـن احكام الحصار حولنـا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب او تداول هذه المبيدات فقد اصبح من الصعب تقدير مدى التأثير الذى تحدثه هذه الملوثات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان اى منطقة ان يدركوا آثار ما يمكن ان تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من العسير عليهم فى كثير من الاحيان، ان يدركوا مقدار التغيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التي تحدث نفس الاثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التى أجريت على الحيوانات ادلة قاطعة على خطـورة تأثير تركزات هذه المواد فى جسم الاحياء . فقد دلت الدراسات على ان الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T تتسبب فى الاصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفى حالة وجود نسبة تركز تبلغ ١٠ اجزاء فى المليون يحدث تنشيط

---

(١٦) هناك مواد اخرى هيدروكربونية مثل الالدرين Aldrin والديلدرين Dieldrin وكلوريد البترول السداسى قد وجدت بتركزات مختلفة فى لبن الامهات .



شكل رقم (٦)

تغذية الحاصلات الزراعية الغذائية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر المبيدات الحشرية بعد العودة الى المنزل لتناول الطعام ؟

لأنزيمات معينة فى الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذى يؤخر بل ويعرقل العلاج بكثير من العقاقير، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقيرمفعولها . ويذكر **ريتشارد ويلك** RichardM.Welch احد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلميةالامريكىان مادة ال D.D.T. تسبب فى زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاجهرمونات الجنس (الايستروجين)لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة ال د.د.ت تؤثر فى هرمونات الجنس عند الفئران والطيور ،الا اننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية فى الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيراتان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثلال D.D.E. و ل D.D.D. توجد بتركزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا فى وفاة بعض المرضى .ويذكر **ستينباك** Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة ال د.د.ت« عبارة عن سم عصبى من المتعذر التخلص منه او شفاء المصاب به »(١٧) .

ان تاثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه فىالنباتات التى تقاوم آفاتها من اجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مركباته فى مكافحةالبعوض ، ولقد اثر ذلك فى اختفاء هذه الحشرة فعلا فى بحيرة كلير بكاليفورنيا الذى كان يتكاثرفيها لتلوثها بالنفايات الآدمية والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسببفى اختفاء اسراب من الطيوركانت تتغذى على أسماك هذه البحيرات بعد أن ثبت وجود تركزاتشديدة فى انسجة الطيور الميتةمن هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الامريكية بيانا اعلنت فيه ان هذه المبيداتة قدأبادت ٣٢٪ من أسماك المياه العذبة فى كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورةمن ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التى اكتسبت مناعة ضده ، حتى اننا اصبحنا فىانتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من أمورنا وبتشجيعنا . ويقول ايرلش ان الزراعةالحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الايكلوجي فوجت William Vogt فى كتابه « الطريق الى البقاء » أن ١٠٪ من النباتاتالزراعية فى الولايات المتحدة تتلف كل عام ، وأن الأمل ضعيف فى استمرارنا على معدلات ما نلقىبه من أطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضى الزراعية ، وان الفدان الواحد من الاراضى القريبةمن مستنقعات مصب لونج آيلاند بالولاياتالمتحدة والتى تم رشها بمادة ال د.د.ت منذ ربع قرن ،يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

وتتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجةخطيرة فى مقدرة الطيور على انتاج (الأيض) الخاص بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها فى اغلفة رقيقةللغاية لدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد اجريتالتجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد فى سمك قشر البيض فى الفترةمن عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهى الفترة التى

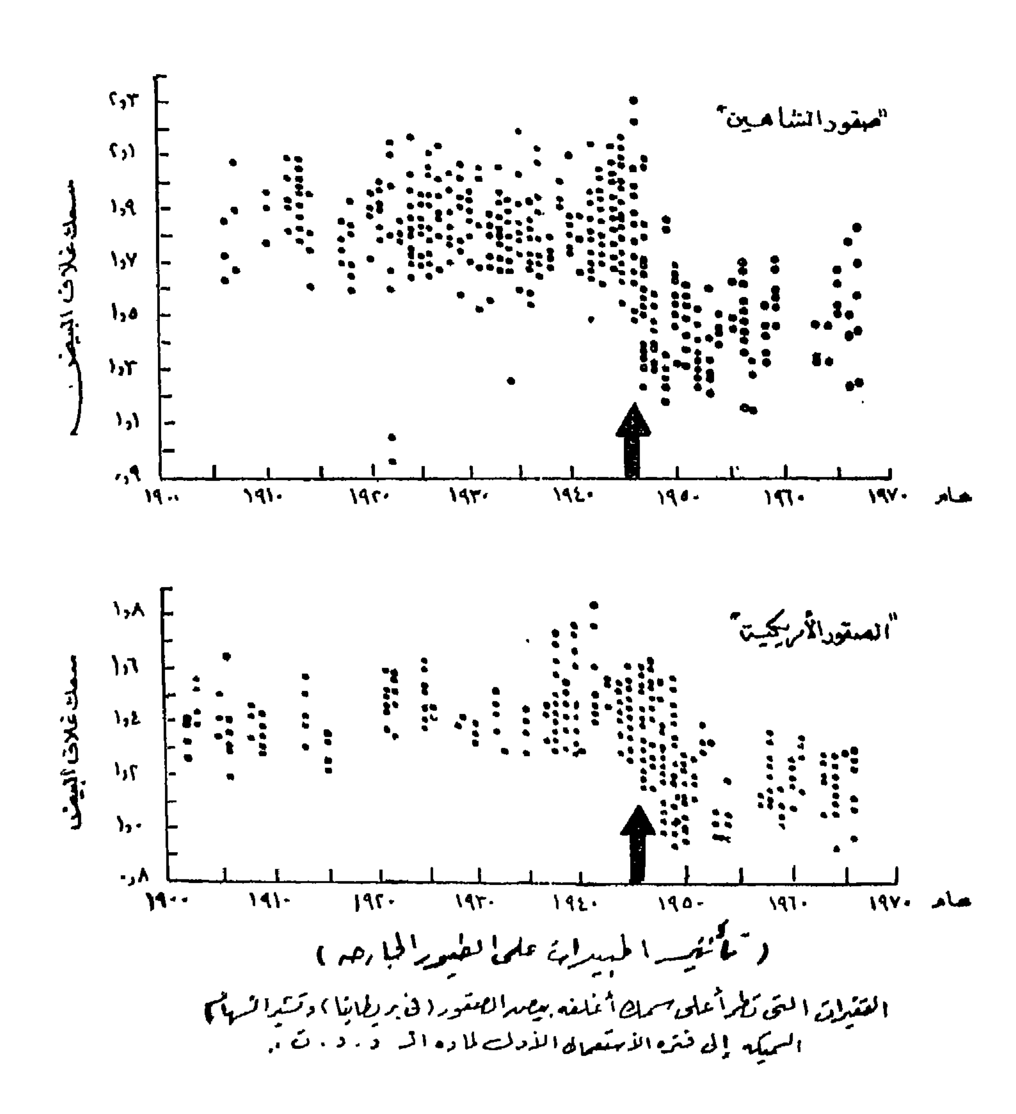
---

(١٧) Ehrlich, P.R. & A.H. op. cit. pp. 176-190.

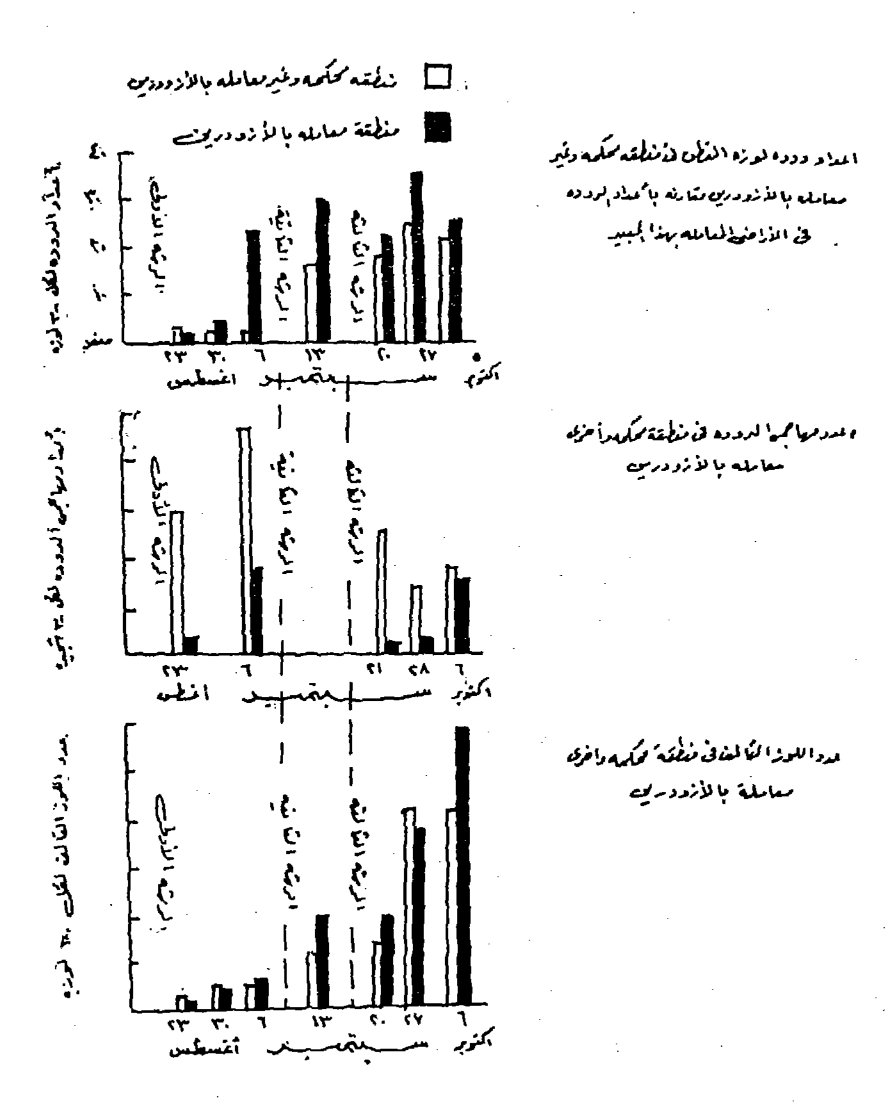
انتشر فيها استخدام مادة الـ D.D.T. كذلك فانأسماك السـّلمون فى بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوى على هذه المادة ، كما وجدت تركزاتمنها فى عينة أخذت من أسراب هذه الاسماك والتى ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صغار السـّلمون)فى عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذهالمادة . وحدثنفس الشىء لبعض الاسماك البحرية التى تصدر مثلالتونا والماكريل والقد . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم الايكولوجية واختزالها، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فالآفة او الحشرة التى تبدو فى بادىء الأمر وقدوقعت تحت تأثير هذه المبيدات او حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد اكبر بكثير منذى قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصـولالقطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين فى وادىكانيت الساحلى فى بيرو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتارعام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خـُيـّل اليهم ان مزيدا منهذا المبيد يمكن ان يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادىكله وليس مناطق القطن فقط ، كمـا قطعت الاشجار لكى يتمكنوا من رش المبيد بالطائراتفماذا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الاشجار حيث كانت تلجأ اليها ، كمااختفت انواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات،وكانوا يقومون باستخدامهذا المبيد فى فترة مبكرة عن فترة رشه فى العام الأسبق نظرا للهجوم المبكر الذى كانت تتعرض لهمحصولاتهم من الآفات، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها فى عام ١٩٥٤ عندما فشلت فى القضـاءعلى دودة ورق الطباق . وبلغ البلاء اقصاه من دودة القطن فى موسم عام ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ عندماظهرت لأول مرة ستة انواع جديدة من آفـات لم تكن معروفة من قبل فى هذا الوادى ، بالاضافةالى زيادة فى مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الانتاج تبعا لذلك فى الموسم المشـار اليه الى ٣٣٢كيلو جراما للهكتار رغم الكميات الهائلـة التى استخدمت من المبيدات ، وبالتالى حلت كارثةبالوادى في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكـرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيـدةلدودة لوزة القطن عندما اعطت نتائج عكسيـة تماما .

وتحدث هذه المبيدات تأثيرات اخرى علىالتربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الايكولوجى المحكم الى مخاطر شديدة ، وتقضىهذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسئولة عن تحويل النيتروجين الى صورة ملائمةلتناول النبات له ، وهى مسئولة عن انتاج اشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيويـة ولازمـةللنبات . ولا شك ان الاخلال بمثل هذه النظـم يؤكد الخلل او التلف الذى تتعـرض لـه بعضالدورات اللازمـة لبقاء الحيـاة عامـة كـدورة النيتروجين والفوسفور والكربون فى الطبيعة ..انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره .. اى خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات ...(انظر الشكل رقم ٨) .


"صقور الشاهين"
سمك غلاف البيض
٢٫٣
٢٫١
١٫٩
١٫٧
١٫٥
١٫٣
١٫١
٠٫٩
عام
١٩٠٠
١٩١٠
١٩٢٠
١٩٣٠
١٩٤٠
١٩٥٠
١٩٦٠
١٩٧٠
"الصقور الأمريكية"
سمك غلاف البيض
١٫٨
١٫٦
١٫٤
١٫٢
١٫٠
٠٫٨
عام
١٩٠٠
١٩١٠
١٩٢٠
١٩٣٠
١٩٤٠
١٩٥٠
١٩٦٠
١٩٧٠
(تأثير المبيدات على الطيور الجارحة)
التغيرات التي تطرأ على سمك أغلفة بيض الصقور (في بريطانيا) وتشير السهام
السميكة إلى فترة الاستعمال الأول لمادة الـ د.د.ت.

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

ماذا حدث في محاولة القضاء على دودة لوزة القطن ؟

تدل نتائج التجارب التي اجريت لاستعمال مادةالأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن على أن لهذه المادة فاعليـة وتأثير واضح على مهاجمي هـذه الدودة أكثر مـن فاعليتها وتأثيرها على دودة لوزة القطن ذاتها ، ومن ثـم فكلما ازداد استـعمال الأزودين كمبيد حشري ازداد تلف المحصول .

اما مبيدات الأعشاب Herbicides فقدزاد استخدامها فى السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعيــة الميكانيكية والأيــدى العاملة ، وذلــكللمحافظة على جوانب الطرق والسكك الحديدية، وارتفع معــدل اســتخدامها حتى عــن معــدلاستخدام المبيدات الحشرية ، ويتلخص تأثيرها على قتل النباتات اما عن طريق التغيرات التيتحدثها فى خلال هذه النباتات فتموت وتسقط أوراقها ، او عن طريق حرمانها من مقومات اتمامحصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموتأيضا . ومن اهم هذه المبيداتمادة (2-4-D)ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الامريكية المسلحة فى فيتنام لابادة الاعشاب التيكان يلجأ اليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقهــا او هــى فىطريقها الى الموت . وينبغى ان نلاحظ ان ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمــل علــىانقراض الحشرات والطيور والزواحف والثدييات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الغطاءاتالنباتية .

● ● ●

مدننا : هل هي هادئة آمنة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الــىعالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization **ولقد قام كنجزلىديفز باجراء عدة دراسات خاصــة باتجاهــات التحضر واسقاطاته ، وتوصل الــى ان نصــفسكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضر علىما كان عليه عام ١٩٥٠ . اما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٣ فان سكان العالم كافة سيكونونسكان مدن ، بل ان حوالى نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفى عــام٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع فى ضوء هذه التوقعــات ان يصبحتعداد اكبر مدينة فى العالم ٤ر١ بليون نسمة.(١٨)**

قد تكون هذه الارقام مزعجة فى الواقــعومثيرة . لكن الاكثر ازعاجا واثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل فى ضوء ما هيعليه مدن العالم . لقد فقد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرغد فى الواقع . ولقد انتشرتفى السنوات الاخيرة عدة دراسات حول ما يعرف **بالتلوث الضوضائى** Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الاخلاقية التى انحدر بها بعض سكانهذه المدن فأضفت على المدينة ستارا كئيبا مــن الحياة ، واصبح السكان فى كثير من المدن الكبرىاليوم فى حالة قلق دائم ، مع تزايــد الجــريمة وتشويه حياة المدن بالاصوات المزعجة لوسائلالنقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذى يعم المرافق العامة فيها .

---

(١٨) الشرنوبي ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩.

اما عن الضوضاء ، فما أقبح ان يمزق سكون المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مغادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت فى الشعور بين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعا لذلك بين صوت التنفس العادى وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل اى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريبا منه عند الاطلاق .

وقد يسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقدانا مؤقتا لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء اقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملا هاما من عوامل الاصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التي أجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تأثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات بشتى أحجامها وانواعها مختلطة بأصوات الدراجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصفارات عربات الاسعاف والمطافىء ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون فى المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق أوناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما فى داخله ، فبالاضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكانس الكهربائية والخلاطات والغسالات وماكينات الحلاقة والحياكة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددها ، كما تختلف التأثيرات السيكولوجية تبعا لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصوت محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقا ومدمرا للاذن ، ولكنه فى نفس الوقت قد يعطى تأثيرا نفسيا مفمورا بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماما كما يتعمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب فى مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيرا فريدا عليهم حقيقة .

ـ اما وسائل النقل الجوية ممثلة فى الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر المنغصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الموانىء الجوية التي تستقبلها. ولقد ثبت فعلا ان الصدمة التي يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديدا مباشرا وخطيرا للأسماع . كما ثبت فعلا اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة فى مواسم الطيران الزائد .

وبالاضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيء على السكان القريبين منها ، كما ان اصوات





شكل رقم (٩)

(التلوث الضوضائى بمدن اليوم)

لاشك ان وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حـدودالمعقول فى تأثيرها الضوضائى .

موسيقى الجاز الصادرة من اجهزة الصوت المجسم تعتبر هى الاخرى ، وقد بدأت تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الانسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التى هى فن وجمال ، ننسى تأثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآنية .

ويؤكد **صامويل ردزن** أحد رواد البحث العلمى فى الاصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدى الى تضييق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الضوضاء فى الانسان اما عن طريق اصابته بالصمم، نتيجة لتلف الخلايا الشعريـة المجهرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذى قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها، واما يضعف السمع ضعفا مزمنا ..

وبالاضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الصخب والضوضاء التى تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الانسانية الموسعة التى بدأت تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتتضح هذه الصور فى العينات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى أقصاه . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وتلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة فى المدن ، انما يؤدى الى عدم تقارب الافراد والأسر ، وضعف فى العلاقات العامـة والتعارف بين الافراد ، مما يتسبب فى توترات نفسية .

وفى هذا المجال يقول العالم السيكولوجى زمباردو P. G.Zimbardo **ان الضغوط الحضارية فى المدن انما تعمل على تحويل الامريكيين الـى جماعات من القتلة وسفاكى الدماء . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التـى أجراها حول العلاقة بين مـا يعـرف بالغفلية** Anonymity **والاعتداء** Aggression **، وعـن طريق الدراسات الميدانية لمـا يعـرف بالونداله** Vandalism **وهى التخريب المتعمـد للممتلكات والمرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلقد رصد فى الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالى ٢٣٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكـر ان المخربين قد قاموا فى عام ١٩٦٧ بتدمير (٣٦٠٠٠٠) جهاز تليفون عمومى فى نيويورك فقط . بالاضافة الى تحطيم (٢٠٢٧١٢) شباك مدرسة ، واتلفوا العديد من المواقف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات فى نيويورك فقط بلغت ٢٣ اعتداء خلال ثلاثة أيام بلا سبب وامام المارة وفى وضح النهار(١٩) .**

ومن دراسات اخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية فى المدن ، ولقد أوضحت الاحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الامريكية (وهى اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقة والقتل والجنس ذات ارتباط واضـح بمناطق الكثافات العالية فى هذه المـدن . هذا بالاضافة الى ان هناك اعراضا اخرى ذات ارتباط وثيق بالازدحام السكانى فى المدن .

---

(١٩) Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. pp. 12 -136.

ففى اواخر الستينات أجريت عدة دراساتفى مانهاتن عن تأثير الازدحام على السكان ، فوجد انهناك حوالى ٥ر١٨ ٪ من السكان يعانون بدرجةاو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياءالفقيرة او المرضي فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى أو الطائفىمن اهم العوامل التى تقترن بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن أهم اعراض هـذهالاضطرابات تعود حالات الطلاق فى المدن ،واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذابالاضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشريان التاجى وارتفاعات ضغط الدم. ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشييد منازل واحياء اكثر ابداعا وجمالا وتشجيرا وان كان ذلكيستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصير .

• • •

البيئة وتهديدات التسلح النووى : (انظر الشكلرقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يجتاح القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافـة فى هذا العالـم . وتضيفالاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وعن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التـىتترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٣ آثارالا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلـك نتيجة لتلك التجارب علـى تفجيـرات القنابـلالهيدروجينية الضخمة (H-Bomb) وما اعقبها مـن ترسـب لسحابتهـا المحدبـة الضـخمةعلى سطح الارض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجةعن هذه التجارب انواعا جديـدة مـن الـذرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠)وتبددتفى الهواء والمياه ومصادر الغذاءواستقرت فى اجسامنا . وتبعا لخواص بعض هذه المـوادفقد تركزت فى اجزاء حساسة مـن اجسـامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للغبار الذرى المتساقط عن تجارب القنابلالذرية ، غير ان التلف البيولوجي الذى تسببه خطير لدرجة غير متكافئة بالمرة .

وخلال التجارب النوويـة التى اجـرتهاالولايات المتحدة الامريكية ، استنكر المتحدثون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظـر عنصرمعين من عناصر الغبار الذرى المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونتيوم ــ ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشـف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحـوثمستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذاتمدى زمنى طويل ، وهو من الناحيةالكيميائية يشبه الكالسيوم ، اى انه يتركز فى

---

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بـدء الحياة الـىنوع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عنالصخور بدرجة طفيفة تاقلم معها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

تفجير لقنبلة نووية حديثة ... سحب هائلة من الغبار الذرى سوف تجد طريقها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنة في الارحام والاطفال الصغار ، ويصل الى هذه العظام عن طريق ترسبه في الاعشاب والنباتات التي تتغذى عليها الابقار ، وبالتالي يتركز في البانها. وقد يسبب عنصر الاسترونتيوم- ٩٠ هذا مرض اللوكيميا احد انواع الامراض السرطانية ، فهو - اي هذا العنصر - يهاجم الأجنة فيسبب تشوهات خلقية للاطفال عند ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم احيانا . ولما كانت مثل هذه الاعراض تحدث نتيجة لاسباب اخرى ، فان تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الغبار الذرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، الا ان من بين التجارب العديدة التي اجرتها الولايات المتحدة الامريكية تحت الارض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الاشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما الى كندا. (شكل رقم ١١)

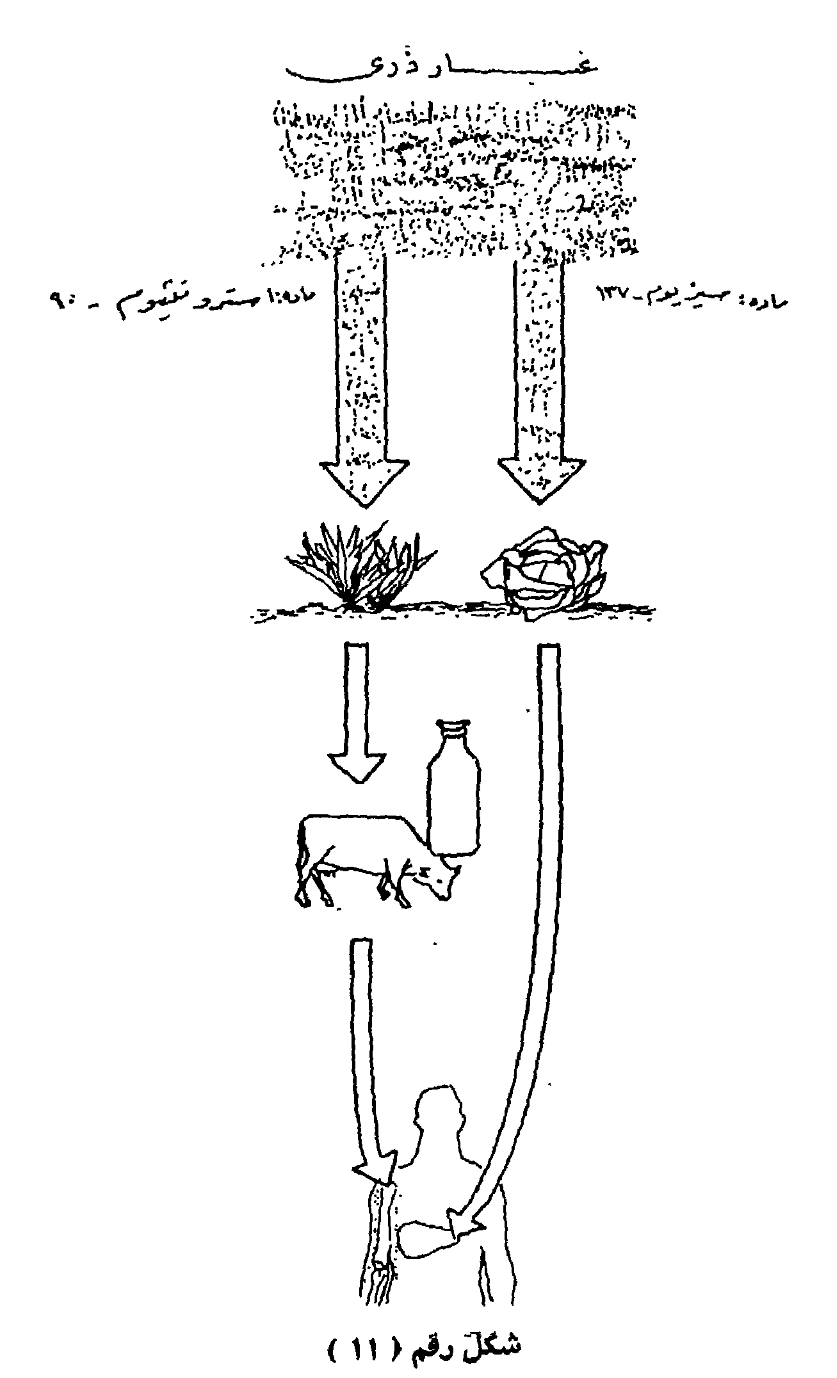
ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فان سباق التسلح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية. فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانعه انما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الارض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الامطار لها الى باطن الارض ، ومن ثم تتسرب الى مياه الانهار لتلوثها بالاشعاعات .

والاخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة عن المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والترتيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث اخطارا اشعاعية مباشرة وكثيفة ، وتكفي في نفس الوقت لخلق اخطار تستمر عشرات السنوات ان لم تكن مئات . فعنصر الاسترونيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، اي ان ١٠٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة اشعاعية ذات اخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الاشعاعي الذى ينتج عن المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المعدنية في قلب المفاعل . وبعد سنة او سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع غيره ، ويرسل الوقود المستعمل الى مصنع معالجة المواد المعادة لاستخلاص النفايات الاشعاعية منه في محلول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا - ربما الى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الاشعاعي ، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة. وينبغي عدم نفاذ هذه المواد الى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الامريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الارض ، ويتسع كل خزان منها لحوالي مليون جالون ، ولو ان ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الارض لوصلتهم جميعا ، وعرضت اجسامهم الى نقطة الخطر الاشعاعي . ومع هذا فان مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات

---

(٢١) David R. Inglis, Neuclear Pollution and Arms Race, From Crisis Survival, N.Y. 1973, . 145.



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه الغبار الذرى المتساقط ؟

ان جوهر مشكلة الغبار الذرى المتساقط لا تكمن اساساقى الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى فى الطريقة التي تصبح فيها الجزئيات الاشعاعية مركزة فى مجرى السلسلةالغذائية ، ومن هنا فان مـادة الاسترونشيوم ـ ٩٠ للنظير الاشعاعى تمتصة الماشية اثناء تغذيتها بالاعشاب الملوثة ، ثم تتجة هذه المادة الى الانسان من خلال تناوله اللبن والجبن ، ثم يتسبب فى اصابة الانسان بسرطان العظام . اما مادة السيزيوم ـ ١٣٧ الاقل ذوبانا ، فتنتقل مباشرة من الخضراوات الى الانسان حيث يتركز في الاعضاء والانسجة الدقيقة مثل الكبد والغدد التناسلية وفى هذا خطـر جسيم على كـل الورثات (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة ويقظة. بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل فى احد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ الف جالون من تلك المادة المهلكة اخذت طريقها المجهول في التربة . (٢٢)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تتسرب من العناصر الاشعاعية الخطيرة . وتحدد كذلك الجرعات الاشعاعية المسموح بها للعاملين فى المصانع الذرية وللعامة من الشعب بالولايات المتحدة الامريكية ، وهي للفئة الاخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الاولى ، وهو بذلك اقل من مستوى الخطر الاشعاعي . الا ان الدلائل تشير الى انه فى حالة استمرار العامة من الشعب الامريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الاشعاعات ، فان ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنويا بسبب السرطان . وان كان هذا العدد ضئيلا بالنسبة لسكان الولايات ، الا انها نسبة كبيرة لافراد من الجنس البشري يموتون بسبب تغيرات متعمدة فى الظروف البيئية .

اما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فان الاخطار ستظل تتهددهم ، كما ان انتاج المواد النووية مثل البلاتونيوم والترتشيوم واليورانيوم تنطوي على انتاج نفايات اشعاعية تستعمل فى انتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الانهار والبحيرات بدرجة تؤثر فى الحياة المائية . ولا شك ان التخلص من هذه النفايات الاشعاعية انما يعد من اخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع اننا لم نتحدث فى كل هذا عن اخطار الحرب النووية لو انها — لا قدر الله — قامت . ويبدو ان المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع .. أو هكذا نتوهم . فبالاضافة الى القتل الفوري للارواح البشرية ودمار الممتلكات ، فانها سوف تؤدي الى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

ان ما يمكن ان يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والصين ودول اوروبية نووية اخرى له تاثير خطير على كل اجزاء العالم . سوف تتوقف فورا مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة الى الدول الاخرى . وسوف تمتنع الاولى عن مد الدول الاخرى بالبذور ذات الانتاجية العالية والاسمدة والحبوب الغذائية . والجرارات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهيبة لكون العالم اليوم فى ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفى حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل زراعة المحاصيل فى مناطق عديدة ، كما ان اندلاع النيران الهائلة فى نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدى الى ارسال كميات هائلة من الحطام والهباء الى الغلاف الجوي الى حد يفوق التلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعا لذلك تغيرات جذرية للظروف المناخية فى سائر انحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كنطاقات الغابات الهائلة فى عروضها المختلفة

---

(٢٢) David R. Inglis, op.cit. P. 147.

شمالا وجنوبا ، ولتولدت عواصف نيران رهيبة ،تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية فى مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينماقامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طنا من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة همبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية فيعاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ الف قدم ،وبلغت درجة حرارة المناطق المغطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهيت ، وبلغت سرعة الرياح التيتولدت نتيجة للتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلا فيالساعة ، وسخن هواء الملاجىء المحفورة تحت الارض لدرجة كانت تشتعل فيها المواد القابلةللاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجىء لدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتحللتهوية مرة كل عشرة أيام عادة فى الظروف العادية .

لا شك ان حربا كهذه سوف تتسبب فياحتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الغطاء النباتي هو الاثرالوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيمة عقما جزئيا او كليا ، كما ستعمل الامطارعلى جرف الطبقة العليا منها . ولنتخيل مثلا تجرد تلال كاليفورنيا من غطائها النباتي وسقوطالامطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف منالقارات الشمالية الى المياه بعيدا عن الشاطىء . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوفتتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر فى آبار البترول الموجودة فى البحار ، لا شك سوفتنفجر وتدمر بتأثير الاحداثعلى اليابس المجاور، وسيتدفق فحواها الى مياه المحيطات وسوفيستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والموادالكيميائية الاخرى وما ستتعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٣)

اما الاحياء الذين سيبقون بعد اي حربكهذه فسوف يعيشون فى بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما سيتركزون فى نصف الكرة الجنوبيالضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعاتالبشرية الى اشتات مبعثرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثية المعقدة ، لان كلا منها سوفيمتلك جزءا ضئيلا فقط من المتغيرية الوراثية للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقداكثر لهذه المتغيرية ، ولقد اظهرت الدراساتالتي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلاتتؤثر بشكل خطير على معدل وفياتالاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقيةالتي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصرا على قتل جزءكبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقيا ومدمرا لمن سيبقى على الارض من بعدها .

---

(٢٣) الشرنوبى ، المرجع السابق ، ص ص ٤٤٦- ٤٥٠ .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت فى احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفى خلال الربع قرن الاخير استنفذنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفذ فى كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا فى أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها فى سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا فى ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث عن تلف البيئة المعاصرة او التهديد باتلافها ليس وحده هو الممكن حصره فى هذا المجال . فهناك تهديدات اخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج عن مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتتعرض له البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدهان واللحام وبعض اواني الطبخ وانابيب المياه المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرثومي والبكتيري والفلوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالاضافة الى الخلل الذي يمكن ان يحدث فى دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية فى مقال واحد او لمتخصص واحد . (٢٥)

ان اخطار الملوثات المعاصرة غير مدركة بصفة عامة حتى الان خصوصا فى الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيراتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفالنا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التحلل من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث فى القرن التاسع عشر ، الا اننا لا زلنا ننظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم فى ارشادنا عن كيفية استغلالنا للبيئة ، أم ان الزمام قد فلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسئولية لكونهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجرى فى المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعاقت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تحكمت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل فى بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

---

(٢٤) David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٥) See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

نظرة اخلاقية للمشكلة :

يبدو ان العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بايجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، فكثيراً ما تعرض العلم للهجوم والطغيان عندما يصبح جريئا فى المناقشة، نزيها فى البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادىء الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت او الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادىء . ولقد تعرض العلم فعلا للقمع والكبت فى العصور الوسطى ، كما تعرض لضلال النظريات العنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على المعامل العسكرية النووية والجرثومية .

ولقد اعتدنا فى الماضي ـ وخاصة فى نظمنا الاخلاقية المنظمة وبخاصة فى الدين ان نضرب المثل بمبادىء الحياة الاخلاقية ، وكان ذلك فى مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفى روما تحت حكم الاباطرة ، وفى الجزيرة العربية فى صدر الاسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الاديان تعمل فعلا على تغييرات ملائمة فى المجتمع . وحديثا ـ وللاسف ـ اصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادىء الاخلاقية التقليدية وحقائق الحياة العصرية بدءا من الكنيسة الكاثوليكية والمذاهب الدينية الاخرى، خاصة في الغرب الذي يمارس الاساليب التكنولوجية على أعلى مستوى ، ولقد أصبح من العسير فى هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الاخلاقية فى حدود السرقة او الايذاء بحجر ، فالموضوعات الاخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر فى الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الاخلاق اصبحت الان تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الاسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو الى حكم سليم بين مزايا احلال مولد للطاقة غير نووي ينبعث منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها الا فى الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الروتنجينات والميجاطينات ، ويفهمها جيدا من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي وبعلم البيولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الايكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وان الجريمة الاخلاقية الكبرى فى وقتنا هذا اخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها فى تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر تحتاج الى اعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤثر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي فى البناء الاقتصادي الى حد بعيد ، كما ان هذا الحل لا شك سيحتاج الى تغييرات اساسية فى تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل او علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الاجيال .

وهكذا نصبح فى حاجة لمظلة عقلية او غلاف عقلي Noösphere نتفحصه جيداً ، لانه سوف يعطينا الفرصة للوصول الى حل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف عقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف او البنوك التي تحل المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضلة ، ولا يمكن ان نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش فى مجتمع أبسط وحياة أكثر اشراقا ، بل ان طبيعة الانسان هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا فى الختام لا نستطيع ان نعبث لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم فى نظم البيئة والمجتمع، تلك النظم التي هي أساس التوازن فى تنوع الحياة من حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى جنب مع العديد من المبادىء الايكولوجية الاخرى، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس بيكون فى القرن السابع عشر عندما ذكر اننا لا نملك حق اصدار الاوامر للطبيعة، بقدر ما نملك من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢٦) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق عن المجتمع بكل أفراده ، ومن الحكومات والاجهزة التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن اعالتها فى مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمال موارد الثروة فى ضوء احتياجات المستقبل .. وهذا يعيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي ندرك الى اي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان العالم .. فهل يكون الحل فى الحد من تزايدنا ..أم فى ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجية والنظم البيئية التى تعمل فى توازن دقيق .... ؟

* * *

---

(٢٦) Peter Farb, : Op.cit. P. 23.

أهم المراجــع

أولا : مراجع عربية :

ـ جــوزويــه دى كاسترو « جغرافيــه الجــوع »ترجمة زكى الرشــيدى ، القاهرة (الالف كتاب ـ رقم ٣٦٦) بدون تاريخ .

ـ عبد المحسن صالــح (دكتور) : « المدنية الحديثــةومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .

ـ محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية فى الربع الاخير من القرن العشرين » ، مجموعة محاضرات الموسم الثقافى للجمعية الجغرافيةالكويتيةالكويت (١٩٧٥) .

ـ « جغرافية السكان » القاهرة ـ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٢) .

ـ « الانســان والبيئــة » القاهرة ـ مكتبة الانجلوالمصرية ، (١٩٧٦) .

ثانيا : مراجع اجنبية :

— Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.

— Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arams Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.

— Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.

— Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.

— Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.

— Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.

— Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.

— United Nations : " The Determinantseon Consequ nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.

— Warren S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

* * *

الـدوافـع والحوافـز بـين النظريـة والتطبيق

منصور احمد منصور *

مفهوم دوافع العمل

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقا لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل او الترغيب فيه ، باعتباره أسلوبا انسانيا يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، وبذل طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق اهداف المنظمة ١ .

ويدور موضوع دوافع العمل Motivation to Work حول دراسة طبيعة الانسان العامل Human Nature وسلوكه او تصرفاته Human Behavior . والغرض من هذا هو التعرف على حاجات الانسان ، ورغباته ،ثم محاولة اشباع هذه الحاجات او تحقيق تلك الرغبات . والهدف الامثل Ultimate Opjective الذى ترمى اليه المنظمات العاملة ،هو

---

* دكتور منصور احمد منصور استاذ مساعد بقسم ادارة الاعمال ـ كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية ـ جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث فى الادارة العامة والقوى العاملة .

١ ـ تنادى النظرية المذكورة بخمس مبادىء :

(١) مبدأ اعتبار المنظمة نظاما اجتماعيا ، (٢) مبدأ القيادة ، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية قدرات العاملين .

تحقيق اهدافها عن طريق اشباع حاجات القوى العامله ، وتحقيق رغباتها الامر الذى يدفعها الى العمل والانتاج Productivity وهذا يعنى سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالاسلوب الذى يحرك قدراتهم الفنية والعلميه والعملية ووضعها فى خدمة الاهداف .

وقد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل ، او ترغيب العامل فى العمل والاستمرار فيه بانه **الرغبة الانسانية** Willingness فى الاستجابة الى متطلبات المنظمة ، اى تحقيق رسالتها او اهدافها (٢) (The Accomplishment of Organizational Missions)

وأخذا بالمفاهيم العالية المختلفة لدوافع العمل او ترغيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسه هذه المفاهيم وتحليلها فانها جميعها تدور حول الاجابة على الاسئلة الآتية : ــ

الاول : ماهى الوسائل الفنية او العلمية التى تمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغيب الاكفاء من الناس للالتحاق بوظائف المنظمة ؟

الثانى : ماهى الحوافز ، المادية أو المعنوية التى تتمكن المنظمة من تطبيقها للابقاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم فى تحقيق الحد الامثل من الكفاية والانتاجية Productivity ?

ولاشك ان السؤال الاول يعنى الاهتمام بدراسه السياسة الادارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطا وثيقا بين هذه السياسة وبين الحوافز التي تقدمها المنظمة للعاملين لديها . اذ ان اختيار وترغيب الاكفاء من الناس ، يقتضى «اغرائهم» بما تقدمه المنظمة من مزايا أو حوافز مادية كانت أو معنوية ، في الحال وفى المستقبل ، ومن ثم فان الاجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالاجابة عن السؤال الاول ، من وجهة نظر الحوافز التى تحرك دوافع الانسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكريس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق اهداف المنظمة .

السلوك الانساني

ان دراسة السلوك الانسانى Human Behavior فى العمل ترتكز اساسا على قدرة الرجل الادارى فى فهم طبيعة الانسان وبفرض توافر هذه القدرة ، فان فهم طبيعة الانسان تتطلب ان نعطى المدير قدرا من الوقت أو الزمن . ومن ثم فان الجهود التى تبذل في اختيار الافضل من الناس مقدرة وسلوكا ، لا تكفى فى حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الانسان وتصرفاته فى الوظيفة . وهذا لا يتأتى الا بالممارسة الفعلية لواجهات ومسئوليات الوظيفة من جانب الموظف . ولهذا اخذت الدول عامة بمبدأ تعيين الموظف الجديد تعيينا « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ اشهر الى سنة) يمكن دراسة سلوك الانسان وتصرفاته فى الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة ابقاؤه أو ابعاده دون مسئولية فى تعويضه أو التزام بقبوله عاملا .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الانسانية على ان نشاط الانسان هو تعبير مادى لسلوكه ، ومن ثم فان السلوك الانسانى يعبر عنه بمجموعة من الانشطة الانسانية . وتتمثل هذه الانشطة في طريقة سير الانسان

---

٢ ــ Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, **Management and Organizational Behavior** (New York : John Wiley & Sons Inc., 1970), p . 193 — 213.

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه فى العمل، واسلوبه فى أداء الواجبات والمسئوليات الخاصة بعمله ، وقد يؤدى الانسان اكثر من نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل فى العمل اثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة بعمله .

ولا شك ، أن الانسان له قدرة على احداث تغيير مفاجىء في سلوكه ومن ثم فى نشاطه ، كما انه يستطيع التوقف عن نشاط او انشطة معينة وتبديلها بغيرها .. كما أن للانسان قدرة على الابطاء فى ممارسة نشاط معين ، او تأجيله او انهائه بصورة او بأخرى . هذه الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما هوالدافع او الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط معين دون غيره ؟ ما هى الاسباب فى تغيير الانسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم في نوع نشاطه او الانشطة التى كان يزاولها ؟

وتكون هذه التساؤلات اكثر اهمية ، اذا ارتكزت على سلوك الانسان وتصرفاته فى العمل . ومن ثم فان مناط الصعوبة ، يتمثل فى ايجاد الوسيلة او الوسائل التى تمكن الرجل الادارى من فهم سلوك العاملين تحت رئاسته او اشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا السلوك واخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق اهداف المنظمة ، والطريق الى هذا الفهم ، وخلق هذه القدرة او تنميتها لدى المديرين يتمثل فى ضرورة الالمام بالدوافع أو الحافز أو الحاجات Motives or Incentives or Needs البشرية التى تؤدى الى تكوين السلوك المرغوب فيه فى وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين دوافع الانسان واشباع رغباته أو حاجاته. فالدوافع تدفعه الى سلوك أو تصرف معين ، ويقوم الانسان بالتعبير عن ... عمل معين ، الامر الذى ... حاجاته أو رغباته أو اهدافه ... ذلك بالشكل (رقم ١ ...

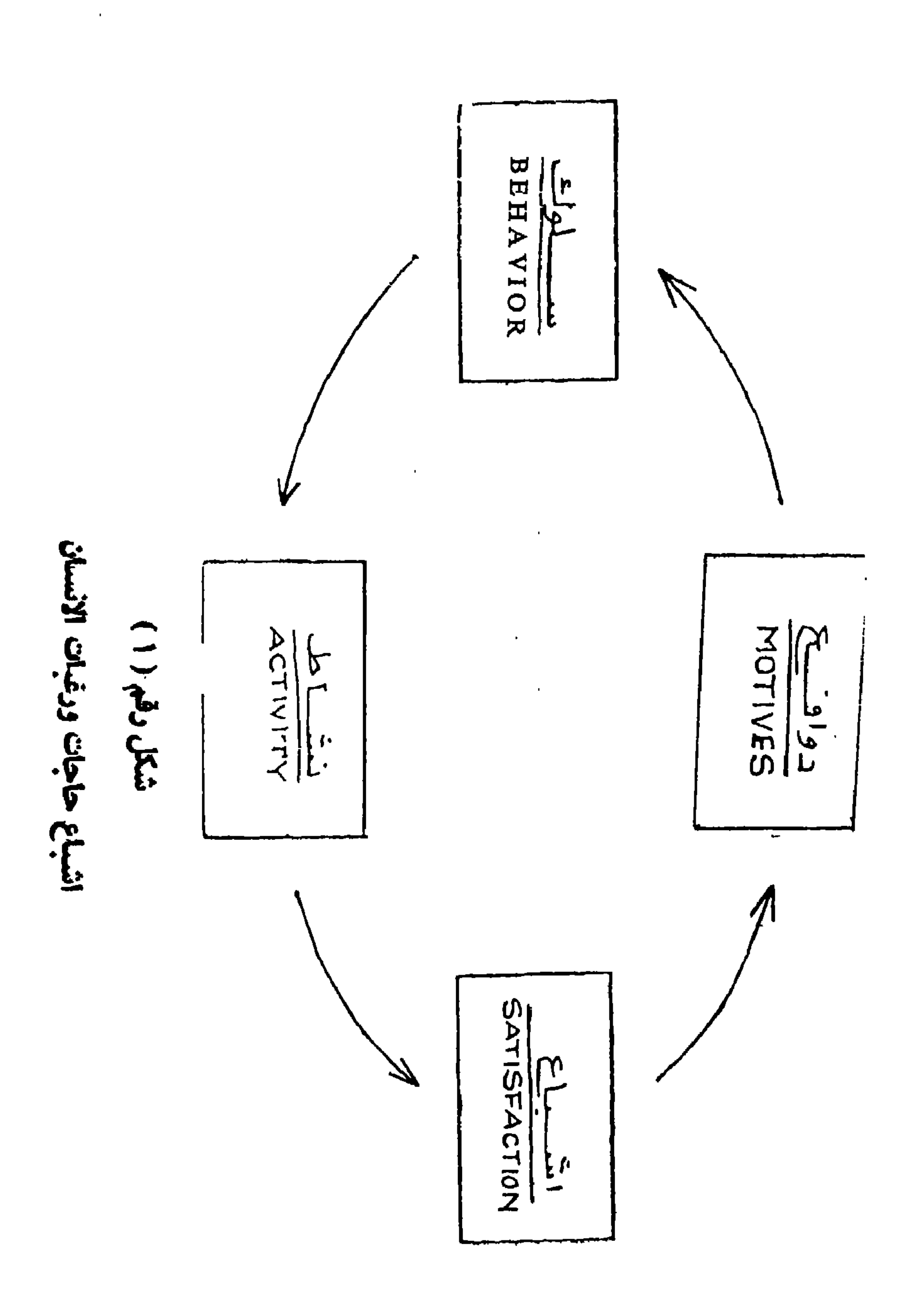
من الشكل رقم (١) ... الاسباب (whys) الحقيقية ... المحركة للانشطة ، وبها ... السلوك ، وتلك الانشطة ... مرتعا للابحاث السلوكية ... التى ينطلق منها انواع السلو... Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى نرى ... أن الرغبة او الحاجة (... Desire ... تمثل الغاية أو الهدف (... Target ... يسعى الانسان الى تحقيقه او ... بالدرجة او المستوى الذى يراه ... نفسه منها . ومن ثم يمكن ... الى اشباع حاجة ، أو تحقيق ... المحركة لدوافع الانسان ... وتحديد نشاطه ، الذى قد يحقق ... الحاجة او تحقيق الغاية .

الحوافز

وتطبيقا لما تقدم فان ... كيفية اختيار «الحافز» او ... التى تحرك دوافع الانسان ... وادائه لنشاط أو انشطة معينة ... أو بالاسلوب الذى يحقق له اهدافه ... وبمعنى آخر يتعين اقامة صلة مباشرة ... بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرغبة ...

ومن ناحية أخرى فان ... الانسان العامل أو تحقيق رغباته ... المنظمة يقتضى أن يحدد ...



شكل رقم (١)
اشباع حاجات ورغبات الانسان

الى تحقيــق أهداف المنظمة ، ومــن ثم فانه يتعين اقامة صلة اخــرى وثيقة بــين اهداف المنظمة وأهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة والاقتناع الانسانى بأن تحقيق أهداف المنظمة ضرورى لتحقيق أهداف الجماعة فى المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الاتى رقــم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) الى ان اشباع حاجات الانسان العامل وتحقيــق رغباتــه مرهــون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبط بها ، بمعنى أن تحقيق الاهداف شرط لازم لامكان اشباع حاجات الانسان ورغباته . واذا اردنا اعادة صياغة هذا في اسلوب أكثر دقة وسهولة، فانه يمكن القول أن الحد الامثل لانتاجية العامــل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهــرى فى اشباع الحاجة أو تحقيــق رغبــة الانسان العامل .

على أن ما تقدم لا يعنى قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة أو تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها فى الوصول الى الحــد الامثــل في الانتاجية . بل انه تجب التفرقة بين ما يسمي بالحاجات أو الحوافز الضرورية أو اللازمــة (Primary Incentives) وبين الحوافــز المساعدة (Auxiliary Incentives) . ويتمثل النوع الاول فى الاجر المحدد للوظيفة ومشتملاته ، ويتمثل النوع الثاني فى كل المزايا او الحوافز ، التى تقررها المنظمة ماديــة او معنوية بالاضافة الى النوع الاول تشجيعــا للعاملين ، وحثا لهم على تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ومــن ثم فــان النوع الاول مــن الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضروريــة التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة الا فى الاحوال التى يجوز فيها ، او يتعين معها اتخاذ أمر يؤثر على صفة الاستمرار أوالانتظام في أدائها ، اما الحوافز المساعدة ، فهى التى تقررها المنظمة لجميع العاملين او لبعضهــم بشروط معينة ، تشجيعــا لهــم ، لتوجيــه نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية فى تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية) ، توصلا الى تحقيق رغباتهم وآمالهم الذاتية .

ولهذا فانه قد يكون من الضرورى للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقــوة فاعليــة (Intencity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما انه من الضرورى اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها أو تنوعها تبعا للتغيير فى رغبات الافراد . وهذا لا يتاتي الا عن طريق اجراء الابحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات العديدة على أنه يتعــين توافر شروط محددة فى تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للاجر مثلا فانه يتعين تحديده وهو احد الحوافز الضرورية) ارتكازا على عوامل ثلاثة ، **العــدالة ، والمساواة والكفاية** . امــا الحوافز المساعدة أو الاضافية ، فيجب توافر ما يلي عند اختيارها واقرارها : ـــ

١ ـــ سهولة فهم السياسة التي تقــررهــا المنظمة في تقريرها للحوافز
(Easily Understood).

٢ ـــ عدالة الحوافز وكفايته (Equitable)

٣ ـــ ارتباط الحوافز ارتباطا وثيقا مباشرا بالجهود الذهنية أو البدنية أو السلوكية التى يبذلها العامل فى تحقيق الحد الامثل للانتاجية
(Directly related to effort)

٤ ـــ اقرار صرفها او ادائها للعاملين فــى مواعيد محدودة ومتقاربة
(Based on short Payback period)

٥ ـــ ارتكاز الحوافز على أسس أو مستويات مقبولة .
(Based on relevant standards)

الاستمرار أو الانتظام فى

(Continuous rather than S

ارتباطا مباشرا ووثيقا برسالة

(Related to Organization

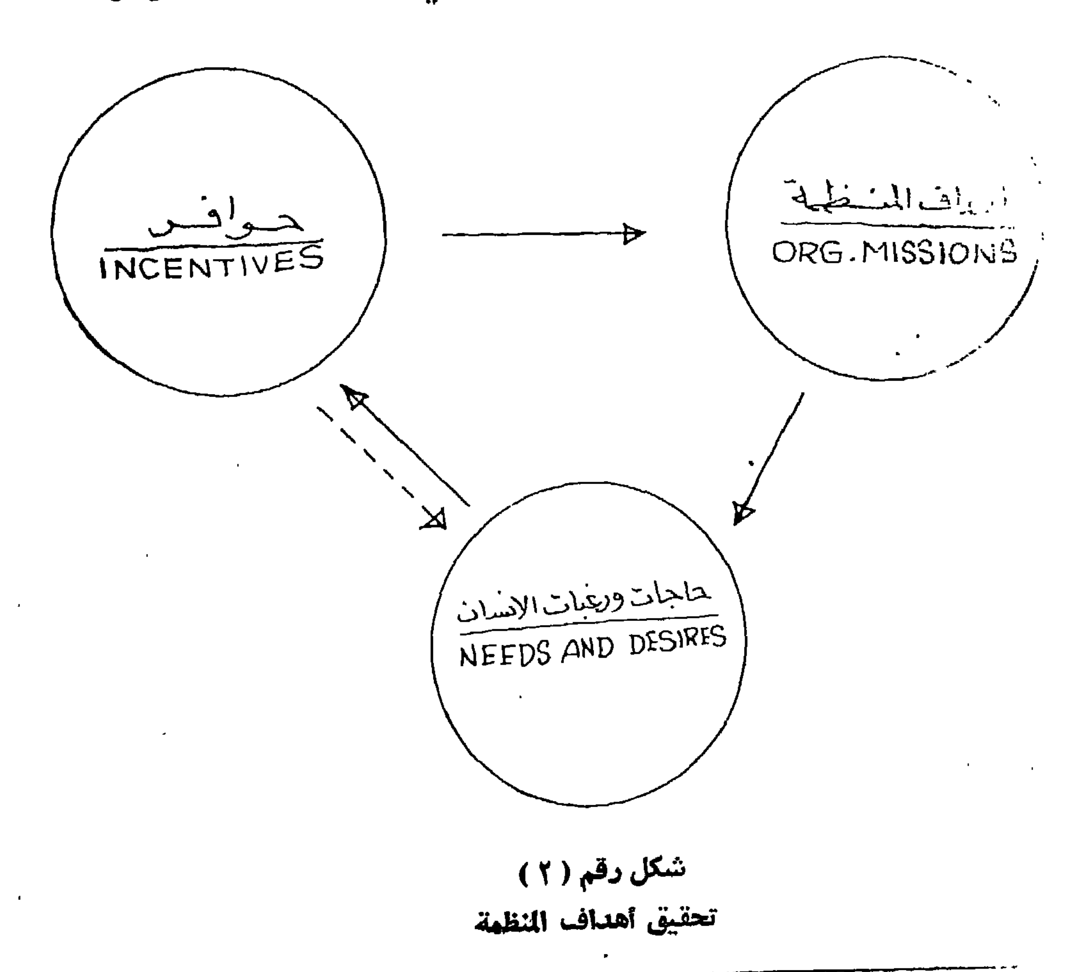
اتصالا اتصالا مباشرا

.(٢) Drives

المزايا الاضافية فى

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة، تشجيعا للعاملين واستمالة لجهودهم فى تحقيق الحد الامثل في الانتاجية ليتكامل نجاح اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية (Group Incentives) أو بصورة فردية (Individual Incentives) (٤) .

ويصور الجدول (رقم ١) أهم المزايا الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة فى الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كاطار لقطاع الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .



شكل رقم (٢)

تحقيق أهداف المنظمة

— Robert A. Sutermeister, **People and Productivity** (New York . McGr . Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, ...

— David W. Belcher & R. H. Leukert, **Job Evaluation** (Englewood Cliffs N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

جدول رقم (١)
اهم المزايا الاضافية التى تمنحها بعض المنظمات العاملة

مسلسل	نوع المزايا الاضافية	امثلة
١	مزايا اضافية مقابل عمل يؤدى	ـ البدل النقدى للاجازات الرسميه ـ المزايا المالية الاضافية فى النوبات الليلية . ـ المزايا المالية عن عمل وقت اضافى ـ البدل النقدى للعمل فى الاجازة الاسبوعية
٢	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	ـ مكافآت الاعياد السنويه ـ مكافآت المواظبة على الحضور ـ مكافآت الجودة فى الانتاج ـ مكافآت اتباع تعليمات الامن والصيانة ـ مكافآت الخدمة الممتازة ـ مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . ـ مكافآت نهاية السنة المالية
٣	مزايا نقدية غير مرتبطة بساعات العمل :	ـ البدل النقدى للاجازات غير الرسميه ـ الاجر المدفوع للوقت الذى يقضيه العامل خارج المنظمة باذن مثل الذهاب للادلاء بصوته فى الانتخابات أو الادلاء بشهادة في المحكمة ... الخ ـ الاجر المدفوع عن أوقات الراحة اليومية . ـ الاجر المدفوع عن اوقات تناول الغداء ـ المزايا المالية المدفوعة فى حالات وفاة أحد أفراد الاسرة . ـ المزايا المالية المدفوعة للوقت الذى يستغرقه العامل فى تغيير ملابسه أو الاستعداد للعمل .

تابع جدول رقم (١)

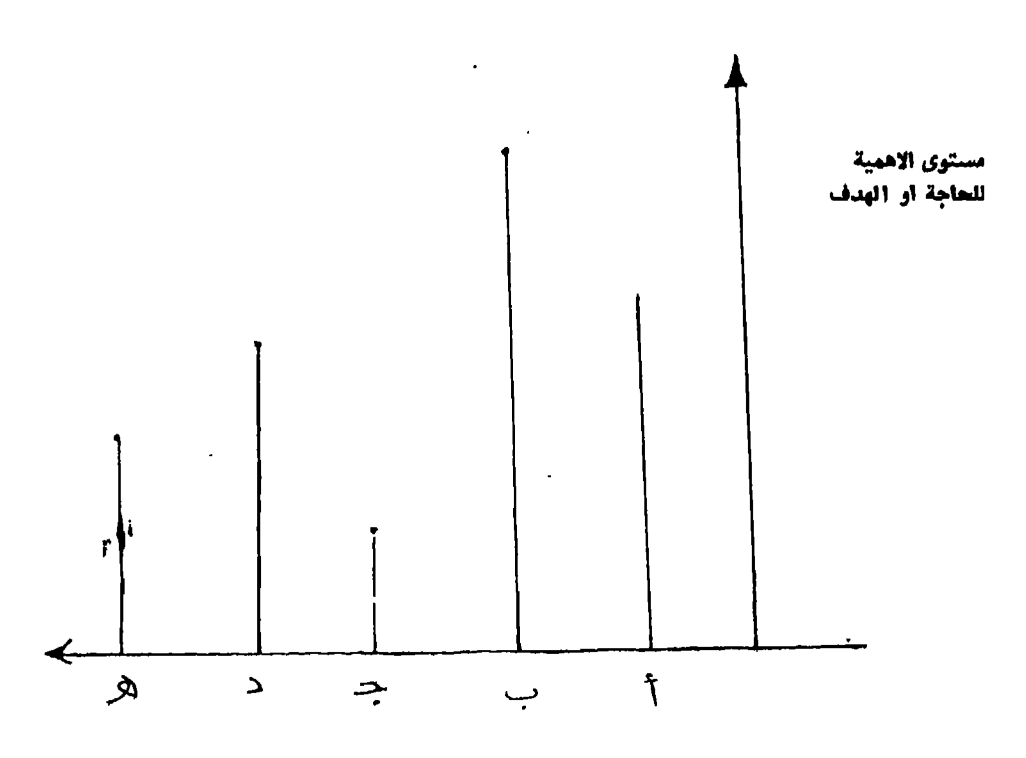
مسلسل	نوع المزايا الاضافية	امثلة
٤	المزايا الاضافية في نطاق حماية العامل :	ـ اقساط التامين التى تدفعها المنظمة لصالح العامل . ـ المزايا المالية الاضافية فى حالات العجز ـ المزايا المالية الاضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . ـ أقساط التامين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . ـ الضمانات المالية التى تؤديها المنظمة لصالح العامل .
٥	مزايا اضافية للخدمات	ـ توفير المطاعم في مكان العمل ـ توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية ـ توفير المساكن للعاملين ـ تقديم منح دراسية وتدريبية ـ تقديم استشارات فنية وقانونية

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التى تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التى تمثل الحاجة أو الرغبة الملحة والهامة والقصوى لدى العاملين . ومعنى ذلك أن حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة فى اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة أن تختار الحاجة أو الهدف الذى يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين فى وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) ان الحاجة او الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الاهمية لدى الانسان فى وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة او تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق اهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة Appropriate Incentives واشباعها فى وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه فى اتجاه تحقيق اهداف المنظمة . وتتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل فى اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك أنه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظرا لتعدد حاجات الافراد فى وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل العلمية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات التي تمثل



شكل رقم (٣)

اهمية الحاجة او الهدف

آمال وأهداف النسبة الغالبة من الافراد . وهذا لا يتأتى الا عن طريق الابحاث العلمية فى مجال الحوافز .

الثانية تتمثل فى ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الافراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة باشباع هذه الحاجات أو تلك الرغبات وضمان ذلك فى المستقبل . ولا شك فى ان هذه الصعوبة تقع مسئولية حلها على الادارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل فى الشعور العام للجماعة او الافراد بتوافر امكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها فى مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في أن السياسة المعلنة فى مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة فى مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة فى مجال سلوك الافراد فى المنظمات العاملة على ان البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية فى مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه واهدافه ووسائل تحقيقها

ابحاث الدوافع :

تعددت الابحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، وتعطيها ركيزة الاعتماد عليهافي المجالاتالمختلفة فى المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا الى أسباب عديدة منها ان هذه الابحاث تحتاج الى وقت لوضعها موضعالاختبار العملي فىمجالات العمل المختلفة ، وعدم الاهتمام بالابحاث السلوكية فى الدول عامة والنامية خاصة ، وقلة الاعتمادات المخصصة للابحاث والتجارب فى ميدان العلوم السلوكية (٥).

على انه مما لاشك فيه ان هذه الابحاث قد أرست مبادىء هامة وأساليب فنية ، وافكارا ترتكز على تأملات فكرية ، وفروض علمية ، ونتائج موضوعية فى مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن أن بعض هذه الابحاث نجحت حينما وضعتفيمجالالتجربة ،وما زالالوقت متسعا للمزيد من هذه الابحاث وتلك التجارب (٦) .

وتعتبر نظرية الحاجات التي بداها **ماسلو** (Maslow) من النظريات التي اخذت مسارها فى التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب فى ابحاثهم وابتكاراتهم فى مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو ان هناك خمس حاجات للانسان لها أهمية تصاعدية او هرمية . هذه الحاجات تتمثل فى:

(١) الحاجات المادية او الضرورية

(٢) الحاجة الى الامان والضمان

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة الى التقدير (٥) الحاجة الى الاحراز او تحقيق أقصى الآمال أو الطموحات .

---

٥ ــ د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته فىمجال الادارة ، الادارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، اكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الادارة اتحاد جمعيات التنميةالادارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ ــ تدل الدراسات على ان اهم نظريات الدوافع والحوافزخمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ،(٣) نظرية العلاقات الانسانية ، (٤) نظرية التفضيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة في ادارة القوىالعاملة.(الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس..

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على ان نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخذت نموذجا رائدا في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وابحاث بناءة فى مجال الدوافع والحوافز ارتكازا على الحاجات الانسانية الخمسة التي جاءت فى النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها فى ايجاز .

الحاجات المادية : اجري العديد من الابحاث لمعرفة مدى واهمية الحاجات الضرورية أو المادية لحافز أو دافع للعمل . وقد اشارت هذه الدراسات والابحاث الى انه غالبا ما يرتبط اشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس .... الخ بوفرة النقود . على أن الافراد لا يهتمون بالنقود فى حد ذاتها ولكن نظرا لكونها اداة (Tool) تمكنهم من اشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فاشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) . الا انه مما لاشك فيه أن للنقود وظائف اخرى قد تكون اكثر أهمية ، واعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الابحاث التي أجريت فى مجال النقود كأداة لاشباع الحاجات الضرورية ، انها باعث أو دافع معقد ومتشابك . كما ان اهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد ساعيا لاشباع حاجات اخرى طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا ان النقود تلعب دورا هاما وحيويا فى اشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الاهمية فى التناقص كلما ارتفعنا فى سلم درجات الحاجات .

واجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختبار . وارتكزت هذه الدراسة على عينة من ٤٩ موظفا عينوا بالادارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية عام ١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتبارا من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، واجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين فى العلوم النفسية .

وتتلخص أهم النتائج التي توصلت اليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ ـ يتطلع الانسان لاشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقا للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بادئا بالحاجات الضرورية (الاجر والامان والطمأنينة فى العمل) .

٢ ـ ليس بالضروري ان يستمر هذا الاتجاه ، اي تسلسل اشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف . فقد يتطلع الموظف لاشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ ـ بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع اولئك الذين حققوا نجاحا فى عملهم ، لاشباع المستويات العليا عن الحاجات (الرغبات) تاركين أو غير عابئين بالمستويات الدنيا منها (كالاجر والامان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع اساسا الى ان هذه الفئة تضمن بقاءها في الوظيفة ، وتقدمها فى التسلسل الاداري ، ما يضمن لها الاجر والامان والطمأنينة فى العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحا ملموسا فى العمل ، الا ان الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحا ، يتمثل فى ان الفئة الاولى تكون اشد حماسا واكثر اهتماما باشباع هذه الحاجات .

٤ ـ اظهر المديرون (الناجحون منهم والاقل نجاحا) اهتمامهم باشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والانجاز ، وكانوا اقل اهتماما بالاجر والامان والطمأنينة في العمل مثلما كان الامر عند بداية خدمتهم .

الحاجة الى الامان : تمثل هـذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية فى أهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتتمثل هذه الحاجة فى محاولة او رغبة الانسان فى ضمان عمل دائم ودخل د ئم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد أسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة فى حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية أو الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميـول الانسـان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على اهمية حاجة الانسان الى الامان واثرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانينة امر يرتكز على الواقع وتؤيـده الدلائل . ولاشك في ان الـدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامـان والطمانينة . وتتمثل وسائل اشباع هـذه الحاجة فى التأمينات الاجتماعية (Social Insurances) والمساعـدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال فى اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما فى بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العماليـة ، علـى اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال فى الدول المتقدمة وعلى الاخص الراسمالية منها .)

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) : ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان أو يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانينة ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة فى اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومـة الفـرد (Resistance) للمنظمـة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معهـا (Uncooperative) .

وتشـير هذه الدراسـات الـى ان الانسـان يسعى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا فى حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رغبات أو اهداف أخرى ، فقد يرغب الانسان فى الانتماء الـى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها فى مسائل او آراء او معتقـدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء أو معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قـد تختلف فيما بينها من حيث المبادىء التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة فى خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات أيضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق او الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركهم نفس الشعور ، وقد أكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

---

٧ ـ راجـع :

— Saul W. Gellermen, **Motivation and** Productivity (New York : American Management Association, 1963).

على ان تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) انما يرجع اساسا الى شعور الجماعة بالسأم (Boredom) واحساس افرادها بعدم اهميتهم فى العمل (Insignificance) وافتقارهم الى الخبرة او المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، أو نظام العمل الذين يرتبطون به .

على ان الجماعات غير الرسمية المشار اليها لا تضم جميع الافراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على ان هناك من الافراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء الى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة فى الانتماء الى الشعور بالشك (Suspicion) فى هذه الجماعة او نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالهاcontemptuous او ان يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق اهدافه دون حاجة الى الانتماءاليها .

وهناك من الدلائل ما يشير الى ان الادارة فى المنظمات العاملة تنظر بعين الشك الى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتنمو في المنظمة . وقد اشارت بعض الدراسات الى ان القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الانتاج ما هي الا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة اعمالهم ، لاسيما اذا كانت الادارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في اصدار القرارات الخاصة بهذه الاعمال، ويبدو ان مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materiaized) عندما تكون اعمال هذه الجماعة مملة ، او روتينية (Routine) لا تحتاج الى اية مهارات . وقد يزداد تأثير هذه الجماعة على الانتاج سواء اذا أحكمت الرقابة عليها ، أو حرم افرادها وسائل الاتصال المناسبة مع ادارة المنظمة .

فى مثل هذه الظروف المشار اليها تبدا الجماعات غير الرسمية فى الظهور والتكوين بالمنظمات ، وتأخذ فى النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها علىالانتاج . والانتماء الى مثل هذه الجماعات يعتبر اشباعا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الانتاج (Restriction of Output) ما هي الا احد الامثلة لنشاطها فى مجال الانتاج . على انه ليس بالضروري ان تكون هذه القيود وليدة كراهية اعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين او لادارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على اعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول الى اهدافها .

وجدير بالملاحظة ان الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين اعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفذ حدود معدلات انتاجها او ادائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدى الى تحطيم وجودها ، وذهاب طمأنينة افرادها والاهمية التي يجب ان تكون عليها .

وخفض الانتاج ليس بالضرورة ان يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . اذ انه يمكن للادارة الواعية ان توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستخدامها كركيزة تنطلق منها لتحقيق اهدافها ، وذلك اذا استطاعت الادارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك انه اذا ساد الشعور لدى اعضاء هذه الجماعات بأن هناك تعارضا بين اهداف المنظمة واهدافهم الذاتية ، فان انتاجهم تميل الى الانخفاض . اما اذا كان تحقيق اهداف المنظمة سيعمل على تحقيق اهدافهم الشخصية فان انتاجية الجماعة سوف تميل الى الارتفاع . وكنتيجة لهذا فان المنظمة سوف تتمكن من تحقيق اهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة او مسيرتها نحو

تحقيق اهدافها ، اذا ما اتجهت الادارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات أو اهداف هذه الجماعات، ثم محاولة تحقيق هذه الاهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة باهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ ــ حاجته الى الاعتزاز بنفسه ، وقيمته واعتباره كعضو في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة أو الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة او المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ ــ حاجة الانسان الى الشهرة او السمعة الطيبة او المكانة المرموقة (One's reputation) وتتمثل فى احقية الانسان فى ان ينال من الجماعة تفضيلا أو تمييزا عن غيره لخدمات اداها أو مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان فى تحقيق منزلة معينة أو مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) أو تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول أن الحاجة الى التقدير تتمثل فى رغبة الانسان في أن يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة فى اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان اليها فى تحقيق أمرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لاعمال اداها أو خدمات ساهم فى انجازها Prestige (٢) القوة التى يملكها الانسان فى شخصيته أو لقدراته العلمية أو الفنية أو العملية (Power)

ويسعى الافراد لاشباع هذه الرغبة أو الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان طريق اداء خدمات مرموقة أو انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى أعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز أو مكانة مرموقة في المجتمع الذى يعيش أو يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فان حاجة الانسان اليها أمر يرتكز على الواقع ، وتؤيده الدلائل ، مع ملاحظة أن بعض الافراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis فى تقييم انفسهم . ومن ثم فانه يمكن القول بوجوب ايجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فان تقييم الفرد لذاته قد يرتكز على مستويات مقبولة تتفق واقصى ما يمكن ان يحققه من مكانة او مركز فى المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقا لهذه المستويات فانه يحاول جاهدا المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات أعلى . وذلك هو السبب فى رضاء بعض الافراد عما حققوه من احترام فى المنظمات التى يعملون بها، على اعتبار انهم وصلوا او حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضى (Preconceived Level) اما الافراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون لاشباع حاجتهم على المستوى القومى أو العالمى غير مراعين لحدود طاقاتهم أو مستويات قدراتهم ، أو الظروف المحيطة بهم ، ولا شك ان نتيجة هذه الحالة هى الخيبة والفشل .

الحاجة الى الانجاز : تدل الدراسات التى تمت على أن هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها أو التعرف عليها أو تحديد آثارها ، بسبب أن الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة . وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الغايات

الانسانية التـي تتدرج تحـت الحاجـة الى الانجاز ، الاول ويتمثل في الشعور او تحقيق الاحساس بالكفاءة (Competence) والثانى يشير الى محاولة الانسان احراز تقدم ملموس فى مجال معين من المجالات .

وتتمثل هـذه الكفاءة فى قـدرة الانسان فى السيطرة على عوامل البيئة التى يعيش فيها سواء كانت ماديـة او اجتماعية . ويبدو ان الافراد الذين يحاولون اشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل اشباعها ، بل انهم يحاولون تطويع جميع الامكانيات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقـدم أن هناك علاقـة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعة لاشباعها : فنجاح الانسان فى ماضيه هو الذى يحدد توقعات نجاحه او فشلـه في كفاءته في مستقبله . فيتسم الشعـور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه فى الماضى أكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الانسان الى الحياة أكثر ايجابية (A Positive outlook toward life) ويرى فى كل مشكلة جديدة تحديا ممتعا لكفاءته فى التغلب عليها . وبالرغم من أن الحاجة الى الشعور بالكفـاءة تظهر وتنمو مبكرا فى حياة الانسان ، الا انـه ليس من الضرورى أن تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على ان نجاح الفرد مرة أوعدة مرات ، رغم توقعه للفشل ، غالبا ما يدعم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح الى احراز الكثير منهـا . وعنـد تكرار ذلك يتحول شعور الانسان الى اعتقاده بامكانيـة التنبؤ بامكان نجاحه واشباع حاجته الى الكفاءة ، وغالبا ما يكون عامل السن (Age) ذا اثر على امكانية النجاح . اذ للانسان طاقـة معينـة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه اوفشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل احد المجالات الرائدة التـى تمكن الفرد من المواءمة بين قدراتـه الفنيـة والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئـة التى يعيش أو يعمل بها ، وهي مواءمة تأخذ شكل مباراة تتسم بالتحدى والاصرار ، ولا شك في ان الاعمال التى تعطى الانسان الفرصة للدخول فى مثل هذه المباراة تسمح له باشباع حاجته الى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالاضافة الى ما يمكن أن يحصل عليه من حوافز مادية كانت أو أدبية . ولذلك نرى أن الاعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول فى مجال لاظهار براعته الوظيفية او قدراته العلمية ، وفى هذه الحالة ، يضحى هـذا الانسان خاضعا لنظام عمل تظلله رقابة اشرافية محكمة .

الحاجة الى الاحراز : واذا وجهنا النظر الى دراسة وفهم الحاجة الى الاحراز (Achievement) فانه يتعين الاشارة الى أنها لاتعنى مجرد جهود علمية أو فنية او مبتكرة يبذلهـا الانسان ، بل انها بالاضافة الى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ماقد يوجد من صعوبات أو عقبات يمكن أن تحول دون احراز هذه الثمرة .

فـاذا توافـر لـدى بعـض الافـراد الشعور بحاجتهم الى احراز ثمرة معينة فان قوة رغبتهم تدفعهم الى العمل الجاد وبـذل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم اشباعهـا بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الافراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافـع ايجابية ، وعلى الاخص اذا كان تحقيق الاحراز سيحقق لهم عائدا ماديا أو ادبيا . ومع ذلك فان هدف الافراد فى هـذه الحالـة ، تجسم اساسا فى احراز الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز أو مقداره ، ونتيجة ذلك أن النقود ــ باعتبارها حافزا ــ لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء الا مقياسا لادائهم ، وتقييما لجهودهم ومابذلوه.

البيئة كمصدر للدوافع Motivating Environment : يتضح مما سبق أن حاجات الانسان متعددة ، ووسائل اشباعها متباينة ، والدوافع التى تدفع هذه الحاجات الى الحركة

والاشباع مختلفة ، كما أن قوة ودرجةالاشباع تختلف من فردالى آخر ، والادارة الناجحةهي تلك التى لها قدرة التنبؤ بدوافع الانسان ، وحاجاته واستخدامالحوافز المناسبة فيالوقت المناسب .

ولا شك فى ان استخدام الحوافز فى العمل انما يهدف الى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذى يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هى قادرة على اعطائه ، اذ ان الدراسات العديدة تعطي الدلائل العلمية الثابتة على انه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية ، ارتفع الاداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت أو ادبية ، تساعد على استخدام افضل لهذه الطاقات ، عن طريق تحريك دوافع الانسان واستخدام طاقاته المعطلة أو الكامنة .

وقد اجريتفى احدى قطاعات الصناعة الامريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي : ماذا يريد العاملون من اعمالهم (What do workers want from their jobs?) فى هذهالدراسة طلب منطبقة المشرفين Supervisors أن يضعوا انفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes)ويعدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون أنالعاملين يتطلعون الى اشباعها من العمل على أن يراعى فيترتيب هذه الحاجات وضعها حسباهميتها لهم . كما طلب من العاملين ايضا اعداد هذه القائمة ، التي تبين الحاجات التي يتطلعون الى اشباعها من عملهم .

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب اهميتها ، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الاكثراهمية والرقم ١٠ يعنى الاقلاهمية

جدول رقم (٢)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	المشرفون	الحاجات
١	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٢	١٠	الشعور أو الاحساس الداخلى للعامل
٣	٩	التعاطف وفهم المشاكل الشخصية
٤	٢	الامان والطمأنينة في العمل
٥	١	أجور ممتازة
٦	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٧	٣	الترقية والتقدم مع نمو المنظمة
٨	٦	ولاء أو اخلاص الادارة للعاملين
٩	٤	طرق وظروف عمل جيدة
١٠	٧	عدالة وحساسية نظام التاديب

ويمكن اعادة ترتيب الحاجات ، بالشكلالذى يبين وجهة نظر المشرف ، ووجهة نظر العامل فى الجدول الآتي (رقم ٣) .

جدول رقم (٣)
ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقا لاهميتها	المشرفون	الحاجة طبقا لاهميتها
١	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى	١	أجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمأنينة فى العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفى
٤	الامان والطمأنينة فى العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	أجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء واخلاص الادارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفى	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء واخلاص الادارة	٨	تقدير الادارة للعمل الذى يؤدى
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التاديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ ـ أن طبقة المشرفين غالبا ما تعتبر ان الاجور المرتفعة تمثل الحافز الاول لزيادة انتاجية العامل . فان الدوافع الاساسية للعاملين ، تتمثل فى فرص الكسب الاقتصادى ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التى تضمن أن يكون الكسب المادى هو النتيجة المباشرة لزيادة انتاجيتهم .

٢ ـ ان طبقة المشرفين اضافوا الشعور بالطمأنينة والترقية والتقدم الوظيفى باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولاشك في أن الامان والطمأنينة فى العمل (Job Security) اعتبرت فى المرتبة الثانية من الاهمية فى نظرية ماسلو السابق الاشارة اليها. وقد جاء في الجدول السابق ان هذه الحاجة تعتبر من الحاجات أو الرغبات الهامة لدى العامل ولو انها ادرجت تحت رقم ٤ بدلا من رقم ٢ طبقا لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني امرين :

الاول انها تضيف أمانا اكثر وطمأنينة فى نفس الانسان نحو بقائه في الوظيفة .

الثاني انها تعني زيادة فى الاجر أو المرتب ، وفى كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وان كانت تعطي الانسان الاحساس باهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الادبية .

وقد ادرج العاملون الترقية فى المرتبة السابقة من الاهمية ، وان كانوا قد اعتبروا ان تقدير الادارة لعملهم هو أول ما يتطلعون اليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الادارة لاعمال الانسان ، غالبا ما يؤدى الى ترقيته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

٣ ـ أدرج العاملون تقدير الادارة للعمل ، والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ، والتعاطف وفهم مشاكلهم في الاهمية القصوى بالنسبة لهم . وهذا يفسر أهمية العلاقات الانسانية في العمل .

٤ ـ يتضح ايضا من الجدول السابق ان الحاجات التي اعتبرها العاملون من أهم متطلباتهم ، ويتطلعون الى اشباعها ، راى المشرفون انها أقل اهمية من غيرها . وهذا يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او الرغبة في فهم الحاجات أو الرغبات التي تمثل الاهمية القصوى للعاملين لديهم . وهذا يؤدي الى اختيار الحافز الخطأ او استخدامه في وقت غير مناسب .

٥ ـ ما زال بعض او اغلب المديرين يعتقدون أن اشباع الحاجات المادية للعاملين من أهم الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الامثل للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في النتائج التي توصلت اليها الدراسة المشار اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا في الدول النامية، نظرا لضآلة الاجور وانكماش فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يتمثل الهدف من هذا البحث في شرح ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ، والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة بمقتضاها اختيار وترغيب الاكفاء من الافراد ، والالتحاق بالوظائف واستمرارهم أو بقائهم عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على الاكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) **ان الانسان طاقة** اذا أحسن استخدامها تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اضحت وسيلة لتحقيق غاية أو غايات . لكن الطاقة الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها او استخدامها ، واذا أحسن توجيه قوة الانسان نحو هدف ما فانه في الغالب يتحقق .

(٢) **ان الانسان يختلف عن الآلة** ، ويتمثل أهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن ثم يصعب التنبؤ بسلوكه او تصرفاته أو اتجاهاته .

(٣) **ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد تماثل بين انسان وآخر** في الطبيعة والسلوك والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك قد ينشىء صعوبة في المنظمات العاملة نحو ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ، والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

عمق اهتمامه او مقدار ولائه للمنظمـة التي يعمل بها .

والثاني يتمثـل فى التنبؤ او فى تفسير مـا يطرأ على سـلوك الانسـان او تصرفاتـه او اتجاهاته من تغيز او تقلب فى المستقبل .

وازاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في ادارة الانسان العامل . وتزداد هـذه المهمة صعوبة اذا اجتمع هذا الانسان مع غيره مـن الافراد تحت ادارة واحدة . وتضحي هـذه المهمة اكثر تعقيدا كلما ازداد حجـم القـوى العاملة التي تعمل فى منظمة واحدة او فى مكان واحد. ومن ثم يضحي التوازن حتمي وضروري فى تطـوير اساليب الادارة في مجـال ادارة الطاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق اهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته فى المستقبل .

* * *

المراجـع

د . منصور احمد منصور ، المبادىء العامة فى ادارة القـوى العاملة . الكويت ـ وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .

د . منصور احمد منصور ، الدوافع والحوافز فى قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، المبادى العامة فى ادارة القوى الافريقية ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، تطور مفهوم تخطيط القوى العاملة فى الدول المتقدمة (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، ايكولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تخطيط وظائفها وتقويم ادائها ، الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (تحت الطبع)

د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته فى مجال الادارة ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٢ .

د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .

د . منصور احمد منصور ، الثورة الادارية بين النظريـة والتطبيق ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٤ .

* * *

عقوبة الاعدام بين الابقاء والالغاء

عبد الوهاب حومد

من بين المشاكل التي ثار حولها جدل طويل،واصطرعت فيها الفلسفات والعواطف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصة من دموى ، يغلف النقاش الهادىء بسحب قاتمة ، تجعل البصيرة اقل نفاذاً فى بحثها عن الحل الامثل، في مصطرع التناقضات الاجتماعية .

ومما يزيد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يعتمل فى نفوس ذوى المقتول ، وطمانة لمن روعتهم الجريمة ، دون أن تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هى الدولة ، وسيفها المسلط فى يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون ..

ولقد عاقبت البشرية انماطا من المجرمين بالموت ، منذ فجر تكوّن المجتمعات الاولى ، اذا لم اغامر بالقول ، منذ تكون المجتمع الاول .. ولا يذهبنّ بنا الخيال ، الى ان هذه العقوبة كانت قاصرة على القتلة ، الذين يزهقون ارواح الناس . لانها ، فى حقيقتها ، كانت تطال غير القتلة . بل ربما كان اعدام القتلة لم ينتشر الا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضارى .

فقد عاقبت **مصر الفرعونية** جرائم كثيرة بالاعدام :

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة ، والسحر ، وعدم افشاء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية ، وعدم اغاثة من تعرض لهجوم الاشقياء ، فى الطريق ...

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل اباه ، كان يعدم بغرز قطع حادة من القصب فى جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعا صغيرة بآلة خاصة ، وبعد ذلك يلقى به على كومة من القش ، ويحرق ببطء .. وكانوا يحرقون الزانية ...

وكان يدخل فى سلطة القاضى اختيار طريقة اعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، او الاغراق او التقطيع ، او النار ..

ومع الزمن ، خفت حدة الغرائز البدائية ، فادخلوا فى مفهوم المسئولية الجماعية تقييدا أساسيا ، هو ان تنفيذ العقوبة اصبح قاصرا على الفاعل وحده ، وان المراة الزانية ، اصبحت تعاقب بجدع الانف ، لحرمانها من محاسنها التي كانت تغرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجى المقدس ...

وينقل احد المؤلفين المعاصرين (١) عن المؤرخ اليونانى هيرودوت "Herodote" ، ان الفرعون "Sabacon" احد مؤسسي الاسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ ــ ٧٠٣ ق . م.) الغى عقوبة الاعدام ، وابدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله فى الاعمال العامة . فاذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، أول نظام منظّم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية فى حيرة امامها حتى اليوم .

وقد اعيدت هذه العقوبة فيما بعد ، واصبحت تطال ، فى عهد مصر البطلموسية وهى الفترة التى تمتد ما بين الغزو الماكيدونى لمصر عام ٣٣٢ ق.م والغزو الرومانى عام ٣٠ ق.م ــ ، كما يتضح من اوراق البردى اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الافعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف فى الميزان ، والتعدى على اموال المعابد ..

ولقد اجبرت كليوباترا ، بمرسوم اصدرته عام ٥٠ ق .م. التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها الى الاسكندرية وعاقبت مخالفي هذا المرسوم بالاعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت فى **بلاد ما بين النهرين** ، وضعت قوانين متكاملة ، من اعظمها ، قانون **حمورابي** عام ١٧٠٠ق .م ، الذى يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصبا .. واذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب افعالا كثيرة بالاعدام ، كالسرقات الكبرى ، واخفاء المسروقات ، التي استلبت بواسطة العنف ، وازالة الوشم عن وجه العبد لاخفائه عن مالكه ، والقتل ، وزنا المراة واغتصابها ، والشهادة الزور فى جريمة القتل ، والبلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل

(١) Jean Imbert, la peine de mort, P.U.F. P. 15

مكذوبة ، ومحالة التهرب من اداء الخدمة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميزات مدهشة :ـ

الأولى : ـ انه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى اصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : ـ انه اشترط وجود العمد فى القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص فى المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه : ـ

« اذا تسبب الضرب بموت الضحية ، واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه يدفع ثلاثين مثقالا من الفضة »" Sicles " (٢) ، اذا كان المقتول مواطنا ، رعشرين مثقالا اذا كان المقتول لا يتمتع بالمواطنية mesquin ...

والثالثة : ـ انه الغى صيغة المماثلة ، (La talion) الا في حالة واحدة ، هي حينما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم.

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق والقتل بالسيف ، والاغراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخازوق ، وكانت المراة التي تقتل زوجها او تشترك فى قتله تعدم بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش فى أور ، احدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .

وقد عرف **التشريع اليهودى القديم المسئولية الجماعية** ، ففى سفر التكوين ، **(الاصحاح الرابع والثلاثين ، الآية ٢٦ ـ ٢٧)** ، ان Sichem ابن Hémor خطف امراة تدعى Dina . واغتصبها ، ولكنه اعلن انه يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم الملوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ،بدأت تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ؛ وأصبحت العقوبة تتجه الى الفاعل وحده . ففي سفر الـ Deutéronome ، الاصحاح الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالموت بدلا من آبائهم » ، « ولايعاقب بالموت الا من ارتكب خطأ شخصيا»

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة فى جريمة القتل ... اما فى الجرائم العامة ، فان الاعدام كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعدام السحرة ، وعبدة الأوثان والمرتدون ، والذين يحقرون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام كل يهودى يشتغل يوم السبت « لأن اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزاني، والزانية ايضا ، وتعاقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالمحرمات ، واللواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، فى جميع الجرائم . وكانوا يعللون ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

---

(٢) فى لاروس انسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة« Sicle عبرية ، وهو يزن عند العبريين » ١١ غراما وكسور « وعند البابليين ٨٫٤٠ غرامات .

الشعب كله هو الذى ينفذه . واول من يبدأ بالرجم ، شهود الاثبات ، ثم يليهم الحاضرون حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة طيلة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرعا الا فى حالتين : تعهر ابنة الكاهن ، والاتصال الجنسي بالأم أو الأخت .

وعرف المجتمع العربى الجاهلي عقوبة الاعدام وطبقها ، بطريق العرف الذى كان ينظم علاقات الافراد ، وتوارثوه كابرا عن كابر ، دون ان يكون للتشريع اليهودى او النصراني اى اثر فى تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود الذين فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ، لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا فى عقلية الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقعهم الاجتماعي ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ، وان المستوى الاجتماعي لم يكن يختلف عن مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تحرج ، واستنتجوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ، تهودت (٢) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على حدود الجزيرة الشمالية ، تسللت اليها من اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض الاتباع فى اليمن ، تأثرا بالنصرانية الحبشية . .

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ، هي التي كانت تحكم الجزيرة واهلها ، ولم يكن يسيرا على جماعة غافلة ، مغلقة الابواب والبصائر على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تغير او تبدل من مفاهيمها الأزلية . .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الاقال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم القانون ، وتنفذ فيهم العقوبات . . . لانهم كانوا مجموعة من المجتمعات المتموجة ، الفت احكام الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما بزغ عليها فجر عهد جديد ، جاء ينقذهم من الضلالة الى الهدى فى دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد للسلوك القويم ، على اساس من التساند الاجتماعي والتمسك بنظام الشرع ، عقيدة وسلوكا . . فقال تعالى :

« يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد امروا ان يكفروا به » (النساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم العرف ، الذى كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس من مسئولية جماعية قبيحة ، وكان للكاهن والعارفة دور كبير فى اقامة البينة وتقرير العقاب . .

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة عندهم ، لفقدان التنظيم الدولى .

فقد كان من حق الأب ان يقتل اولاده الذكور ، ويئد بناته . . وفى ذلك يقول الله : «قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم» (الانعام ١٤٠) .

ويقول : ـ « واذا الموؤودة سئلت : بأى ذنب قتلت » (التكوير الآيتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ، او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

---

(٢) جواد على ، تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٦ ،القسم الدينى ص ١ ـ ٥٠ و « Margolioth ص ٦١ .

الدم ان يثأر فى الحال ، او فى خلال ايام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفى ، والا تدخل الحكماء لبذل المساعي الحميدة ، وانتهى الامر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، او لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المقتول معروفا لدى الرومان ، وكانوا يسمونه « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وتباه ، والدهر قُلّبٌ فيهم ، والحرب سجال :

فيقومٌ علينا ، ويوم لنا : ويوم نُساءُ ويومٌ نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون ريب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفا من اختلاط الانساب ، ودفاعا عن الشرف والسمعة ...

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون فى حديثه عن العرب .. ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الاسلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام فى بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ ـ جريمة القتل العمد : ـ

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والانثى بالانثى ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، واداء اليه باحسان » .

(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : ـ

« من قتل له قتيل ، فهو بخير النظرين ، اما ان يفتدى واما ان يقتل » .

٢ ـ الحرابة : ـ وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الارض فسادا ، ان يقتلوا او يصلبوا ، او تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف او ينفوا من الارض .... » . (٤) (المائدة آية ٣٣) .

٣ ـ الردة : وهي الخروج من الاسلام بعد أن كان فيه .

والاجماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء فى امر المراة المرتدة . ويرى ابو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تحبس حتى تتوب .

ولم يرد فى القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : ـ

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون » . (البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : ـ من بدل دينه فاقتلوه ...

---

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون فى تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكاساني فى البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتنويع ، وهو مذهب ابن عباس ، اي انهم يقتلون ويصلبون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلبون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق اخر الى ان النص يخير القاضي بين احدى العقوبات ويفوض اليه الامر فى كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضى الله عنه .

وفي الراجح من المذاهب، ان المرتد يستتاب ثلاثة أيام (ابو حنيفة ،ومالك واحد قولين للشافعي) .

ويرى علي أن يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا اخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ ــ البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتأويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيون فى الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لخلعه .

وقد يكونون مخطئين فى اجتهادهم .. لذلك جاز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بدأوه ولم يقاتل علي الخوارج ، الا بعد ان قتلوا عبد الله بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قاتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من القى سلاحه ولا من اغلق بابه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتعاد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ ــ وتبقى لنا كلمة فى جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر برجم ما عز والغامدية مرة ، ولم يأمر برجم شخص آخر ، جاءه بعد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضأت وصليت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذى صدر مؤخرا ، فى المادة الثانية الفقرة الاولى ، بعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بعقوبة الرجم .

وقد عرفت اوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقتها بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع واخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وان المرء ليشعر بقشعريرة تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب ضحيتها مئات الالوف من المسلمين فى الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، فى حين انه فى ظلال حكمهم السمح جدد ابن ميمون الديانة اليهودية فى عاصمة الملك قرطبة ، وفى اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والعلماء الذين اصبحوا مصابيح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف فى اوروبا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذهاتدل على سادية لا مثيل لها ، كالاحراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا فى كفن من الشوك .. وقد يمدون للمحكوم عليه ، فى حفرته ، انبوبا رفيعا يتنفس منه بصعوبة ، امعانا في تعذيبه .

وعلى الرغم من قوافل الملايين من الذين اعدموا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، فى كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروع مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ ام انها عقوبة لا غنى عنها ، للابقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامةالافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وامر ؟

---

(٥) هذا ما ذكره الاستاذ علي حسب الله فى محاضرة له القاها فى جامعة الكويت عام ١٩٦٨ ، منشورة فى الموسم الثقافى لهذه الجامعة ١٩٦٨/١٩٦٩ ص ١٤٧ .

هذا هو السؤال الصعب الذى انكبت ، للاجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرات الوقائع وسبرت اغوار النفس البشرية ، واتخذت لها موقعا محددا من هذه العقوبة . فذهبت جمهرة الى المطالبة بالغائها ، وقال فريق آخر بابقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة وافراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات ايضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع **انجلترا** التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال اربع سنوات حتى عام ١٩٥٣،وتقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحاديةلجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ . وشكلت **كندا والولايات المتحدة** لجانا مماثلة وانكب فقهاء **الاتحاد السوفيتي** بدورهم على دراسة الموضوع ، فى اعوام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي. وعقدت فى **فرنسا** عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر المتباينة حول هذا الموضوع الخطير ..

وقبل ذلك جرت فى فرنسا عدة محاولات لالغاء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب فى الجمعية الوطنية فى اعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكنها كلها بقيت دون نتيجة .

وفى السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا لدراسة هذه القضية ومن ابرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للامم المتحدة ، فقد قررت فى نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعى والاقتصادى اتخاذ الاجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسالة عقوبة الاعدام ، ونتائج الغائها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين فى الوقاية من الجريمة ومعاملة المذنبين ، لدى اجتماعها في شهر ابريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقدموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسى انسل "Ancel" الذى قدم تقريره عام ١٩٦٢(٦) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية فى جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٧) .

ولكن لم يتخذ قرار فى الموضوع من جانب الامم المتحدة ، فهو اذن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٥ر٤ من ميثاق الامم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية أو وحشية أو محطة بالكرامة الانسانية » .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على انه توجد ظاهرة تستأهل ان اسجلها الآن ، وهي تقهقر عدد الحالات التى تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التى تعاقب بالموت في انجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينها بعض السرقات العادية(٨) وكان عددها فى فرنسا فى ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

---

(٦) وزع التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٧) وزع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والمدهش ان الجمعية الوطنية المعروفة باسم "La convention" كانت صوتت فى ذلك الوقت على الغاء الاعدام ولكنها حات ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان احد القضاة الالمان فى القرن السابع عشر واسمه "Cartzow" يفاخر بانه أصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء عشرين ألف حكم بالاعدام(٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية فى النصف الاول من القرن الحالي جاءت كارثة عظمى على التطور الالغائى .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين تيارين ، تيار يتمسك بعقوبة الاعدام ويتشبث بها ، لانها ، فى فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذى يرهب به المجتمع أعداءه الشريرين من القتلة والخونة وخاطفى الاطفال ، وتيار يقابل التيار الاول ، ويقارعه حجة بحجة ، وينتهى الى المطالبة بالغاء هذه العقوبة .

ومن الامانة أن الاحظ انه لم تقم فى البلاد العربية ، من اقصاها الى اقصاها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذى الفناه، ونمنا على هدهدته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكرى ، لدى غيرنا دون أن يتاح لنا أن ندلى بدلونا في الدلاء ...

انام ملء جفونى عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

فما هى حجج الابقائيين والالغائيين ؟

انى أود ، فيما يلى ، ان اعرض حجج الفريقين ، ليستطيع كل منا أن يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، مدعمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التى تستمد كيانها من المألوف ، الذى آن لنا أن نعمل على هزه من سباته .

١ ـ التيار الابقائى :

يقول انصار الحفاظ على عقوبة الاعدام ، انها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وامنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

أ ـ هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذى فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعى. فالفرد الذى قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع المجتمع ، أن يتخلى عن الانتقام الفردى، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلى عن حياته ، فيما اذا فصم هذا العقد ، واعتدى على حياة شخص آخر ،وقبلها **لمبروز وغارفالو** وهما من زعماء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لمبروز الشهير ، وهو المجرم بالفطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار أساتذة القانون الجنائى الفرنسى مثل **غارو وغارسون ودونديودوفابر**.

ب ـ **انها عقوبة تكفيرية** ، بمعنى ان الذى قتل آخر فى ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب أن يكفّر بدمه عن خطيئته .

فهى اذن **عقوبة عادلة** ، يتساوى فيها تماما، الاذى الذى أوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان أمام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون :« يداك أوكتا وفوك نفخ » .

---

(٩) الاستاذ محمد عبدالله محمد ، بسائط علم العقاب ص ٣٦

ج ــ **انها عقوبة مخيفة** ، يهلع من هولها قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع الآمن ، فليس أمرا بسيطا أن يعرف القاتل ما ينتظره من حبل يجز عنقه ، ويحرمه من احبابه وذويه ، كما حرم ضحيته من نعمائها واحبائها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون تنفيذ الاعدام أو تبلغهم أنباؤه . فاذا نفذت احكام الاعدام على فترات متقاربة ، بقيت العظة ماثلة في كل نفس ..

د ــ ولماذا تلغى عقوبة الاعدام ، ولم يقم دليل قاطع على أن الغاءها قد ساعد على انخفاض الخط البيانى للاجرام ، أو حتى على الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان كانت مقنعة ، فاننا سننحاز الى رايكم ، اما أن نغامر بقذفه في المجهول ، ونعرض كيان الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا أمر لايمكن أن يقبله رأى حصيف .

هـ ــ هذه العقوبة ، هي الوسيلة الوحيدة للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع واهله بشر مستطير . وكل عقوبة أخرى ، لا يمكن أن تكون ناجعة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كعقوبة بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، الا نادرا ، أن يبقى مجرم سجينا طيلة حياته .. فهو يحلم تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو مرسوم عفو خاص .. يقصر مدة سجنه ، ثم يجد نفسه حرا ، خارج القضبان ، يزرع الذعر والهلع في الناس .

ومن ذكرياتي ،انني عملت مرة علىاستبدال عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالاعدام ، لشقيقين ، كانا يستحقان في نظري هذا الابدال ، ولكن لم تمض الا سنوات لم تبلغ العشر ، حتى كانا طليقين ينعمان بالحرية . الا انني لم أسمع عن معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلا ، يقول اصحاب هذا الراى ، أن المحكوم عليه بقى في زنزانته طيلة حياته ، فانه سيكون في غاية التعاسة ، لا ينفعه ان يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

---

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الاقوال عن محكوم‌عليه بالاعدام :

« لقد طال انتظاري شهورا ، لذلك فانا اعيش في جحيم ..

وفي كل صباح انظر لارى هل نصبت لي المشنقة ام لا ، ولكني لا اجدها ..

وفي كل صباح يجتاحني قلق اشعر به كانه يضغط على حنجرتي ويجعلني ارتجف ..

ان شعوري بانني سوف اعدم يكاد يمزقني ...

ومع ذلك ، فان الاوهام تراودني احيانا ...

اني اعترف بانه لولا الكاهن الى جانبي يعطيني القوة ،لكنت قتلت نفسي لاتخلص من هذه الصباحات المشئومة ».

ونقل عن محكوم آخر قوله :

« بصراحة اني اريد ان اعدم ..

فمنذ احد عشر عاما ، لم اتلق كلمة من والدي ، فهل‌تراه صفح عني .. ؟

وولدي ، حين يحدثونه عني ، يرفض الاعتراف بي ..

وزوجتي تزوجت .. وبذلك تهدمت الاسرة ..

اليس هذا عقابا كافيا ؟

ان الرغبة في الحياة لا تزال تنقصني .... » .

لاعادة تأهيله ، مادام سيظل قابعا فى مكانه حتى الموت ... انها حياة عذاب نفسى لايطاق، لانها لا يلوح على آفاقها طيف من اطياف الفرج ..

و ــ أن الرأى العام قد الفها ، واطمأن اليها . والبحث فى الغائها سيثير اعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية ، من أجل عدد ضئيل من القتلة والاشرار ؟

ولقد رأيت أن احاور طلابى وطالباتى من السنة الرابعة حول هذه العقوبة ، فاستفتيتهم فى ابقائها أو الغائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالغاء ، واجمع الآخرون على الابقاء .

أما الطالبات ، فكن ، باجماعهن ، مع الابقاء ...

ز ــ ويضيفون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفاكا سنين طويلة ،ويتكبد المجتمع نفقات حراسته واطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ اليس من حقٍ دافعى الضرائب ، ان يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعا فيها ؟

ولكنى أود أن اعلق على هذه الحجة ، بأن حياة الفرد تظل دوما أثمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفاعا عن مبادىء عليا ، ويمكنها ان تشغلهم مقابل ذلك .

ح ــ ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم انه نظام ديموقراطى،اى انه يخضع لحكم الاكثرية، فان من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، أن يستشير الشعب فى قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره أكثرية . وهم قانعون أن الشعوب اذا استفتيت ، فانها ستقف الى جانب عقوبة الاعدام .

ط ــ لا ريب في أن الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، أن عقوبة الاعدام قصاص عن جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية فى الخطورة. وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل من قائل « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) .. وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه أن يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب فى العفو بقوله : « وان تعفوا أقرب للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) « .. وقوله» .. فمن تصدق به فهو كفارة له « .. (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به **أبو حنيفة** القصاص . فعنده أن القتل بغير المحدد لا يستوجب القصاص ، وانما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسم ، وهو من أفتك وسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية أبى داود عن النبى عليه الصلاة والسلام : « الا أن في قتيل خطأ العمد قتيل السوط والحجر مئة من الابل » ..

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع فى جرائم القتل العمد بين ذوى الارحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الازواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العبد ، بشبهة التملك(١١) ، ولا القتل الواقع فى اثر الرضا . والقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وابى حنيفة والصحابيين . واذا رجح هذا الراى ، فانه يقدم لنا حلا شرعيا لمسالة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالاوتانازيا ...

٢ ــ التيار الالغائى :

يذهب الذين يطالبون بالغاء عقوبة الاعدام ، الى انها عقوبة لم تثبت جدارتها للبقاء ، ولاخير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الاول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجججديدة ، يرونها كافية لزعزعة البنيان العقابى القديم وتهديمه . ويأتى فى مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعى الجديد ، على لسان احد رؤسائها المستشار آنسل(١٢) .

وفيما يلى ما يعرضون من الادلة :

أ ــ يقولون ، أن الذى منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق أن ينوب عن الخالق فى انتزاع روح مخلوق آخر . فهى مخالفة للمبادىء الفلسفية العامة .

ولكنا رأينا أن الفقهاء المسلمين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه فى محكم التنزيل قال تعالى « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب ــ وانها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ؛ لانه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتا فوريا ، ودون الم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالالم ....

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى ان استقرت اليوم على المشنقة والرصاص ، والجيلوتين ، والسيف ، وغرفة الغاز ، والصعق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج ــ انها عقوبة غير منطقية ، لانها « قتل منظم » كما يقول بكاريا ، تضفى عليه الدولة الصفة الشرعية . فالمجرم يرتكب جريمته ، ولا يستطيع احد ان يؤكد تحت اى دوافع اندفاعية او مرضية ارتكبها ، فى حين ان المجتمع يقرر اعدامه ، وينفذه ، وهو بارد العصب ، هادىء النفس . فالدولة حين تعدم شخصا ، فانها لا تمحو آثار جريمته ، وانما تعاود ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى ، وكأنها تكرر مع الشاعر قوله « وداونى » بالتى كانت هى الداء » ...

د ــ انها عقوبة غير مفيدة ، خلافا للزعم القائل بأنها رادعة مانعة .

فلم يثبت أن البلاد التى الغتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت أن دولة النمسا

---

(١١) انظر فى ذلك ، محمد ابو زهرة ، الجريمةوالعقوبة فى الفقه الاسلامى ص ٢٨٠ وما يليها .

(١٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذى كتب يقول :
« اننا نود ان نجيب فورا وبصراحة ، بان مذهبالدفاع الاجتماعى ضد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسسها الثلاثة : التكفير expiation ومعاقبةالخطا retricution والردع . intimidation

حين أعادتها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الاجرام ارتفع فيها كثيرا . قد رأى النائب العام الامريكي رامسي كلارك Ramsy Clarck أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الامريكي يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هذه العقوبة « قد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به ـ وطالب بجرأة بالغاء عقوبة الاعدام . ومن ابرز سوءات هذه العقوبة في نظره ، أنها تتقوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة اعادة تأهيل المجرم ، وعنده أنها لا تصلح لمجتمع متمدن ، ارتقت عنده المفاهيم الخلقية والاجتماعية .

هـ ـ وانها **عقوبة ظالمة** ، لأن القاضي مهما أوتي من المقدرة العامية لا يستطيع هو ، أو أعوانه من أصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لانها شيء مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يدركه الا الله سبحانه وتعالى .

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الارادة ، واكتفت بفكرة « العادية » ، la normalite وهي تقصد بذلك ، أن المرء يعتبر مسئولا عن فعله ، اذا كان **يريده** ، **ويدرك مداه** . فالادراك والارادة هما ركنا المسئولية الجزائية . وليس من شك في انهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metaphysiques وبهذه الصفة لا يستطيع احد أن يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمين حين ارتكاب الجريمة ، وان سلامتهما شرط لقيام المساءلة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئا وهميا لا وجود له ، ويكون الحكم بالاعدام ، من ناحية اقرار المسئولية ، قرارا لا يستند الى سند اخلاقي صحيح ، ينزهه من المطاعن .

و ـ وهي **عقوبة غير زاجرة ولا رادعة** . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ آماد بعيدة . والواقع أن الانسانية بدأت تطبيق اعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقا زاجرة ؟

فقد اعدم **في ايران** ، عام ١٩٧٠ ، على سبيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربي المخدرات ، في سنة واحدة .. ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشانق فيها ، تجتذب اعدادا متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

واذكر ، بهذه المناسبة ، **انه أعدم في الكويت** قاتل منذ سنتين ، ولم تمض أيام ، حتى قرانا في الصحف عن جناية قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الاعدام ، ثم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما ... فهل حركت رؤية المشنقة شهيته الى أن يكون بطل حفلة مشئومة ، يستقطب فيها انظار الحشود ، وهو التافه الذي لا يثير ، في الحياة ، انتباه احد ؟ .. اذن يكون الاعدام في هذه الحال ، محرضا لبعض الشواذ المغرمين بحب الظهور ، والسيئي التقدير ، على ارتكاب افظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجر او ردع !

ز ـ لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزي شائن فيها . فالوقائع تدل على أن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالاعدام من الفقراء البؤساء ، ان لم يكن كلهم . أولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون أخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانيا لأن

الاستعانة بمحامين مشاهير ، وخبراء عالميين ، تثقل كاهل الضعيف ، وتاتى نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات فى امريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزنوج فيها ينال القسط الاكبر من هذه العقوبة ، لان المجتمع الابيض مشبع ضدهم بالافكار السيئة ... وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فمنذ عام ١٩٣٠ نفذ حكم الاعدام فى ٢٠٦٦ اسود و ١٧٥١ ابيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان !.

٨ ـ وانها لعقوبة خطرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافى ، في حين أن سائر العقوبات الاخرى ، يمكن ان يتلافى فيها الخطأ . فاذا نفذ حكم الموت فى شخص ، ثم ثبت خطؤه فان الفارط يكون قد فرط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع اخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الانسانى .

واسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، أن المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وانه سيد البينات . فهل تريدون عدلا أكثر من أن يدين المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت باصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك ان شخصا اتهم بقتل امراة ، و« عولج » فى دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقاء جثتها فى النهر ، فاعدم وبعد عامين عادت المراة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الي بعض أقاربها فى منطقة أخري .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل ثرى والقائه فى بئر ، وتمرست به اكف الصابطة القضائية وعصيها ، حتى ادلى باعترافات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن احد المسئولين ، لم يرتح ضميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة احد اصدقاء القتيل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداده ، وأنها عاونته فى نقل الجثة الى البئر .

ويقولون ايضا : كثيرا ما تؤيد الجريمة بشهود عيان ، يحررون ضمائرهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول ؟

ان الشهادة بينة من البينات العديدة ، ويجوز أن تأتى فى المؤخرة من قافلة البينات .. فقد اثبتت الدراسات الجدية الحديثة ، ان كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها .. فالشاهد قد يخطىء ، لضعف فى الذاكرة او فى حاسة الرؤية او السمع ، وقد يخطىء لاصابته بمرض عصبى ، يثيره منظر الجريمة ، وقد يكون مدفوعا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرف فيها ما شاء له التحريف ، وبذلك يضلل القضاء .. ولعل رجال القانون المدنى يعرفون حقيقة قيمة الشهادة فى العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لاثبات مبلغ صغير من المال .

واذكر اننى ترافعت مرة عن متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود انهم رأوه باعينهم وهو واقف امام باب الجامع يطلق النار من مسدسه عيار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا أمام باب المدرسة فقتله .

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه من أجلها ، وقضى مدة عقوبتها . اذن كانت النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود يحملون عن ضمير المحكمة ، عبء اتخاذ قرار حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة . وشاءت ارادة الله ، أن أكون عارفا بالمنطقة ، ورحت اتجول فيها . فوجدت أنه لم يكن فيها الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخم ، يجعل من المستحيل على الرصاصة ان تبلغ حالب الشرطي . فقد كان عليها ان تسير موازية للارض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة اعلى البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم تنخفض الى الارض ، ثم تعدل مسارها على موازاة الارض ، وتتجه باتجاه الشرطي ، فتصيبه وتقتله ... وحين ثبت للمحكمة كل ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته بمهارتي ، وانما لمحض الصدفة الماثلة بقيام بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور ...

ومن المحقق أن رجال القانون الجزائي يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الاثبات الاخرى ، ولكن الاخطاء فى قراءتها كثيرة جدا .. هى أيضا . انها حقا لا تخطىء ، ولكن المختص هو الذى يقع فى الخطأ ، فيضلل القضاء ..

ففى قضية : اتهم زوج بقتل زوجته بالسم الممزوج بالكحول ، ولما يمض على زواجهما غير شهرين ، كانا فيهما ، على أحسن ما يكون تفاهم بين زوجين .

وارسلت احشاؤها الى التحليل ، فجاء الجواب ، ان كمية الكحول فيها مخيفة .. وطالب النائب العام باعدامه .. ولكن المحامى اكتشف أن مساعد الطبيب المحلل كان ينظف الاوانى الزجاجية بالكحول ، وأنه وضع الاحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية كبرى منها ، ولذلك ظهرت فى التحليل كأنها اداة جريمة .... وانقذ هذا الاكتشاف المتهم .. ولكنه اكتشاف تم بطريق الصدفة .

بل أن تطور الفكر العلمى نفسه ، قد يلعب دورا فى تجريم المرء او تبرئته : فقد صدف ان اتهم صيدلى فرنسى ، اسمه Denval بقتل زوجته بالسم ،واكتشف التشريح وجود بعض مليغرامات من الزرنيخ في جسمها ... فأدانته المحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالاعدام ، بل قضت عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .. وظل المسكين يعلن ، على مدى عشرين عاما وهو فى السجن ، انه برىء .. حتى ثبت علميا عام ١٩٢٣ ، أن جسم الانسان العادى ، يمكن ان يحتوى ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوى الحاد . L'insuffisance surrénale aigue ، تبدو أعراضه كأعراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت اعادة محاكمته ، فتبرأ وعاد الى الحياة شيخا متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة ..

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند الاعدامات التى تتم ، فى أعقاب الانقلابات العسكرية ، وخاصة الفاشلة منها . ذلك أن المرء ليشعر بالغثيان ، عندما يعلم أن ثلاثة من « الجزارين » يسوقون الى حمامات الدم ، قوافل خصومهم ، دون شاهد يشهد أو محام يدافع .. ويعلنون في الاذاعة بأن المحكمة اصدرت احكامها باسم الشعب ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **مدام رولان** ، وهي تصعد الى المقصلةفيعهد الثورة الفرنسية:

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة» ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن نقتل حتى لا نقتل » .... **وتباً لهذه العدالة** ، وتباً لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظرى بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام فيالتشريع وفي التطبيق ؟

الامر الذى لا شك فيه ، هو أن عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الاخير كثيرا من مكانتها وهيبتها ! ومن المحتمل جدا ، أنه لولا الاحداث التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها أكثر ضعفا ، وكانت الافكار أكثر تقبلا لالغائها ، أو تقليلها جدا على الاقل .

ففي القرن التاسع عشر ، الغتها عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، **والبرتغال** عام ١٨٦٦ ، **وهولندا** عام ١٨٧٠ ، **وايطاليا** عام ١٨٩٩ . وفى هذا القرن العشرين ، الغتها الغاء قانونيا أيضا ، **النرويج** عام ١٩٠٢ **والنمسا** عام ١٩١٩ ، **والسويد** عام ١٩٢١ ، **والارجنتين والدانمرك** عام ١٩٣٠ ، **واسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك الغتها **بعض ولايات امريكا الشمالية** .

كما أن بعض الدول الغتها **الغاء واقعيا** ، اى انها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفى مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التى لم تنفذ عقوبة اعدام واحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الاخيرة ، اصدرت انكلترا عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ، قللت بهعدد الجرائم المعاقبة بالاعدام ، واصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل العمد) ، الغت بموجبه عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفى هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي واصدرت قانونا عام ١٩٧٠ الغت بموجبه عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحذت حذوها **كندا** ، فالغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **المانيا الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤/ مايو ١٩٤٩ على الغائها . وقد شكلت الحكومة الالمانية لجنة من اثنى عشر عالما ، بينهم الجزائى وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجى والمحامى والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام١٩٦٢ ، انتهت فيها الى ضرورة الابقاء على الغاء هذه العقوبة .

ولم تبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففى عام ١٩٦٢ الغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفى عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيوجيرسي ، بأكثرية ٦ اصوات ضد صوت واحد ، أن الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ فى أمريكا حكم واحد بالاعدام ، وفى ذلك التاريخ أعدم فى غرفة الغاز مجرم قتل زوجته وأولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بانه فى هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهى مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بأن احكام هذه المحكمة نافذة فى كل امريكا ولكن يتضح من حكمها انه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوت اربعة منهم ضد الالغاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذى عينهم . أما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بانهم مع الالغاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الاحصاءات الى أن الجرائم المعاقبة بالاعدام فى هولندا لم يزد عن عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الغاء العقوبة . ويسترعى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في المانيا الغربية ، منذ الغاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الغاء العقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ الى ٣٠١ ، واصبح عام ١٩٦٠ ، ٣٥٥ حالة .

على أن الامانة فى البحث ، تقتضينى ان الاحظ ، بأن عددا من الدول التى الغتها ، أعادتها بعد تجربتها ، فقد **اعادتها ايطاليا** عام ١٩٢٥ ثم الغتها ثم اعادتها عام ١٩٣٠ ، واعادتها **زيلاندا الجديدة** عام ١٩٥٠ ، ثم عادت فالغتها عام ١٩٦١ ، والغاها الاتحاد السوفييتى عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من اجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، واعادها مرسوم فدرالى صادر عام ١٩٦٢ من اجل جرائم الرشوة والاغتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى فى العام الماضى استفتاء في ولاية جورجيا الامريكية ، صوت فيه ثلثا الناخبين على اعادة عقوبة الاعدام ، فاعيدت تشريعيا ...

واود ان اسجل لهذه المناقشات والمحاولات انها اثرت عمليا فى واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التى لا تزال تحتفظ بها فى تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا فى تنفيذها .

ففى كندا (قبل الالغاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من اصل ٥٩ وفى **المغرب** نفذ ١٥ حكما من اصل ٤٣ **وفى لبنان** (قبل المأساة) نفذت ٤ احكام من اصل ٣٠ ، وفى فرنسا لم تصدر المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ احكام بالاعدام ، نفذ منها اثنان فقط . وفى انكلترا ، صدر ما بين ١٩٥٤ ــ ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفى **مصر** نفذ ٦٦ حكما من اصل ١٠٣ ، وفي **تركيا** نفذ الحكم فى ٣٢ شخصا من اصل ٣٣ ، وفي **اليابان** نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الذهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التى تعاقب فى ايامنا هذه بالاعدام ، واى البلاد تعاقبها ... وقد رايت اتماما للفائدة ، أن اذكر فيما يلي هذه الحالات ، والى جانبها البلاد التى تتبناها .

---

(١٣) هذه الاحصاءات ماخوذة من دراسة للامم المتحدة عن الفترة ما بين ١٩٥٩ ــ ١٩٦١ .

الجرائم الموجهة ضد الاشخاص :

١ ــ **القتل مع سبق الاصرار** : وهو معاقب فى الغالبية الساحقة من البلاد التى تحتفظ بعقوبة الموت ، وفى مقدمتها ، اوستراليا وكندا والشيلى والصين واسبانيا وبعض ولايات امريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند وايران ، وانكلترا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا والاتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وجميع البلاد العربية .

٢ ــ **القتل العمد** : (اى العادى غير المقترن بالاصرار) ، وهو معاقب بالموت فى بلاد قليلة ، اكثرها افريقية ، ولكن لاحظت أن السودان من البلاد العربية وبولونيا من المعسكر الشيوعى ، والباكستان من هذه الدول القليلة .

٣ ــ **القتل أثناء مبارزة** : وهو مقصور على عدد من الولايات المتحدة الامريكية .

٤ ــ **جريمة الغش** : وهى موجودة ايضا فى بعض الولايات المتحدة الامريكية .

٥ ــ **التسميم** : معاقب بالاعدام فى فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض الجمهوريات الجديدة .

٦ ــ **قتل الاب او الام او الولد** : ويعاقب بالموت فى فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب والعراق واليابان وغيرها .

٧ ــ **القتل الذى يرافق او يعاقب ارتكاب جريمة** : وهو معاقب بالموت فى لبنان ومصر والعراق ، وانكلترا واسبانيا وغيرها (واكثر ما يصادف هذا الجرم فى أثناء السرقة ، او قطع الطريق او القرصنة) .

٨ ــ **قتل شرطى او موظف أثناء الخدمة ..**

٩ ــ **ضرب أو جرح ولد بصورة عنيفة** : فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ ــ **الحريق العمدى الذى نجم عنه موت احد** .. فرنسا ، مصر ، العراق ، ايران ، اليابان ، المغرب ،انكلترا ، تركيا ، يوغوسلافيا وغيرها .

١١ ــ **الاشتراك** complicité فى انتحار ولد أو مخدر او مجنون .

السودان ، أركانساس الامريكية ، الهند ، الصومال .

١٢ ــ اجهاض امراة تسبب فى موتها .

١٣ ــ اغتصاب امراة بالعنف :

أ ــ اذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا والفلبين .

ب ــ أو الاغتصاب العادى : الصين ، بعض الولايات المتحدة ...

١٤ ــ الخصماء الذى يعقبه الموت .

١٥ ــ المتاجرة بالمخدرات فى بعض حالاته الخطيرة : تركيا ، ايران ، الصين ، بعض الولايات المتحدة .

١٦ ــ خطف القاصر :

١ ــ بعض البلاد تشترط موت المخطوف : فرنسا ، المغرب .

٢ ــ بعضها لا تشترط ، وانما يجب أن يتم فى شروط خاصة ، كطلب فدية (الشيلى وبعض الولايات المتحدة) .

١٧ ــ الاعتقال التعسفي مع التعذيب الجسدي : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلوفاكيا .

١٨ ــ الشهادة الكاذبة التي تسبب في صدور حكم بالاعدام :بعض الولايات الامريكية وفرانسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ ــ العدد بعد الحكم باطول عقوبة مانعة للحرية ، أو اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلى ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ ــ الاضرار الخطيرة التى تتسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب ــ الجرائم الموجهة ضد الاموال والجنايات الاقتصادية :

١ ــ **السرقات الموصوفة** : أو المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرانسا ، اليونان ، أفريقيا الجنوبية ، التوغو .

٢ ــ **القرصنة مع العنف** : أو ستراليا ، كندا ، شيلى ، اسبانيا ، جبل طارق ، غواتيمالا ، وغيرها .

٣ ــ الاحتكار أو رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة: الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ ــ تزييف النقد والمضاربةعلىالعملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ ــ الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا.

جـ ــ الجرائم الموجهة ضد الدولة والنظام العام :

١ ــ الخيانة : دول كثيرة .

٢ ــ التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالى، فرانسا، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوساوفاكيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا ..

٣ ــ الاتصال بالعدو intelligence أو التعاون معه ... دول عديدة .

د ــ الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ ــ العصيان المسلح والثورة أو التآمر على الدولة .

٢ ــ القتلُ المرتكب أثناء اضطرابات émeute أو ثورة : بعض ولايات أمريكا .

٣ ــ الاعتداء على سلامة رئيس الدولة: (وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ ــ النهب pillage والقتل الجماعى massacre والتخريب Devastation **والافغان** تعاقب الزنا بالموت .

والآن ، ماهى الحكمة التى يجب أن نستخلصها من هذه الدراسة،بالنسبة لتكوين رأى فيما يخص الغاء الاعدام أو ابقاءه ؟

هل كانت آراء الابقائيين مقنعة ؟

أم أن آراء الالغائيين ، والتطور الذى حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ، وأكثر ثقلا فى ميزان المقارنة ؟ أنا لاأظن أن أية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع أن تنال

اجماعا أو شبه اجماع ، فى مشكلة شـديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانيـة ، قبل كل شيء ، ومن شأنها أن تلامس بقوة أوتار كل نفس ، فتحركها ، فى الوضع التى هى عليه . فلا نحاول اذن أن يعمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكوّن كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولى راى فى الموضوع ، أود أن أعرضه، كونته لنفسى بعد اربعين سـنة فى رحـاب القانون ... ولست أزعم انه نهائى بالنسبة لى ، فقد اغيره ذات يوم ...

انى ارى ابقاء عقوبة الاعدام فى القانون، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصـة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للفدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والعجزة ... طمعا فى أعراضهن أو أموالهن ...

وارى ان تتشدد المحاكم فى قبول البينات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، اى ظل للشك فى نفس القضـاة ... والا يكون عليهـم اى سلطان فى قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وأن تقف فى وجه الرأى العام ، اذا أثارته الصحافة أو الدعاية، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تأثر أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، أن تمتنع عن الحكم بالاعدام على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تعاقبهم به ، كما جرت العادة أن تقلل هذه الاحكام على النسـاء ، وخاصة الحوامل منهن ، وعلى المصابين ببعض من شذوذ فى التفكير والمحاكمة ، لايصل الى درجة منـع المسئولية ... وهـذا تعامل ، وليس حقـا مقررا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم عجوزا وقتلها بسبع عشرة طعنة من سكينة ، ليستلب منها ما اقتصدته لايامها الاخيرة ، كما قررت اعدام امراة تآمرت مع عشيقها علـى الخلاص من الزوج ، فقتلاه ، وقطعاه وجعلا جسده سمادا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزهورها حين ازهرت، وهما يقطفان ثمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله الستر عنهما ، فأسـلمت عنقاهما الى الجلاد ... جزاء وفاقا .

ويأتي دور رئيس الدولة ، كملاذ اخير ، باستعماله حق العفو فى حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليـه الا شـعوره بالمسئولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة أن يمارس هذا الحق بشيء من السـخاء ، وخاصـة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلـى سبيل المثال ، ابدلت ٨ احكام بالاعدام فى استراليا من أصل ١٠ ، وابدلت ١٧ حالة فى فرنسا من أصل ٣٤ ، و ٣٤ فى كندا من أصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع عن تصديق اى حكم بالاعدام ، خلال رئاستين متواليتين ... ولم يلاحظ احد أن حبل الامن اضطرب ، أو أن الاجرام ازداد .. بل كنا نلاحظ ان المشانق تنصب فى الساحات العامة ، فى الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور، وقلب الحكم ، لارهاب الناس.

وبتعبير اوضح انى أريد لهذه العقوبة أن تظل تظل فى التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

---

(١٤) انظر تقرير Norval Marris السابق ذكره ص ٢٢ .

وليس لتطبق باستمرار . ولقد أتيح لي ذات يوم أن أتولى تنفيذ اربعة قرارات جمهورية تقضي باعدام اربعة مجرمين .

أحدهم عبث بزوجة ابيه ، وعاشرها معاشرة الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، واخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد رأسه بحجر كبير ، ودفنه في حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته .

وثانيهما ، غريب استضافه محسن في بيته ، فطمع في زوجته ، فقاومته ، فقتلها وجرح اثنتين هبتا لنجدتها .

الثالث ، قاتل مأجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسيء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبيبا انسانيا بانه يعاون عليه خصومه فتربص به وقتله ، ثم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وانا أوقع أوامر التنفيذ ، بالابرياء والثكالى والايتام ، وهم يذهبون ضحية بعض الاشقياء في ظروف تدعو الى الرثاء والبكاء . وأمام دموع الصغار الذين لفهم اليتم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن أو ابنائهن ، لا يمكن للمشاعر الا أن تتحرك ، وللنقمة الا أن تشتد . وفي مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقا على ندوة تلفزيونية عرضت في فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذيع اشخاصا من مختلف الاتجاهات ، ولفت نظري جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم أثم ، وطالب بالفدية ، ثم خشي أن يعرفه الصغير فخنقه ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدي ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلني بالاقتصاص له .. فاذا أفرج عن قاتله ، فاني سأثأر لولدي ، وأقيم العدالة بنفسي » ...

ويترتب على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التي يمنحه اياها الدستور والقانون وانه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حبًّا به ، ولكن زيادة في الاحتياط ضد مزالق الزلل ، ورغبة في التشدد في اقامة عدالة سليمة . وهذا يعني واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا تجاههم بواجب الدفاع على وجهه الاكمل ، حتى يكون تساو بين كفتي ميزان العدالة ، أي كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها أهمية كبرى . ثم اننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنايات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكافهم وهم في قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين ايديهم قبل مدة كافية ، فيقف المحامي ليقول: لما كانت التهمة غير ثابتة على موكلي ، فاني أطالب له بالبراءة ... هذا التعامل يعني طعن العدالة في صميمها ، والاستخفاف بحقوق أشخاص قد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

واني لاشعر أن هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم أشر الى عقوبة الاعدام في الجرائم السياسية .

(١٥) Le Figaro 13 / II / 1975

انى من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا استثنى من ذلك ، الا جريمة الخيانة فى حالاتهـا الفظيعة ، لأنهـا تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذى قد يعرضه بخيانته الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك أن المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى الاصـلاح وحـرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى فى وحدة قومية ، أو تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره أشمل من خطر المجرم العادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا أن الذى يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالى النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله فى المدينة الفاضلة ...

وانى لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قاتمة، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد أسود

ولو أن الذين حكموا على تلك الزهرات الحلوة من أصحاب العقيدة الوحدوية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام، لكان مقدرا أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس، ويعود الصفاء الى الاعصاب ، وترتفع راية العدالة ، بعيدا عن التصفيات الجسديـة ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فان كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الذميم ، القانون والسيف .

ويا بلادنا ، التى انهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيـك القانون ، ويحترم الانسان ، وتصان الحريات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم» واحسن تكريم له أن تصان انسانيته ، ويزول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعرى ، القائل :

ما دامت الخيـــل والانعـام خائفة

فرسا ، فما صح أمر النسك للاسد

* * *

المراجع

Jean Imbert : La peine de mort.
P.U.F. 1972.

J. Ancel : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le probléme de la peine de mort. in Revue des sciences criminelles 1963.

J. Graven : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mèmoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.

Norval Morris, Rapport publie par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10

Vouin : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.

Thorsten Sellin : la peine capitale et le procés pènal, dans :
Problèmes contemporains de Procedure pènale, Paris 1964.

R. Merle, Les aspects théologiques de la peine de mort‘ dans :
" Travaux du Colloque sur la peine de mort Organise à
Athenes en 1960.

Oerton : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.

Savey = Casard : L'Eglise catholique et la peine de mort,
meme Revue : 1961.

Vernet — Joseph, Enquete prealable a la peine de mort
meme Revue, 1966·

Thierry Lévy, l'znimzl jufivizitr, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجزائيين العرب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .

★ ★ ★

أدباء وفنانون

ميخائيل نعيمة
ناقداً أدبياً

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

ليس النقد الادبي عند ميخائيل نعيمة الا وجها من نتاجه الأدبي المتنوع ، والذي يشكل ، في النهاية ، نظاما تفكيريا واحدا من حيث النوع والمدى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما ان كل انتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله — على بساط البحث لكي نتعرف بوضوح الى نظامه النقدي في صورته الأكمل . وعندما اردنا ان نتبين نتاجه النقدي وجدناه متوزعا في اربعة مناحٍ :

١ — رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين أرسلوا اليه نتاجهم فيعرض نعيمة في هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهي كثيرة : بعضها منشور في الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ — المقدمات التي يكتبها لدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ — الأحكام والآراء والملاحظات في الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبي أو الفلسفي او السيرة .

٤ ــ كتاب « الغربال » الذى يضم احدى وعشرين مقالة توزعت فى ثلاثة محاور :

أ ــ مقالات عن النقد البناء : الغربلة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب ــ هجوم عنيف على الأدب التقليدى والتبحر اللغوى : الحباحب، نقيق الضفاضع، وهجوم على العروض التقليدى : الزحافات والعلل . وهناك مقال قصير جداً يدعو فيه للترجمة .

ج ــ النقد التطبيقى : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الريحانى فيعالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، اغانى الصبا ، النبوغ ، شكسبير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف، الفصول .

وهكذا فسمة تاليفه النقدى ، على الاطلاق، هى المقالة . وكان أول مقال نقدى له (١٩١٣) **يدور حول رواية الأجنحة المتكسرة اذيقول :** قرات الرواية فاستفزنى لكتابة مقال فيها دعوته « فجر الأمل بعد ليل اليأس » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدى حبرته ، فكان فاتحة حياتى الأدبية . وقد نددت فيه تنديداً مرّاً بجمود اللغة العربية فى خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة فى داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبهرجات الفارغة والتقليد المميت » (٢) .

وعلى هذا ، لاينطلق نعيمة فى مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فنى محدد ، فاذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فان الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، فى منتهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، واذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسار القواعد الضيقة ــ مهما وسعت ــ ليكون وجه الحياة اذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضا بل (لو شئت أن أحدد النقد بكلمات ثلاث لقلت انه عمل الحياة الدائم) (٤) انه حاجة مستمرة وملحة لكى تبقى الاشياء والحياة فى قيمتها المتالقة المنشودة « فنحن مدعوون فى كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتمييز والاختيار ــ أى الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، **فالحياة هى الانتقاد والتجدد (٦).** انه بحث مستمر عنحقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو اذا شكل الحياة بل سُنّة من **السنن التى تقوم بها الطبيعة والطبيعة اكبر** مغربل ... الغربلة سُنّةُ الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

---

(١) دمج نعيمة قسما من هذه المقالة فى مقال « الحباحب »المدرج فى الغربال (دار صادر بيروت الطبعة الثامنة ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ ــ ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط اولى ، مطبعةلسان الحال ، بيروت ١٩٣٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠) المرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الغربال ص ٣٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الاديب والناقد » دروب (ط ٣/دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ١٧٠ .

(٥) دروب ص ١٧٢ .

(٦) الغربال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

يتحول نعيمة بمسألة النقد ومشكلة تعريفه من قضية فنية الى موقف أخلاقى ، يبين بالتالى خطـر مسؤوليتـه وفداحة مهمته ونتائجها « فالفن أخلاقي ولابد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد ـ ككل انسان ـ مفروض عليه « ان يصحح » ما يراه أو يعتقد أنه خطأ ، وعدته فى ذلـك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له اخيرا مجـال الاختيار ، فيكـون نشاط. النقـد التزاما للحيـاة واشـيائها ، وارتباطا عضويا بها . من هنا بان من الضرورى التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والانسان ... ان الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقدين منا وفينا لفرق شاسع جدا، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها . اذ ليس ماهو خارج عنها لتوجه اليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتهـا فهى تنقدنا كذلك فى كل لحظة من وجودنا . فى حين اننا ننقد الآخرين وقلما نوجه نقدنا الى انفسنا (٩) فيقيم المقارنة على مسـتوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو امر يصدر عن خطأ مبين يغفـل التمييز السـوى بـين النقـد الانساني وما سماه نقد الحياة . فالقول بأن الحياة تنقد ذاتها بذاتها لايمكن ان يعنى عندنا الا ان الحياة تملك من نفسها وفى نفسها طاقة الحركة فتتجدد وتستمر فاعلة ، غير اننا نرى ـ فى هذه الحال ـ ان هذه الظاهرة لايمكن أن تكون الا بواسطة الانسان ، فهو أولا يعي ذلك ويقـدره ، وقيمة الشيء فى معرفتـك به ، ووعيك له . وثانيا لانعرف كائنا آخـر يملك الحس والارادة والتمييـز والاختيـار غـير الانسان. فالحياة لاتختار وانما تعرض أشياءها عرضا ، وبقاء الشيء والموجود رهن بحاجـة الانسان وارادته له ، ثم أوليس الانسان هو محرر الحياة ـ على حد اشارته ـ وأن قواه هى التى ترينا فى دياجير الحياة وميض أنوار تحببها الينا (١٠) ... وان « لاقيمة لعمـل يأتيه (الانسان) الا بمقدار مايدنيه ذلك العمل من معرفة نفسه او يقصيه عنها ؟ وسواء ادرك ذلك أم لم يدركه فهو ابدا يقيس كل مآتيه بهذا المقياس فيهمل منها مالا يزيده بنفسـه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهرا من مظاهر نفسه (١١) . وأما ان الحياة تنقدنا فى كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهـذا ايضا الا على أساس انها مجال نشاطنا ، واذا نحن سليل تفاعل مع اشيائها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الانسان أساسه ومحوره ، اذ لاوجود للاشياء الا بنا . كذلك تقف موقف الحذر من قوله « فى حين أننا ننقد الغير وقلما نوجه نقدنا الى أنفسنا » على أن هذه الظاهرة تبـدو صحيحة وواقعـة ، للوهلة الأولى ، لدرجة انها تكاد تعمى وراءها حقيقة أبعد ، ذلك ان نقد الآخرين انما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن فى العمليـة النقدية لا يهمنا الناقد والمنقود ، بـل الاهـم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات انسانية ، فكل مظهر ذاتى ، بل اى مظهر ذاتى ، انما هو فى الحقيقة مظهر انسانى ايضا ، وفى آن . فاذا كان مجال عمل النقاد ماكتبه غيرهم وما انتجوه فان مادة هذا المعطى وهـذا النتاج انما هـى الحياة « ان النقد الحق يأخذ مادته والهامـه من الحياة » (هدسن) .

وهذه هى الحلقة الدائـرة التى ينهجهـا النشاط الابداعى :الحياة الأدبالنقد ،ليصب

---

(٨) راجع ستانلى هايمن : النقد الادبى ومدارسه الحديثةج ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع الغربال ص ٢٣ ـ ٢٥ .

(١١) الغربال ص ٢٥ .

النقد ، أولا واخيرا ، فى الحياة ، اى النفس الانسانية بكل مالها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكاتب الحق فى الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغربلة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان ندعوه أدبا . فمهنة الناقد اذا هى غربلة الآثار الأدبيةلاغربلة اصحابها « (١٣) فيكون النقد « أدبا على الأدب » اى أن مادة الناقد الأولى بديل أن تكون من الحياةالمشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلفة » والمعبر عنها بالدرجة الأولى من الشاعر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة انلتبيان مكانةالنقد بالنسبة للانتاج الأدبى علينا ان نعرف اولا حدود العمل الادبى نفسه ،وحدودالاشكال الثقافية الاخرى والتى تمسه بشكل أو بآخر ، وعلى هذايتبين وظيفة النقد لاعلى أنها غايةبذاتها بل « القصد من النقد الأدبى هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والقبيح ، بين الصحيح والفاسد »(١٤) فينهج بذلك نهج اليازجي خاصة والنقد العربى عامة ويتفق مع ما تقدم من نظراته تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى، عبئها ـ الى حد ما ـ انها تقرر نوع المقاييس الأدبية والفكرية التى تسود ، فى زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المنشود . ولكن لمن يقرر الناقد ذلك (او على الاقل يمهد للتقرير) : للكاتب أم للقارىء ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله يغربل به نفسه كيف شاء (١٥) فان لكل منا أيضا « عواطف وافكارا مشتركة هى نتاج مجهوداتنا الأدبية المشتركة. وغربلة هذه هى وظيفة الناقدين » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت عمقا وعنفا ومدى بتفاوت البواعث التى تبعثه ثم بتفاوت القوى التى تعيه وتتأثر به . وهذه القوى هى العقل والوجدان والخيال والذوق والارادة . وهى لا تتساوى ابدا عند اثنين من الناس . فكيف بها تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكاتب :

من هنا تكونعلاقة الناقد بالكاتب، فهو يعبر عن القلق الذى يثيره العمل الادبى فيه ، ثم رغبته فى التخلص من ذلك القلق . فالكاتب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكاتب فيما يكتب انما يعبر عن قلق تثيره فيه حواسه الخارجية والباطنية من أوضاع يعينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . ويأتى الناقد ليعبر عن القلق الذى يثيره فيه عمل الكاتب وعن شوقه الى الانعتاق من ذلك القلق (١٨) . اى ان محور العلاقة بين الكاتب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكاتب من جهة أخرى هى علاقة اثارة . « فمن يريد ان يثير

---

(١٢) الغربال ص ١٤ .

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣ .

(١٤) الغربال ص ١٥ .

(١٥) الغربال ص ٢٢ .

(١٦) المصدر نفسه .

(١٧) دروب ص ١٧٥ .

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

مشاعر الآخرين عليه ان يتاثر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذاتبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد ـ اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابداعا . فالناس ليسوا على مستوى شعورى واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدا مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستمداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا يتحصل لدينا ان قلق الناقد أوسع ، بل أحد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبى نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبى من قلق صاحبه الباعث الأول له .واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يعي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى فى النقد ، عند نعمية ، ولها صح اعتبار الاثر النقدى أدبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد بناءه النقدى فى الكشف عن حسنات النص وسيئاته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترب من **اليوت** » يقينى ان للنقد غاية : هى توضيح الاثارة الفنية وتثقيف الذوق فبصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان أساس النقد الادبى هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتاثير ، وذلك لانك لا تستطيع ان تستغنى عن الذوق الشخصى والتجربة المباشرة لادراك حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع **سانت بوف** بان الموهبة الاولى والضرورية للناقد هى ان يشعر على الفور بلا اى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش الأثر الأدبى ، ما هى حقا صورته وبنيته وحياته الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من اعتنائه باثرها الذى حققته فى نفس القارىء ، على نقيض ما يرى **ادموندجوس** من ان النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك فى الأدب او فى الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدا يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصيصا ، وهو تحليل لمزايا الاثر الادبى او الفني وتحديد صفاته . (٢١)

غير ان نعيمة يذهب فى علاقة الناقد بالكاتب مذهبا آخر ، فيحكم اواصر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، اى ان الاديب الكبير هو الذى يمهد للناقد الكبير او يخلقه (**ما من شك فى ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبى وهبوطه فالادباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا أعكس فاقول ان النقاد الكبار يمهدون الطريق للادباء الكبار . فالعبقرية الحقه تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح او قادح) (٢٢)** . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطى العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

---

(١٩) راجع Walter Thomas : John Ruskin P. 29

(٢٠) راجع فان تيغم : المذاهب الادبية فى فرنسا (منشورات عويدات بيروت ١٩٦٨) ص ٢٣١ .

(٢١) ادموند جويس : دائرة المعارف البريطانية : النقد .

(٢٢) دروب ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

قيمته التي يحملها . اى ان النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن ادبي : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القدرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل أحط شأنا من ملكة الخلق والابتكار » .... ولو ان الوقت الذى يبذل فى نقد الآثار الأبية ينفق فى الأدب الانشائي من أى نوع كان لكان ذلك خيرا لنا وأجدى (٢٣) (ورد ذورث)، او بما ينشده **اميل فاجيه** « انني لا أعتقد بان للنقد ثمة امرا ، وبقدر ما أتعمقه اقتنع بـأن **ليس له أى أثر** (٢٤) . **فالناقد لاحق بالكاتب**، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلولا الكاتب لما كان الناقـد ولا يصح العكس ، وذلك هـو الفارق الاول **والأهم ما بين الاثنين** » (٢٥) . **فالادب الخالق** ينظم تجاربه التى أستمدها من « رأس النبع » فى أكثر الاحوال ، اما النقـد فينظم تجاربـه المستمدة من الادب الخالق ، اى من الحياة ، **اى بعد ان نقلها الادب نقلـة جديدة . واذا** شئت فقل ان كليهما نوع من الشعر ، ولكل واحد منهما حظه فى الاستقلال بقدر ما بينهما **من اتصال** (٢٦) . **فالناقد اذا هو الحلقة التى** تربط بين العمل الادبى والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبيـة تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة فى مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائي بشـأن هـذه العلاقة لا يمكن ان يكون لها نتيجة مفيدة ، لان ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمية يفرق تفريقا قاطعا بين النقـد والادب ، بينمـا هـو فى الواقع « أدب مـن الأدب » : « وحكم النقد لا يختلف عن حكـم الادباء فى أن بعضهم مبدعون وبعضهم سخفاء : وسيظل فيهم السخفاء والمبدعون . كل ما فى الامر ان النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يعدو أن يكون أدبا يتخذ من الادب نفسه موضوعه (٢٧) **وهكذا يظهر لنا أن نعيمة** لا يقول بان وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول أيضا ان النقد دعامة لا يقـوم الأدب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القارىء والناظر والسامع والزمان . فان اخطأ القارىء والناظر والسامع فلن يخطىء تقدير الزمان فى المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مـراتب عاليـة **كلنانت بوف وتين وراسكين وبيلنسكى** فيما فى نفوسهم من كنوز الافكـار والاحاسيس ما تكتشف الا لـدى احتكاكهـا بكنوز مماثلة ، « فهى ثمينة فى ذاتها لا فى كونها **جاءت تعليقا على هذا الكتاب أو ذاك** » (٢٨) من هنا كان لنا أن نستنتج ما يلى :

أ ـ التأكيد بـأن ليس الناقـد وحـده ، وبالضرورة ، الذى يقوم بمهمة النقد ، بـل **هناك الزمان** (٢٩) (**يلحظ هنا ان نعمية يعدد** الاسماء لقوة خفية واحدة هى وحدها تحفظ

---

(٢٣) راجع الثقافة ١٩٤٣ ع ٢٢ ص ١٦ .

(٢٤) E. Faguet, Propos Littéraire, II P : 5.

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلى هايمن : النقد الادبى ومدارسه الحديثة ج ١ص ١٧ .

(٢٧) رئيف خورى ، الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلحظ هنا تقربه من موقف الريحانى فى هذا الصدد ،راجع رسائل الريحانى (دار الريحانى ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

خلود العمل الادبى فحينا الحيـاة ، وحينـا الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارىء ايضا) . اذ ليس ثمة ناقد اعلى من الجمهور ، فهو متبصر بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما يصيب من احكام سديدة فى جميـع الانواع ، فهو يطلقها أولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد فى اللغة لتؤلف الرأى العام (٣٠) . وهكذا فالنقد ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له اصحاب اختصاصيون ، بل هو أمر يتولـد طبيعيا عند الناس ، وبالتالى يمكن أياً كان القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع مـن مسؤوليات ، فـان الصحيح لايعـوز ناقدا يكشـف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هى التى تعطى الاثر الادبى القدرة على البقاء اذا كان حاملا اسبابها .

ب ـ غير انه ينزع ، من قبيل آخر ، الى تعليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتصاره على مجرد الشروح والتعليقات او الاسـفاف لأن يكون ضربا من المهاترات او نوعا من المماحكات، انه تأليف تنبع قيمته من ذاته ولايستعيرها من المواضيع التى يشغلها . فالناقد الحقيقي هو خالق كالشـاعر ، فينحـو بذلك نحـو **سانت بوف** او **دى غورمون** ، ويتهيأ لنـا ان هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم بالعجز عن أن يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الابداع والاسفاف :

يبدو لنا أن نعيمة حائر فى أمر النقد ، وفى تحديد المكانة التى ينبغى ان يشـغلها هـذا النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق، ويعظم الناقدين حين يذكر **تين وسانت بوف** الفرنسيين **وبيلنسكى** الروسى . فيؤكد ان من آثارهم النقدية ما يماثل كنوز الخلق الادبى . ومرة يحط من هذا النشاط واصحابه ، فيكاد ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التى تقوقى كلما باضت رفيقتها ، ويدعوهم الى الشغـل بانفسهم والى الانتاج الادبى وترك سـواهم وشانه . وهنا يتهيأ لنا انه يميز بين نوعين من النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة عمليتـه فيفهمه تناولا للمؤلفـين ونتاجهم ، وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع آخر يجعله قرين المبدعين بل هما من طبيعة واحدة ، وذات مهمة واحدة ، غير ان نعيمة لم يكن صريحا وواضحا فى هذا التعريف ، بل كثيرا ماكان يتحدث بصورة عامة فانت لاتكاد تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رئيف خورى الـى ان يأخـذ عليه هـذه الظاهرة « فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شـأن النقـد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ليؤذن لى ان اصفها بالمائعة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليغـة الضرر . تلـك هى الفلسفة « الليبراليـة » المحض وادعـوها بالعربيـة « الاصطفالية » دهى تستند على ان هـذه القيم التى نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة فى العصور ، عدا انها فى كل عصر وبيئة تختلف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة ان ليس فى الواقع من حق ولا خير ولا جمـال ترسم حدودها واضـحة معينة لاشية فيها . وبالتالى ليس فى الواقع من نقد بوسعه ان يدعي انه يصدر عن هذه القيم قيم الحق والخير والجمال . . . (٣١) وتفسيرا لتلك الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد على اساس من الحذر والحقد . فهما مستويان مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد لو تكون

---

(٣٠) وهذا ماذهب اليه Marmontel (1723-1799) راجع ايضا Fayolle, La critique P: 24

(٣١) رئيف خورى / الآداب ١٩٥٦ ع ١٠ ص ٩ .

العلاقة على أساس من الثقة والاطمئنان » . الا ان علاقة الكاتب بالناقد هى على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الاحرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لوصفت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٣٢) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولا عن شكلها . ولعل **علي ادهم** يفسر ، فى شكل أو فى آخر ، جانبا مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعى ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الموهوبين الذين يعبرون فى يسر وسهولة عن احزانهم ومسراتهم ، ويرخون العنان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجائشة ، فى حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث عما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٣٣) .

وهو اذ يفهم النقد غربلة لمجهوداتنا الأدبية المشتركة لتمييز جيدها من رديئها ، وهو اذ يرى ان الاثارة اساس الملكة النقدية ، وهو أخيرا ، اذ يفصل فى العلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأتى لنا بأن بحث نعيمة فى المفهوم النقدى لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، او على اساس اتجاه مذهبى محدد ، او هو يستل من نظام فكرى فلسفى مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على أساس أنه فن هو أو علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية واللسانية الاخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة ... وبالتالى لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجتها بل فى رأيه ، وبعيدا عن اى تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذى تكتنفه الآثار الفنية.

فالحديث عن النقد ليس حديثا عن قيمة هذه الآثار على اساس جمالى او مثالى مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقى عنده لا يكون التزاما بقواعد مفروضة ومسبقة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد فى توتر دائم للخلق والابداع . فاذا كان المؤلف او الشاعر خالق اثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٣٤) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) **فمن هو هذا الناقد ؟ ما صفاته وما ثقافته ؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبى والآخرين ؟** أولا يكون فى وقفته هذه سدا ، فى الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الأدبى ؟

●●●

صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبى ، فى أساسه ، وظيفة فكرية ، مادتها المنتوج الأدبى ، باعتبار ان مبرر وجود هذا الأثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالقارىء وله ، فهو الذى يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه وممارسته له . واذ الأديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتأتلف فى كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملا من أعمال البنية الانسانية (كالمشي والأكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعى او الحضارى . فان الاصول والأدوات الجديدة فى النقد ، والاتجاهات فى البحث ، تعتمد فى أكثر احوالها ، على

---

(٣٢) دروب ص ١٨٥ .

(٣٣) علي أدهم ـ على هامش الادب والنقد (دار الفكرالعربى ، مصر . لا . ث) . ص ١٢٤ .

(٣٤) الغربال ص ١٧ ـ ١٨ .

فروض (٢٥) اصبحت أساسية في الفكر الانساني الحديث ومميزة له . واذا القارىء عاجز ، كل مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، الى المقاصد والابعاد الحقيقية التي يكتنزها الابداع الأدبي ، كان على الناقد اذاً عبء المسك بالقارىء في يد ، والمسك بالأثر الأدبي وصاحبه في يد اخرى فيساعد القارىء على فهم العمل الفني وتذوقه ، ويساعد الفنان على ان يفهم منه ويقومه ، ويعين على تقدم الفن وتطوره بتعميم المعايير المطلوبة او بتحديدها وتجهيزها فيكون الناقد بالتالي مستقطبا بثلاثة اهتمامات واضحة : أولها الاديب المبدع والخلفية الفكرية التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح نتاجه ، وثانيها العمل الأدبي نفسه ككائن أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما اراده الأديب بل يصبح له استقلاله النسبي وقوانينه التي تحكمه بنفسه ، وثالثها القارىء الذي هو ، بالنهاية ، مرتكز جميع هذه المقومات والاهتمامات . فمن هو ، في رأي نعيمة ، هذا الناقد الذي هو حاجة ضرورية في المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا اذ اننا في حاجة الى الناقدين لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهة بخرافات رضعناها من ثدى أمنا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات امسنا ، وترهات يومنا ، والذي يضع لنا اليوم محجة لندركها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه ، والحادي الذي سنسير على حدوه (٣٦) .

فحين يكون الماضي تراكما يورث الضلل ويبعث الشوه في أذواق الناس وملكاتهم واذا لا يعود الزمن أكبر مغربل ابن منه غرابيل الناس (٢٧) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف الغطاء عن ذلك الماضي لتحسس حقائقه ، وحسب ، بل لامكان تنبؤه بالغد واطلالته عليه ، فيكون له السبق في استشراق القيم الجديدة ، أي ، هو ، في حالات خاصة ، يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **أمرسون** ، وقد يعين موضوعات للأدباء يكتبونها مثلما فعل **جوركي** ، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك مترسما خطى **تولستوي** وخطى **بوالو** والنقاد الرومانسيين . أو قد يمد الفنان بموضوعات محددة وقواعد وتقنيات علمية ... واذا يكون الناقد شبيها بمخرج فني ، يبين للقارىء الروح التي يجب ان يستلهمها في سبر أعماق الأثر الأدبي فلا يكون (هذا الأثر) ثابتا ونهائيا عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، في الحقيقة ، ينتهي مع النقد . وهذا الناقد القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا – كما ادعى اليازجي – بالمطالعة او بالدربة والممارسة أو بأي سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أي

---

(٣٥) يعود الفضل في هذه الفروض ، بالدرجة الاولى ، الى اربعة علماء كبار من مفكري القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وهم : دارون (منه جاءت الفكرة بان الانسان جزء من الطبيعة وان الحضارة تطورية) وماركس (القائل بان الادب هو الذي يعكس ولو بطريقة معقدة ملتوية احيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية لهذا العصر او ذاك) وفرويد (الذي يرى ان الادب تعبير مقنع وتحقيق لرغبات مكبوتة قياسا على الاحلام – وان هذه المقنعات تعمل حسب مبادىء معروفة ... وفكرته أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي وان بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعا مستمرا) وفريزر صاحب الافكار عن السحر البدائي والاسطورة والشعائر البدائية ...) كلها تكمن في اساس اعلى النماذج الادبية ، يضاف اليها فكرة السلوكيين بان الادب ليس الا رجلا يكتب ورجلا يقرا ولا شيء غير ذلك ، وفكرة العقليين بان الادب قابل للتحليل » ... للتفصيل في هذا الموضوع راجع ستانلي هايمن : النقد الادبي ومدارسه الحديثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الغربال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « في مهب الريح » (ط ٣ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

هو يكون ناقدا ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (واذا النيرة) مقاييس وقواعد تنبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثلها لها « هناك خلة لا يكون الناقد ناقدا اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التى توجد لنفسها قواعد ولا توجدها القواعد ، والتى تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تبتدعها المقاييس والموازين ، فالناقد الذى ينقد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا منقوده ولا الأدب بشيء » (٣٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيدا لايحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه واهمها قوة التمييز ، لأن النقد ليس « حكما » فقط بل هو قبل كل شيء « تمييز » و « تمحيص » و « ترتيب » فى مرحلة أولى . واذا فدراسة القواعد وتطبيق معطيات النقد وتقنياته لاتطلع ناقدا ، بل فى ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، اذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الادلال على المعايب او المحاسن فى النص الادبى ، وكما تتراءى له ، وهو لن ينفعه فى ذلك براعة اسلوب او طابع تهكم وسخرية ، (٣٩) لان فى ذلك قتلا للروح المبدعة فيه ، وفهما سيئا لوظيفته ، اذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الاحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . **فالناقد الذى يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وأن يميز الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له ان يصدر حكمه فى ذلك الأثر . الا ان مثل هذا الناقد لاوجود له على الاطلاق** . (٤٠) من هنا كان الناقد شريك الكاتب فى طبيعة العمل ومهمته، سبيله ان يبصر الاشياء على حقيقتها ، محاولا ان لاتسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقا مع نفسه فى مايذهب اليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالطفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته وبان من بُناته ، وكثيرا مايكون نقده من قوة الاشعاع والاقناع بحيث يقضي قضاء مبرما على اتجاه قديم فى الأدب ويدفع به فى اتجاه جديد ... انه روح الثورة فى الأدب (٤١) واذا قد يفعل النقد ، حينا ، ـ فى الحركة الفكرية ـ **ما لا يستطيع الأدب وحده ان يقوم به . فهو** حديث مباشر مع القراء ، يشرح الاشياء ويكشف عنها الغوامض والأسرار التى اكتنفتها عملية الابداع والتوليد . فيكون روح الثورة فى **الادب ، اى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو** السبيل ، معا ، فى التمهيد لمنازع جديدة وفى القضاء على اتجاهات قديمة ، او قل هو محك الادب يستظهر منه طاقة الحياة فيه وأسباب الجمود والموات أيضا ، فلكى يقضي نعيمة على نوع الأدب السائد أثناء ئذ (النازع الى القديم والقائم على براعة الاسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلا يعتمده للقضاء على ترهات الماضى وللتمهيد لأدب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان المدماك الأول لبنائه الأدبى على الاطلاق .

---

(٣٨) الغربال ص ١٧ .

(٣٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

الذات هي الاصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارىء والكاتب معا على احترامها والايمان بها ، انقى بصيرة وأوسع افاقا وأسلم ذوقا واصدق نية وامضى عزما واشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٢) وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات او مستواها ، فلكي يستطيع ان يدخل ، غبر الاثر ، في تواصل مع الكاتب عليه ان يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الابداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة اخرى مهمتها محاورة الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر أن يكون اديبا ايضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفني الذي يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . » فلكي تكون ناقدا ممتازا يجب عليك أن تكون مؤلفا جيدا، فالموهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفع بالناقد قدما لتبين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٣)

الناقد مبدع أيضا

لايقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو أمامه وتمحيصه ، وتثمينه وترتيبه (٤٤) فهو مبدع ومولد ومرشد مثلما هو ممحص ومثمن ومرتب . فالنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث ان الناقد الاصيل هو الذي يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به « فهو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد اليه احد حتى صاحب الاثر نفسه (٤٥) . **واذا يعتبر أولا** أن الانتاج الادبي ليس وليد خلفية فكرية يلتزمها الأديب ويسعى الى اثباتها وتحقيقها ، بكل وعي وارادة فيكون بالتالي عارفا بجميع ابعاده وبنائه وخفاياه ، وانما يقدر انه يصدر عفويا عن نفس صاحبه مع شعور بالغربة عنه، أي الاديب ، قد لايعرف جميع اسرار مولوده الأدبي . **« ما أكثر ما تناولت قلمي وفي نيتي ان اكتب كيت وكيتواذا بي اكتب غير مانويت** كتابته ، حتى ليبدو لي احيانا أن يدي ليست وحدها التي تقود قلمي . او ان قلمي ليس وحدي » (٤٦) واذا هو في موقف شبيه بموقف القارىء **ويعتبر ثانيا** ان مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الانتاج الادبي من حيثولادته وتذوقه. **فالنقد « اكتشاف »** (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فان روح الخلق الأدبي وروح النقد الأدبي مننوع واحد « وفي اعتقادي ان الروح التي تتمكن من اللحاق بروح كبيرة

---

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1970—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان برونتيير (١٨٤٩ – ١٩٠٦) في مقالتهعن النقد في « دائرة المعارف » ان غرض النقد : التمحيص والتصنيف والحكم . ويفهم الشرح والتمحيص على انه تحديدعلاقات الاثر بالتاريخ العام للادب ، وبالمبادىء الخاصة لنوعه الفني ، وبالمكان الذي طلع فيه ، واخيرا بصاحبه ، ويكونشرح الاثر يعني تحديد موقعه من الحركة الادبية وتطورها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية غير معينلان المهم هو تحديد موقع الاثر في « الزمن الادبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعي غير شخصي اذا تطلبنااعتبار « الروح الادبي » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة اخرى .

(٤٥) الغربال ص ١٨ .

(٤٦) سبعون (المرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الغربال ص ١٩ .

فى كـل نزعاتها وتجوالها فتسلك مسـالكها وتستوحى موحياتها وتصعد وتهبط صعودها وهبوطها هى روح كبيرة مثلها (٤٨) . وهكذا فالتفريق الأصيل بين الناقدين والمبدعين فى الأدب لايملك اى معنى او قيمة ، او هو لايمكن ان يكون الا مع النقاد من الدرجة الثانية .

وليست هذه الفكرة جديدة فى تاريخ النقد ، بل لها أسيادها وخاصة فى النقـد الفرنسى انطلاقا من **سانت بوف** (١٨٠٤ ـ ١٨٦٩) وارتقاء **بمارسيل بروست** (١٨٧١ ـ ١٩٤٥) **واندريــه سـوياريس** (١٨٦٨ ـ ١٩٣٩) و (**اميل شارتييه**) الآن (١٨٦٨ ـ ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الأثر واعادة خلقه ، اى ان الناقد قادر على اثارة العواطف والمشاعر المختلفـة وان يعيش مـن جديد التجارب نفسها . **يقول دوبو** : ان طريـق النقد المثالى هـى طريق الابداع ولكـن بـأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهى المؤلف لينتهى من جديد حيث بدأ المؤلف ايضا ... ذلك انه من النادر ان تبدو لى حقيقة متميزة عن صاحبها ... ان كـل شيء يبدو لـى حقيقيا بالنسبة للقوة التـى ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكرى والاصالة التى تختفي وراءه تبدو فى عينى علاقـة مشابهـة ومماثلة (٤٩) وهكذا يكون الناقد ايضا مولدا « لأنه فى ما ينقد ليس فى الواقـع الا كاشفـا نفسه ، فهو اذا استحسن امرا لا يستحسنه لانه حسن فى ذاته بل لانه ينطبق على آرائـه في الحسن ، وكذلك اذا استهجن امرا فلعدم انطباق ذلك الامر على مقاييسه الفنية (٥٠) اى ان الناقد هو محور العمل النقدى ، دائما ، كما الأديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء الا بالنسبة للانسان، بالنسبة لرؤيتهومقاييسه الخاصة به التى هى « بنات ساعات جهـاده الروحى ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهى اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالاخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه ،فأعطتهم وجهة جديدةوايمانا جديدا (٥٢) وهكذا فبحركـة تكامليـة يصبح الناقـد ، بدوره ، كاتبا لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة فى أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن ان يحدد بمقاييس الـدور او القيمة ولكـن بالنسبـة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالأثر الادبى هى علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن أن يزعم ترجمة الاثر الادبـى وتفسيره وتوضيحه اذ ليس اكثر وضوحا من الاثـر الادبى نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبى بحاجة الى شرح وتفسير ؟ . منا يمكنه هو ان يلتمس اتجاها يشتقه من شكل هـو الأثر نفسـه . وبالتالى فالناقـد يثير امـام النص الاسباب نفسها التى يثيرها الاديب امام العالم واشيائه.

غير أن هذا المنطلق التأثرى العامل بمنطق الذوق واحكامه انما هو امتداد طبيعى للقلق المتوثب عنده باستمرار ، فنقل افكاره عـن الحق والخير والجمال من الموضوع الى الذات والنكران لهذه المجردات وجـودا مطلقـا او ملتصقا بجوهر الاشياء والافعال ، مؤكدا ان وجود هذا المثلث (من كيان الحياة) هو فى ذهن الانسان وحده (لا فى خارجه) مصـدر

---

(٤٨) المرجع نفسه .

(٤٩) Du Bos, Journal (24 Novembre) 191 .

(٥٠) الغربال ص ١٩ .

(٥١) الغربال مقالة « محور الادب » ص ٢٣ ـ ٢٨ .

(٥٢) الغربال ص ١٩ .

الاحكام على الاشياء والافعال . وهكذا ففي مثل هذا الجو من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور يعتمده في احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتاليف الادبي سواء بسواء . غير ان شعور الناقد او القارىء(رضاه او نفوره) عما يقرأ، ناشىء في الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يميل اليه او ما يبغضه وينكره . وهذا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية . اى كأنه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واعجب بميوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترتفع قيمة الاديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور في خلد الناقد (او القارىء) **فنعيمة يقيم شانا عظيما للانطباعات الشخصية** . الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات عن هذه الانطباعات وتعليلها ، لانها ليست فى حقيقة امرها ، الا انعكاسنا مباشرا بشكل او بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد فى خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقى معين — مهما بلغ نضج هذا المستوى — انما يصدر عن موقف سيء : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الاديب والقارىء) ، بل لشدة التصاقه بالنص الادبى لا يمكنه ان يراه بوضوح . أوليس البعد عن الاثر الادبى بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا أوفى ؟ بل ان هذا التحكم الذوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف فى تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة أسيرتها ، بل تتسع لهنا ولغيرها . فكان على نعيمة ، بدل ان يعكف على ترديد صوت نفسه وقيمها دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء أصول الفهم ودراسة مفاعلاته ، اذ ليس الغرض من الاطلاع على النصوص ان نؤكد باستمرار ما نحب وما نكره ، لأن فى ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا ووجدانيا لا يقود الى اى ارتقاء ، أو الى ادراك ما في القيم من تنوع لا ينفد .

وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكى يسهل فهم الغربلة الادبية والقصد منها (كما سنرى فى المقاييس النقدية عند نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية اخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالى ، فالنقد كالفلسفة والتاريخ ، نوع من القصة فى متناول نخبة تلاحظ وتهتم ، وكل قصة نمط من السيرةالذاتية ، والناقد الحاذق هو الذى يكتشف نفسه عبر روائع الآثار ، فاذا كان الشاعر يتلمس المجال الذى تتفتح فيه موهبته وتحيا فان الناقد يتلمس غريزته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد عن ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كاتبا مغرورا الى صوابه ، أو يهدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آنفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تأتى نتيجة حتمية وطبيعية لخاصتى الابداع والتوليد فى الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة ومـا مداهـا في التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا منا يكون الأديب ، غير موفق فى اختيار مجال نشاطه ، اى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر أصيل ودائم عند نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية فى نفس صاحبه ،

---

(٥٣) Sainte-Beuve, Portraits littéraire , P. Corneille.

(٥٤) الغربال ص ١٩ .

واذا لا يصدر عن الفطرة والعفوية الا مايمسها وما يخصها ، فأية فطرة هذه صادقة تنتج فى مجال ما فاذا نتاجها فى مجال آخر ...)هذا الكلام لا يصدر عن موقف سليم وصادق فى مفهوم الادب وابداعه : فاما ان يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، أو لا يكون أديبا . ألم يقل « من كان معدا للادب كان فى غنى عمن يدله على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافز لاتتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس (٥٥) . فيأتى الناقد ليهدى هذا الاديب الى فرعه ويدله بالتالى الى المجال الذى يصلح فيه » . رعندنا ،ان قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف عن مواهب الكاتب الثمينة وودائعة النفيسة التى ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تهليلا وتكريما له ، فهو أمر واقع بل هو جانب من أهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية (٥٦) واذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد أن يعلمه للآخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة.وهو مرشد للمؤلفين ،ولكنلا منحيث هديهم الى النوع الفنى الملائم والمناسب لملكاتهم الابداعية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى « لان النوع الفني عندنا هو شكل هذه الملكة اى لا يمكن ان توجد وتظهر الا به) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، عن قيم فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مغايرة لها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانات جديدة باستمرار .

وعلى جميع ماتقدم من خصائص الناقد ، **نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شانا فى ذاته، ينبع من شان موافقة نفسها وليس من قوة أخرى** . فهو يد اب فى تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول أو موارد خارجة عنه ، **لأن ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تدعيم موافقة واثباتها** يعود الى نفسه والى قوته بالذات « ولا قوة تدعمها (المقاييس والموازين التى تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هى ما يبطن به سطوره ، من الاخلاص فى النية والمحبة لمهنته ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الذوق ، ورقة الشعور وتيقظ الفكر ، وما أوتيه بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارىء وقلبه (٥٧) موقف يذكر بما يراه **أناتول فرانس** فى « أن النقد لا يقدر الا تبعا لشخصية صاحبه ، والاكثر ذاتية منه هو الاكثر فائدة واهمية (٥٨) .

بواعث النقد

البواعث التى تعطي النقد مركز التقدير هى نفسها البواعث التى تعطى العمل الأدبي وجوده وكيانه :

أ ـ اخلاص فى النية ، اى اصالة متمكنة لاتحيد عن الحق والحقيقة رافضة ان تقيم اى

---

(٥٥) فى مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) الغربال ص ٢٠ .

(٥٧) الغربال ص ١٦ .

(٥٨) A. France, la vie littéraire TI, P : 176.

شأن لما هو خارج عن عملية النقد (كالعلاقات الشخصية بين الناقد والمنقود فينحاز النقد الى التهليل او الى التحقير تبعا لنوع العلاقة على غرار مارأينا في الفصل الاول من هـذه الدراسة) .

ب ـ يستتبع هذا حبه لمهنته وغيرته على موضوعه ، فحيث لاحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمة النقـد السلبي ، افتقاده لعنصر الحب هذا (٥٩) اذ يورث فيه التزام **عمله النقدى الصافى فيكون همـه** ، وبالتالي لايقبل فيه الزيغ ، لانه يصدر عـن دقـة في الذوق ورقة في الشـعور وتيقظ في الفكر . فيتأتى لنا انه يريد أن يجعل من النقد عمـلا صعبا ، يعلم الجمهور ظواهر الأثـر الادبي الجميلة والمختلفة وان يصل عبرها بين مختلف العبقريات (سانت بوف) . وهو اذ يقيم لهذه الأمور الوزن الاكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقـد وطريقتها وقوتها ، لانها متممة للعناصر الاولى ، وهو اذ يضعها في درجة ثانية لا لشيء الا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضـة لغوية قبل كل شيء . فما اشبه الحالة التى يصـدر عنها هنا بحالـة **فلوبير** حـين كتب (١٨٦٩) الى **جورج صـاند** عـن موضـوع الناقدين فقال « كان الناقدون في زمن **لاهارب** نحويين ، وفى أيام **سانت بوف وتين** مؤرخين فمتى يصبحون فنانين حقا وصـدقا (٦٠) . فعند نعيمـة اعتبـار كبير لطريقـة العرض النقدى ، اذ انه يؤمن بان كثيرا مـن الناس يملكون الحقيقة ولكنهم سرعان مايفقدونها من طريقة عرضهم لها .

الناقد يتذوق ليخلق

غير أن القول بهـذه البواعث والعناصر ، لايعنى ، في نهاية الأمر ، بان يكون الناقد هو الأديب . او انه لايجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الادبية الا اذا كان هو نفسـه مـن ابناء ذلك الفن . وهذا مذهب قيل باخلاص وصدق عند العرب ، اذ المشكلة قائمة قديما في النقد العربى ، وذهب النقاد العرب فيها مذاهب شتى ، ولعل **ابن رشيق** يلخص طابع مذهبهم ذلك حين يقول بأن « أهـل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته مـن نحـو وغريب ومثل وخبر وما اشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وان قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ! (وقد كان أبو عمرو بن العلاء واصحابه لايجرون مع خلف الاحمر في حلبة هذه الصناعة ، اعنى النقد ، ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها وحذقه بها واجارته لها) .(٦١) اى ان الناقد الشاعر أبصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل ايضا وبحماس بانه ليس من الضرورى على ناقد فن ما بأن يكون هو أولا من أبناء ذلك الفن المنتجين له » وقد يميز الشعر مـن لايقوله كالبزاز يميز مـن الثياب مالم ينسجه ، والصيرفي يخبر مـن الدنانير مالـم يسكبه ولا ضربه ، حتى انـه ليعرف مقدار مافيه من الغش وغيره فينتقص قيمته ... (٦٢) وهو عين مايذهب اليه نعيمة حين يرد على ذلك الادعـاء بقوله مستشهدا بجواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أعليَّ أن أبيض البيضة اذا لأعرف ما اذا كانت صالحة أو فاسدة ؟ » (٦٣) ولعل ذلك

---

(٥٩) Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٦٠) ستانلى هايمن ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، العمده ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) الغربال ص ٢٠ ـ ٢١ .

يعود الى بعض المفارقات البديهية مابين النقد والادب ، فالادب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . اى ان الاديب يخلق الاشياء ليتذوقها ، أما الناقد فيتذوق ليخلق . فهما شريكان ، لا فى نمط التأليف ، بل فى القدرة على الشعور بالحالة نفسها وبالتجربة ذاتها اللتين صدر عنهما العمل الادبى « غير أن من الناس من لايدركون أنمن لاينظم القصيدة قد يقرأ فيها اكثر مما أودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم فى حياته بيتا ولا عرف مافى النظم من مشقة الأوزان والقوافى ولا من لذة الفوز بها ، غير ان ذلك لايعوقه عن ادراك مافى الافصاح من عوامل النفس من لذة روحانية، ولا يعميه عن تموجات الالوان فى الرسوم الكلامية ولا يصمه عن رنة الألحان فى مقاطع الألفاظ والعبارات . والا لايكون ناقدا . واذا تيسر له ذلك ففي امكانه الدخول الى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبآته الى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتى تمخضت فى الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكأن القصيدة من وضعه . واذ ذاك لاحاجة به ان يكون عالما بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج قريحته (٦٤) فيكون دون الشاعر ان ينقل الحالة كما هى ليأتى الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يعيد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . ولن يعيق الناقد شكل النتاج الأدبى اذ همه مايحمل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لاينظر الى كيف قال الشاعر بقدر ماينظر الى نوع ماقاله ، فغرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين اطلعاه ، اى أن الناقد يتجه فى بحثه اتجاها يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل النفسي) وهو فى كل هذا انما يصدر عن موقف أدبي واحد اذ يعتبر الانسان محور المنتوج الادبى ، وان سلطان الادب في انه أبدا يجول فى اقطار النفس باحثا عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضا للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (٦٥) فاذا معه يتحول النقد الى وسيلة للتحليل النفسي بديل الاقتصار على الكشف عن الاخطاء اللغوية أو تبيان المعايب والمساوىء كما تحول فن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (٦٦) فدراسة الآنا التلقائية ، اى الشخصية الطبيعية والخام ، هى احدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الأولى على الاطلاق عند نعيمة . فالسر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن أن يكون الا فى نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد امام كل نص أو اى نص ، ان يسأل نفسه : الى اى مدى وبأى مقياس استطاع المؤلف ان يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، في آن ، عن حقيقة الكون ومجراه (٦٧) ؟ ان ناقدا كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متأصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجرأة ، الذوق ، الشعور ... » وفكرية متيقظة وطاقة تعبيرية نافذة يكون رائدا لا يعدم اناسا ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشيئته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يستقبح، فيصبح وهو وراء منضدته ، سلطانا تأتمر بأمره وتتمذهب بمذهبه وتتحلى بحلاه وتتذوق بذوقه الوف من الناس . اذا طرق سبيلا سلكوه ، واذا صب نقمته على صنم حطموه ،

---

(٦٤) الغربال ص ١٧ ـ ٢١ .

(٦٥) الغربال ص ٢٧ .

(٦٦) راجع قسطاكى الحمصى ، منهل الوارد فى علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(٦٧) هذا ما يقول به P. Valéry راجع M. Bémol, la méthode critique de P. Valéry P. 135-145.

وإذا أقام لهم الهاً عبدوه وبخروا له وسبحوه (٦٨) لأنه انما يصدر فى ذلك لا عن فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وانما يصدر — فى تلك الخصائص المذكورة — عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذى يحدده اطار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافى والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يتمثلها جميعا ويصهرها فى بوتقة واحدة ، فهو فى عمله انما يعبر عن الرأى العام لمحيطه فاذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما فى نفوس قرائه من استعداد فطرى للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلعا من الارض التى أطلعته بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فلديه قسط من الحساسية الحية أكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسع احاطة بالنفاذ الى حقائق الاشياء . وهو فى كل هذا انما يصدر عن حقيقة لا ترد ، وهى ان شيئا لا يمكن ان يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

الا أن نعيمة لا يشير الى نوع الثقافة التى يجب على الناقد اكتسابها والى نمط المعرفة التى عليه العمل بنورها . فاذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة أكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الاخرى ، فان نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الاخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى أن دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله اذا أريد تسليطها على النقد الأدبى ، اى لن يبقى للناقد الا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . واذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة « فلنترجم ولنجل مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولأنه بكشفه لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترها عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... الى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بأفكار هذا العالم وآماله وافراحه واحزانه . فلنترجم (٦٩) فدعوته هذه لا تحدد — وعلى سبيل المثال — (تفكير نعيمة يكره التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد الى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضيه على ذلك ، أوليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء الى الذوق والبصيرة ؟ أوليس الناقد أيضا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب الذوق وحده فى كل مرة ؟ فلطالما احس نعيمة بهذا الهاجس الذى كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه فى كل مرة يسارع الى الطرف الآخر من الجذر والاحتمال ولا يجزم فى الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير ان الناقدين طبقات . كما أن الشعراء والكتاب طبقات . فما يصح ان يقال فى الواحد منهم لا يصح ان يقال فى كلهم (٧٠) . **وهكذا فان نعيمة هنا ينزع الى تقسيم (٧١) النقاد والشعراء الى طبقات منزع النقاد القدامى أنفسهم فى تصور الشعراء على أنهم طبقات** (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما ينافس التحليل والكشف . غير انه لا يبين لنا أيضا

---

(٦٨) الغربال ص ١٦ .

(٦٩) الغربال ص ١٢٦ .

(٧٠) الغربال ص ١٧ .

(٧١) طالما ترددت هذه النزعة الى التقسيم عنده ، فهى تصدر عن ايمان بان « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة آل رضوان الشهال .

على اى اساس يجرى هذا التقسيم الطبقى ؟ وانما كل ما نعرفه ان الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقدا أكبر . وبمقدار ما يسبر غور الأديب ويعرف كنهه ويحاور المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقدا : « فظاهرة النقاد الكبار الاعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنيّاته :

وكان طبيعيا أن يصل به هذا الحذر الى النهاية الحتمية فيستنتج بأن « ... الناقد لا ينجو من زلة أو هفوة . فقد يرى القبيح جميلا ، أو يحسب الصحيح فاسدا وما ذاك الا لأنه بشر والعصمة ليست لبنى البشر (٧٢). أوليس فى هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من أن « الناقد مرشد » أو انه حاجة ضرورية فى المجتمع لانتشال الناس من الخرافات والترهات . وربما يصدر هذا الرأى عن ايمان عميق عنده ، بمبدأ الصدفة ، اى ان النقاد ــ كذلك الكتاب ــ نتيجة لعوامل معلومة ، يكتبون ما تمليه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف أن حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليما صائبا ، والا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة تطلبه بان الحياة هي خير غربال وافضل ناقد . لأن المسألة برمتها عند نعيمة ، انما هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح او خطأ وما هو جميل او قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهى القوة الخفية التى تحفظ للاشياء بقاءها أو تحرمها اياه . ويجب ان نأخذ معنى الحياة هنا لا على أنها مجرى العيش اليومي ــ وهو جزء منها ــ بل هى الحاجات والمقاييس المشتركة بين بنى البشر ، والتى تخاطب جوهر الانسان الحميم والذى لم يتغير عبر الأزمنة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق فى الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحا فى لحظة اخرى وتحت عوامل وظروف أخرى ، وما يبدو جميلا فى حالة قد يفقد شيئا من جماله فى حالة أخرى . من هنا كانت تخف وطأة زلة النقاد وينعدم خطرها الفادح . « فلنحاسب الناقدين بنياتهم اولا ، فان أخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٣) فالمهم ان تكون النية سليمة » اى طبيعة نفس الناقد وأصالته ، خالية ، من اية شائبة ، عندها لا قيمة لخطأه ، لأن جوهره الانسانى صاف فيستطيع ان يعوض تلك الهفوة ، خاصة اذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة وأجاد استعمالها فذاك حد ما يحق لنا مطالبته به (٧٤) ــ ليس لنا ان نسأل الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له ان يذهب فى ذلك مع ما ترتضيه نفسه . انه حر . المهم ان ينبثق عن نفسه ، كالأديب . واذاً لا يمكن درسه على أساس ما قال ، بل على اساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها فى عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكليات . وعندنا أن الامر ينطلق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، اذ لا يعتبر الأديب أو الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على اصحاب النظرة المميزة للأديب عن سائر الناس والقائلة بتفوقه النوعي على البشر) بل هو يتهكم من الأديب الذى خال انه جُبِلَ من غير جِبِلّةِ الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجها كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « انت خلقت للشعر والفن وانت تعتقد أن الشعر والفن رزق من السماء . وانا ــ كما قلت لى مرة ــ من التراب وللتراب . وقد كنت اظن فى بساطة قلبي ان التراب الذى

---

(٧٢) الغربال ص ١٥ ــ ١٦ .

(٧٣) الغربال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

ينبت القمح الغذي والزنبقة الطاهرة والوردة الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والفن (٧٥) . فهو اذاً لا ينم عن منظور ارستقراطي في فهم وظيفة الأدب والنقد ، وانما يريد ان يرى الاشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس والحياة اللتين تعطيان الموجود قيمته (الموجود قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن المقاييس النقدية) من هنا اذا لم يكن للناقد من فضل سوى فضل رد الأمور الى مصادرها وتسميتها باسمائها لكفاه ذاك ثوابا (٧٦) لأن **أساس العملية النقدية السعي الى اكتشاف** ومعرفة حقائق الامور والاشياء . المهم ان يبقى منارا ضابطا لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من الناس لا يمكن ان يحافظوا أو ان يبقوا باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ، ضمن الاطار الروحي والحي السبيل الوحيد لادراك الموجودات وجوهرها . فليس عند جميع الناس القدرة على النفاذ الى لبّ الأمور ، بل كثيرا ما يتناولونها عرضا ، فليس عندهم دائما همّ التحري والسبر في الاعماق. من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع اذواقهم وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول ان ينظفها من الشوائب عن طريق الهدى فهم منضوون تحت لوائه. ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك : فعدا كون النقد عملية معقدة ، فان طبائع الناس ايضا (والنقد في سبيلهم بالدرجة الأولى ولأجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا صعوبة التحدث الى جميعهم بالرضى والقبول فيكون حظه منهم قليلا لأن النقاد « لا يرضون فريقا من الناس الا باغضاب فريق آخر » ، غير ان القوي بينهم — والقوي من اخلص النية — لا يحفل بمن يرضى وبمن يغضب لانه يخدم غاية أكبر من رضى الناس وسخطهم ، ويتم وظيفة هي من أهم وظائف الحياة (٧٧) . **وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الأوفى في الحكم على كفاءة النقاد ومقدرتهم وصلاح مذاهبهم .**

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازيا للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب دعوة ادبية جمالية من خلال نقده فيضع النص الأدبي باعتباره مجالا متحركا . فليست وظيفته اصدار احكام اخلاقية مقنعة خلف مظاهر الاستحسان او الاستقباح الجمالي فحسب ، بل هي وظيفة تشريحية ايضا تفتش عن « نسمة الحياة » وعن « المدى » بناء على مقاييس واضحة ، واصول تنبع من نفس الناقد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتذوق بالدرجة الأولى . غير ان هذا لا يعني ابدا ان الفهم شيء والتذوق شيء آخر ، اي ان الاول يخضع للعقل والآخر يوضحه . ان الناقد يقوم بمهمة النقد لأنه انسان (لا مجرد آلة) له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بتجارب ادبية وغير ادبية ! فيهتم بتحويل تجاربه وخواطره وانفعالاته الى مفاهيم .

●●●

المقاييس النقدية :

من الطبيعي أن مفهوم الأدب هو الذي يحدد ، في شكل او في آخر ، مفهوم النقاد واتجاهاتهم ، ويصدق هذا اكثر حينما يكون الناقد نفسه اديبا ، فيصدر عن خلفية وجودية هي روح نظراته وجوهرها على تعدد مناحيها واشكالها ، والمقاييس النقدية هي كل مفهوم للنقد ، وكمثل الأدب ، هي محصول نوعي

---

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جبران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) الغربال ص ١٨ .

(٧٧) الغربال ص ٢١ .

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيما ارتباط بطبيعة موقفه من الاشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من أبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدى بل من حيث هى تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) وملكاته (بحيث انه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن ان « نراها » كما هى (٧٩) اى هى لا تكون الا بنا وتبعا لمداركنا لها) كانت المقاييس التى تبنى عليها نسبية أيضا وبالتأكيد . **من هنا كان النقد عند نعيمة ، فى أساسه ، عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى تماما كأى نشاط آخر**) والعمل الفنى عملية معقدة لانه عمل نفساني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه فى نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب . فكيف بتذوقه وتفهمه من قبل الذين لم يجعلوا به ولم يلدوه ؟ انه لأمر يعود فى النهاية الى فطرة المتذوق والمتفهم ، والى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسدانى والعقلانى والروحانى . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « علمية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد الى التصنيف العلمى (٨٠) ففى الواقع ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية ايضا فى تذوقها وتقديرها حق قدرها ان كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب ان يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمى واى شكل اتخذه ، لا يمكن ان يحيط بالانتاج الأدبى ، لأن الأدب ، فى النهاية ، « مفارقات » والناقد يتذوق وفقا لطبيعته (أى السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (أى للتأثير الذى احدثه الانتاج الأدبى فى نفسه) بالجودة أو الرداءة فى صورة عفوية وان كان لها فى واقع الأمر اساسها الجمالى الدفين فى نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن ان يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فنا دقيقا فى يد من يحاولون استخدامه وان يكن قد أخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذاً مسألة احساس فردى (ذاتى) فبقدر ما تحب الأثر وتنفعل فيه يكون لحكمك قيمة (**الحب هنا يكون** شخصيا اصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الادبى ، ولا يعنى ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن أهدافه ، لا يصل الا الى ان يحدد الأثر الذى يخلقه فى نفوسنا فى وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

---

(٧٨) يرى نعيمة دائما انه « لابد لكل مذهب جديد ، ان فى الادب او فى سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه وعبقرية فذة تتعهد نموه » نعيمة : وولت هتثمان او الشعر المنسرح : الادب ص ١ (١٩٣٥) ع ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى رولان بارت ان ما يطلب الى الناقد ان يصدر عن خلفية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان نداعيه لا بان يجعلنا نعتقد بما يقول ، بل يجعلنا نؤمن بما قرر قوله ، وهو يستعين فى ذلك بقول « كافكا » الشاعر ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمة : من رسالة الى رضوان الشهال بمناسبة كتابيه « فى الشعر والفن والجمال » . « و ابو الطيب المتنبى » بسكنتا فى ١٠ كانون الثانى ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : فى الادب والنقد ص ٦٥ .

المؤلف نفسه الأثر الذى تلقاه هو الآخر من العالم الخارجى فى وقت ما (جول لوميتر) ، وعلى هذا يبنى نعيمة اساس عمله النقدى الذى يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التى تبتدع لنفسها المقاييس والموازين » فلو كان لنا « قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع، والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على كل قارىء ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما تقدم ، يتأتى لنا بأن نعيمة ، فى مذهبه ، ناقد تأثرى يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام بمهمة النقد والأدب » والذوق الفنى هو الذى يدل الشاعر على الكنوز الشعرية فى الموضوع الذى ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى لعرض تلك الكنوز وابراز ما فيها من روعة وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر الطلاء حيث يكفى القليل . ولا يصرح حيث يكفى التلميح . ولا يسهب حيث الايجاز أوفى بالغرض وأوقع فى النفس . ولا يعظ حيث الوعظ بلادة . ولا يغالى حيث المغالاة تصنع وتكلف وتدجيل ، وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة ووجدان ، واهانة للفن الذى يجب ان يتسامى ابدا عن التملق والذل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على نحو ما يعتقد **برك** (٨٥) ويصر بأن يكون الحكم على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) فى العاطفة ، أى النقد بمقتضى المقياس الذاتى الصرف .

« والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفنى ، والاجيال فى ذلك كالافراد من الناس لكل طريقته ومذاقه ومطالبه واغراضه الفنية الخاصة . والتذوق الفنى الخالص حين لا يكون مجرد حكم مصطنع انما هو فى رأيى مثال أعلى ، ويجب أن يظل كذلك ما دامت عملية التذوق قضية اناس يطوون الحياة وهم مقيدون فى وجودهم بحدود الزمان والمكان (ايليوث) فتكون السمة الأولى للدراسة الأدبية هى العناية بالعواطف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا كانت متكلفة وعاجزة أو صادقة ومؤثرة .

ولعل مبعث هذا الاهتمام ، عند نعيمة ، بالعاطفة والتأثير انما يرجع عندنا الى ظواهر طبيعية كان لها الفعل الأكبر فى توجيهه الى ذلك نذكر منها :

١ ــ ردة فعل لما ورث نعيمة فى مستهل هذا القرن من شعر ردىء نوعا ومستوى .

٢ ــ اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الابداع ومنتهاه وهو فى الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر العربى ــ بفعل عوامل ساعدت على انحرافه عن مبدئه الأول ــ فى العصور المتقدمة اذ كان النقد العربى القديم نفسه يكرس جانبا عظيما للحديث عن الشعراء الذين يسحرون الناس بألفاظهم .

---

(٨٢) الغربال ص ٦٧ .

(٨٣) بدأ النقاد ــ فى الادب الانجليزى ــ يعتبرون اهمية« الذوق » ووجوب توفره فى الناقد البصير منذ اواخر القرن الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الادراك الغريزى لخصائص العمل الفنى ، او الحدس بطبيعة النتاج وبقيمته . ولاشك ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لايلجأ الى القواعد الملقنة ولا يكتفى بتطبيقها تطبيقا آليا . كما ان أعتبار الذوق المعيار الاخير فى تقييم الادب يعنى احلال العنصر الشخصي او الفردى ، اى شخصية القارىء محل القاعدة العامة التي كان يطبقها الناقد تطبيقا موضوعيا من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وخاتم عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ع ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر برك على ذلك فى رسالة موضوعها « بحث فلسفى عن منشأ آرائنا فى الجلال والجمال ظهرت عام ١٧٥٦ فكان اصراره هذا أول مناداة بحقوق المذهب الحر فى النقد الادبي . راجع فى ذلك : لاسل آبركرمبى : قواعد النقد الادبى (ترجمة محمد عوض محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يلحظ هنا ان دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت تباشيرها واسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان البستاني ومصطفى لطفى المنفلوطي قبل هذه المرحلة .

٣ ـ لقد وصلت دراسات الأدب فى القرون الوسطى الى جمود ، وعناية بالشكل ، واستغراق فى التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبى وخرج تذوق النصوص من طبيعتها الفنية الى طبيعة البحث المنطقى او الرياضي، فأصبحت همة الدارسين منصرفة الى بيان ما فى النصوص من تشبيه واستعارة وايجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، واصبح الناشئون لا يتذوقون من روائع الآثار الأدبية الا معرفة اجزاء الاستعارة او تقرير الكناية ، أو تمييز هذه الناحية أو تلك من المحسنات البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، فى تشييد دعائم التأثرية فى النقد العربى الحديث ، هو ، بشكل أو آخر ، من قبيل « الاحياء » للنزعة النقدية العربية القديمة . اى ان لهذا التجديد منطلقا فى القديم . ولقدر ما استفحل أمر النزعة التأثرية فى النقد العربى ، قديما ، عم شيء من الفوضى النقدية حاول المرزوقى تصويرها « وزعمت » ... فانك مع طول مجالستك لجهابذة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين فى انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤديك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديئه. حتى تجرد الشهادة فى شيء منه ، وتثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذبين والمدافعين ، بل تعتقد أن كثيرا مما يستجيده زيد يجوز الا يوافقه عليه عمرو ، وانه قد يستحسن البيت ويثنى عليه ثم يستهجن نظيره فى الشبه لفظا ومعنى حتى لا يخالفه ، فيعرض عنه اذ كان ذلك موقوفا على استحلاء المستحلي واجتواء المجتوى (٨٨) .

فاذا بالحكم النقدى العام يصبح ، فى أساسه ، طبعا واستعدادا متمكنين فى النفس وقادرين على التمييز والابداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضى الجرجانى اذ يقول « وملاك الأمر فى هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست اعنى بهذا كل طبع ، بل المهذب الذى قد صقله الأدب ، وشحذته الروية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصوير أمثلة الحسن والقبح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تعليل استحساناتنا ، بل تندفع ايضا الى معرفة طبائع الاشياء من منظور مقبول عند الطبائع السليمة الاخرى ، على غرار ما نحا الآمدى (٩٠) اذ يقسم الذوق الى ثلاثة أقسام : الطبع والحذق ثم جماع الاثنين اى الفطنة . من هنا فان « التذوق نفسه يستطيع ان يكون ذا معايير يقيس بها صحته ورصانته ، ولا بد لكى يكون مكتملا من أن يدل على فهم « دائم » لغاية هى النتيجة الضرورية، بل هى الثمرة الصحيحة لما فيه من صحة ورصانة (بلا كمور) .

اما المعايير او المقاييس الاخرى (والتى اساسها الذوق دائما) التى يعتمدها نعيمة فى النقد فينبغي ، تسهيلا للدرس والبحث ، ان نقسمها الى قسمين : واحد يتناول فن النقد

---

(٨٧) محمد خلف الله : من الوجهة النفسية فى دراسة الادب ونقده ص ١٢٤ .

(٨٨) المرزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه (ط صبيح ١٩٤٨) ص ١٩ .

(٩٠) « ويبقى مالم يمكن اخراجه الى البيان ولا اظهاره الى احتجاج وهى علة مالا يعرف الا بالدربة ودائم التجربة وطول الملابسة وبهذا يفضل اهل الحذاقة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت قريحته وقلت دربته ، بعد ان يكون هناك طبع فيه تقبل لتلك الطبائع وامتزاج ، والا لايتم ذلك ، واكلك بعد ذلك الى اختيارك وما تقضى عليه فطنتك وتمييزك فينبغي ان تنعم النظر فيما يرد عليك ولن ينتفع بالنظر الامن يحسن ان يتامل ، ومن اذا تامل علم ومن اذا علم انصف » راجع الآمدى : الموازنة (ط المعارف الاولى ج ١ ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤) .

بعامة ، وواحد يتناول العمل النقدى بذاته ويستخرج من خلال النقد التطبيقى عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية أصول مذهبه فى النقد .

انه يرى اولا ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩١) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتيا لا موضوعيا . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لأن فقدانها لا تعوضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفا فى ان كل جيل يختلف عن الجيل الآخر فى فهم الأدب ، ولذلك ياتى بمعايير خاصة ، والذوق الفنى المطلق مثل اعلى ...) . ويدعو ثانيا الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى الغربال أو الدائنين بدينه » (٩٢) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الأدبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعيبه ان يجعل من المؤلف هدفا له عبر النتاج نفسه ، عندما ينال من صاحبه سواء بالهزء به أو بشتمه . ولقد اسهب فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لأهميته ، ولكن نعيمة المح اليه بايجاز ، ورأى ريتشاردز أن على الناقد ان ينحو جميع العوامل التي تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه أو وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارىء لا من القصيدة نفسها أو دقة الحس أو

اللاحساسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على العازفين على البيانو بشعرهم » (٩٣) فقول نعيمة اذاً على ايجازه على جانب كبير من الأهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الراى بحرية وشجاعة ، وللسمو بالنقد الى المرتبة الخليقة به . واذا على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فجعلته « اداتها » فيكون النقد تحليلا وخلقا اكثر منه صوغ احكام واطلاقها » فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الأثر الذى ينقده غير الحافز والمشحذ . اما النور الذى يلقيه على ذلك الأثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مغامرات نفسه وروحه غير الأثر المنقود (أناتول فرانس) . من هنا كان الأثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى ، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التي لاتحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو » (٩٧) لذا كان على الناقد أن يفهم الجمال ، والالوان المبهجة لاتصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والالوان المبهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

---

(٩١) الغربال ص ١٦ .

(٩٢) الغربال ص ١٣ .

(٩٣) راجع اسحق موسى الحسيني : النقد الادبي المعاصر فى الربع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الاداب ص ٩ (١٩٦١) ع ١ ص ٤ .

(٩٥) الغربال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) المرجع نفسه ص ١١٧ .

الجســدية الهنا ولا اللذة الحيوانيــة ناموس الحيــاة (٩٨) فليس همّ نعيمة فى النقد ابراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المنقود الى حقائقــه العقليــة والاخلاقيــة والعاطفية فيتعرف الى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا ابرازها بايضاح الانطباعات دون تنسيق او مبالغــة . على اننــا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل أمام الآثار الأدبية وحسب ، بل هى تمتد الى الحالات النفسية ذاتها التى تتأتى أمام الطبيعة والاشياء . واذا ليس النقد مجرد قراءة او تطبيق قواعد . انه قبل كل شيء « تجربة » تلتزم الكيان الحي ، بأسره فى ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر مايكون الاثر الادبي كبيرا يكون شخصيا (هاجس الناقــد التأثرى أن لايكون له هدف غير التحدث عن نفسه) لأن فى امكان الذاتية الفنية والنافذة وحــدها ان تستنبش من ضمير الجماعة رؤيتها الى العالم وموقفها منه ، فالحقــائق لايمكن ان تكــون الا فردية ، اى لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير فى أعماق الشيء والنفس (فى كل شيء ينطوى العالم الاكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدى ، اذ الفن عنده ــ كما مر معنا ــ لايعلمنا ان نرى فقط بل ان نكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الابداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبــه وجســده . وهكــذا فنعيمة لايكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لاتكون الثورة الادبية فى أسلوب التعبير بل فى الانسان مصدر كل تعبير . والبحث عن النفس الانسانية (اننا فى كــل مانفعل وكــل مانقول وكل مانكتب انما نفتش عن انفسنــا (٩٩) والعالم هــو جوهر نظامه الفكرى والادبى : فالحياة والفن والانسان ثلاثة اشكال لوجود واحد : النفس الكلية او الروح الخالدة كما سماها آنفا . فاذا توقف النقد عند اديب ما او عند اى اثر ما ، فلا يعنى ذلك اعادة تأليفه فى قيمة ما بقدر مايرمى الى اعطائه المحــل المتاسب له بين الموجودات .

الفردية والحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتــاح جميع عمله النقــدى وظاهرته الأصيلة (لقد تأثــر المهجريون بالأدب الغربى ولا سيما بالادب الرومنتيكي الذى يعزز النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس فى يأسها ورجائها وحزنها وفرحهــا وصحتهــا ومرضها وفقرها وغناها وآمالها وآلامهــا : فنزعوا الى الشعور الوجدانى الذاتى وكرهوا الأدب التقليــدى الذى لايصــدر عن شــعور واحساس) . وهذه هى الخلفية الفكرية التى يصدر عنها نظامه النقدى . وهى نفسها التى يصــدر عنها نظامه الادبى . مــن هنا ترابط نظراته ، احيانا ، الى حد ما ، بحيث لم تعد لمات او مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (اى المقاييس) خواطر انما تصدر عن منظور واحد لايتغير (اولم يقل بعد نحو من اربعين عاما من صدور الغربال « فى الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد » (١٠٠) .

ولنــا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على مايبدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الادبي بعينيه لابعيوننا وان نفهم منه مايفهمه هــو نحكم عليه بحكمه . وفى هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبة بيننا وبين العمل الادبي بديل ان يقربه الينا .

---

(٩٨) المرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) الغربال ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (المرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين الذوق والموهبة

فاتجاه نعيمة فى النقد لم يعتمد على التراث النقدى العربي القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربى ايضا ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتتمثل فى شكل او فى آخر ، فى محاولات ذاتية ، تعول على الموهبة وما تستعينه فى استحضار نفسها. ولا تعارض بين الذوق والموهبة . الذوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس ووثبتها بالافعال المعبرة « والموهوب هو الذى يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠١) اى ان العمل الادبى لايقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقعها وبنتيجتها (وما يمكن ان نسميه « ماهيتها »). من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقى صادرة عن هذه المبادىء العامة بالتأكيد ، ففي حديثه عن « اغانى الدرويش » لايهمه ان يحاسب الشاعر لِمَ اختار هذا الموضوع دون ذاك ، أو لِمَ يغنى هذا النوع من العواطف دون غيره، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل احسن الشاعر فى اثره أم اساء . المهم فى الخلق عنده ، كيفية التوقيع لانوعه « لِيُصعِّد **رشيد أيوب** من الزفرات ماشاء وليبك مادام فى مقلتيه دموع . فلا شأن لي معه فى ذلك . تلك هى أوتاره ، وذاك هو أسلوبه فى التوقيع عليها . والذى يهمنى هو انه يحسن التوقيع (١٠٢) . ولعله ينطوى على موقف من النقد والادب عامة ، ابعد واعمق ، فيرى ان ازدهار الادب او تقهقره لايعودان الى طبيعة المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها او العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الادبى والنقدى . واذا كان الادب العربى اثنائذ فى فقر او نقص ، لايعنى ذلك انه فى حاجة الى مقاييس ثابتة . فهى متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبعث اخذه عن النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه وعن نقاد الغرب والكبار ، بحيث يفقد الاقتباس خطورته وفداحته التى صرح عنها مرة فى الهلال « ان الشرق لفى غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنية الغربية ، اذ ليس الاقتباس الا تقليدا . وكل من يقلد سواه لايكون مخلصا لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا فى الأخذ عن آراء الآخرين ومواقفهم بل فى ان تنهج منج الآخرين انفسهم وتسير فى مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحريتك ») واذا كيف تزهر آدابنا وتثمر مادامت مقاييسها فى أيد لا تعرف من الادب كوعه من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التى تقيس الأدب بعدد مشتركيها ومناصريها واعمدتها ....) وخاصة فى تلك المرحلة اذ هى دور انتقال (وهو من اصعب الادوار فى الحركات الادبية) غرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فبقدر ـ ما ينجح فى هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوعا ومدى ، ذات شأن .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التى يقيس بها الآثار المنقودة وخاصة الشعرية منها بعد ان يؤكد « ان لكل قارىء مقاييس عديدة

(١٠١) نعيمة : راجع جورج صيدح : ادبنا وادباؤنا فى المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٦) .

(١٠٢) نعيمة : مقدمة ديوان « اغانى الدرويش » لرشيدايوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الغربال ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(١٠٤) نعيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٣١) ج ٢ ص١٢٨ .

(١٠٥) الغربال ص ٧٣ ـ ٧٤ .

يقيس بها الشعر والشعراء لست لآخذها منه ولا لأبدلها بمقاييس ، فما انا الا عارض عليه ما عندى ، فلينبذه اذا شاء او ليقبله اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعيمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذى تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا فى المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته أن يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، وما لا يروق لهم نبذوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبى يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، فى شكل او فى آخر ، مبدع ضمن اطار ايديولوجى لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها أو ان يعدلوا فيها ، ان يرفضوها كلية أو جزئيه ، غير انه لا يمكنهم التنصل او الفرار منها . ولهذاايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه : فاذا بقوا وحدهم مستفردين يظلون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبى

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فأول ما ابحث عنه فى كل ما يقع تحت نظرى باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذى اعنيه بنسمة الحياة ليس الا انعكاس بعض ما فى داخلي من عوامل الوجود فى الكلام المنظور الذى اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة أيقنت انه شعر والاعرفته جمادا. واذذاك ليس ليخدعنى بأوزانه المحكمة ومفرداته المنمقة وقوافيه المترجرجة (١٠٧) . فبقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة اخرى ، فان منطلق هذا المقياس هو ان الشاعر يعبر عما وجدنا نحن من قبل ، وكأننا جميعا أدباء بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التى اعوزتنا (هذا ما يراه التأثريون) فاذا قوى احساس المرء بعمل أو قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمية هذا المقياس فى جميع نقده فطبقه فى « الارواح الحائرة » (الغربال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغربال ص ١٤٥) والقرويات (الغربال ص ١٥٥) والريحانى فى عالم الشعر (الغربال ص ١٦٣) وكثير من رسائله ... فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . ونحن نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه فى مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر أو الادب على اثارة العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفى ذاتها من الاسباب الهامة فى بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانين « وليس الشعر كلهمحتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى ان يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالى صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول فى ذلك فانما يصدر عما كرره من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق ... الا اذا شعرت برعشة الحياة فى داخلها ، لأن الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التى تحدثها فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منبه لما كمن فى داخلنا من العواطف والافكار ، فلولا عواطفنا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة ارث مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

---

(١٠٦) الغربال ص ١٢٩ .

(١٠٧) المرجع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربى ص٥١ .

العواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعرى او الادبى بقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذى يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر فى ذاته (فى انه شعر) اذ ان نعمية لا يقيم كبير شأن للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبى شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لغرض آخر ، يبرر وجوده، الا وهو ، « الافصاح عن الحياة اى عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية (١١٠) ولا ضير فى اى أسلوب او مظهر اتخذته هذه الحاجة . فما أبواب الادب الا أساليب (راجع «الريحانى فى عالم الشعر » : الغربال) حيث يؤكد ان ليس من آفة فى ان يتنقل الكاتب من هذا الباب الى ذاك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من أن يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاول الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، أو أن الشعر يفضلهما لاعتبارات فنية تقنية .

ومتى يوقن ان فيما يطالعه شعرا يعتبر العنصر الثانى فى تمييز الاثر الادبى من غيره « باتساع مداه ، بعمقة وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) فى الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق بسابقه ومنه يمتد . ولطالما راعاه فى مجمل نقده (١١٣) . اذ يقدر كالعقاد ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذى يعطى الابيات كيانها الشعرى غير الرسم الجديد والفكر المبتكر والعاطفة الحية والمتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه المقياس الذى يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين فى تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قالبه والسبيل الذى اعتمده صاحبه فى اظهاره « وانا حيثما اطل على الصدق والاخلاص فى اى عمل ادبي قلت : انه لعمل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناثر او الناظم اذا هو خاطبنى بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يبث افكاره وأحاسيسه في قوالب بيانية قد تبعد كل البعد عن القوالب التى فيها اسكب افكارى واحاسيسى . فلست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على غيرى حقا اعده من اقدس حقوقى . وهو أن اعبر عن ذاتيتى بالاسلوب الذى يرتضيه ذوقى ويطمئن اليه وجدانى (١١٦) . فنعيمة لا يعير الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من أية فلسفة فنية جمالية فى ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التى راح نعيمة يطلق فيها آراه النقدية ونتاجه الادبى لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربى السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق فى

---

(١٠٩) الغربال ص ١٢٣ — ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٦٣ .

(١١٢) الغربال ص ١٢٩ — (مقالة الارواح الحائرة) .

(١١٣) راجع الغربال تبيانا لذلك ص١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الغربال ص ٢١٢ .

(١١٥) الغربال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا قربان .

المبحث الفني الاستطيقى الجمالى ، ثم ان احداث العصر نفسها وقضاياه لم تكن لتنحو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبي الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التي تمتد فى فكر القارىء ووجدانه اثناء التعرف عليه . اى ان خير مقياس لنجاح الاثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التي تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمته فى مدى صدق الناقد واخلاصه المتفانيين لانهما «سر الابتكار والابداع عند الأديب» (١١٧) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للاثار على أساس مطلق ومجرد ، بل على أعتبار العلاقة الحميمة بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتاجات قبله سبقته ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال عن المدى هو ، عندنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء فى المفهوم النقدى عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما أعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الىالجانب التقييمي ،اى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى ـ خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل ـ الى هجير حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية. فكان اذا ثمة تدرج منطقى وطبيعى فى منهجه ، فتطلب المدى بعد تبينه نسمة الحياة عن طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللغة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هى المنشودة لذاتها ، بل القيمة للقدرة على الاتصال بالناس عن طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن أى اعتبار مادى آخر كالجنس ، او المذهب او غيرهما لقد جمع (عمر فاخورى) الى سلامة اللغة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراعة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بال مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وافكارهم اينما كانوا ، ومن أيما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . ومن المعروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التمييز الفطرية .

قضية الشكل

أما العنصر الثالث فهو ثوب الأثر الادبى الخارجى ، أى دقة تركيبه وحلاوة رنته« وبعد ذلك فحصت عن سرواله الخارجى ، عن دقة تركيبه وحلاوة رنته وطلاوة ألوانه وما اشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان » الازياء البيانية ظلال لا تستقر على حال ،والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير عن كيانه (١٢٠) . فالكاتب أثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن في صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعى الذى يتوتر ، كالنهر ، ولا يعود مرة اخرى . ثم ان الكاتب كما اشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير أن نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالبهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

---

(١١٧) نعيمة : المراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخورى اديب وانسان : الطريق ،١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

ويفهم القالب على انه « لا ينحصر فى تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والالوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والالوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقوالبه عنايته بما يسكبه فيها من روحه لعلمه ان جمال القالب يزيد فى جمال ما يسكب فيه (١٢١) ذلك لانه باعتبار منطلقه الفلسفي والادبي كما بينا يعتبر بوحدة واحدة فى الجمال والكون . فكيف لايعتبر فى النتاج الادبي ومقياسه وحدة واحدة ايضا . فلا شكل بلا محتوى ، او ان اى محتوى لابد له من شكل يتجسد به . الفرق فى الموقف اذا : بديل ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما فى النقد القديم) فان الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد فى جمال المحتوى . يضفى على ماهو موجود شيئا ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الاخرى وطبيعتها الخلاقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هى فى الحقيقة ، اساليب متنوعة للابداع الانسانى الواحد . ويقرب هنا كثيرا من نظرية تولستوى فى الفن التى تقول بانالفن فعل انفعالات انسان ما بغية ان يشاركه الآخرون اياها ، وذلك عن طريق الحركات والخطوط والالوان والاصوات والاشكال المعبر عنها بالكلمات . اى لابد أن تكون هناك فكرة جديدة تهم الانسانية ويكون التعبير عنها بوضوح ليفهمه جميع الناس . واخيرا ان يكون دافع المؤلف الى انتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالمضمون هو الذى يعطى العمل الفني قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، اما علاقة الفنان بعمله فيعطيه قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٢)

القرابة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات فى الموقف النقدى ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير فى خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهى حيث تبدأ ، كل مرة ، وامام اى ظاهرة ، فاقتصرت محاولة احياء الروح فى العمل الادبي بكشرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . انه لايقدر فنا ولا ادبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه من الآفاق الجديدة ، وهو لايرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالخيال الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الأعلى وصاحبه فى آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباها فى نقد الأثر الشعرى هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينزل بفكره الى اغوار تحتها اغوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من ورائها سماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لعاطفته مدى يجرها الى امداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتتفتح له براعم الحياة فى داخله (١٢٤) . وهكذا فان نعيمة حين يقف أمام الأثر الأدبى — وخاصة الشعرى — يقيسنفسه به حينا ، فاذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها عهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التى صدر عنها . وهو فى كل هذا يعرف ظاهرة « الاتحاد الفني » حيث تفنى الذات فى الموضوع ، فاذا به يقترب كليا من ابن قتيبة فى حكمه النقدى « أشعر الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالمطلوب من الشاعر ان

---

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الاداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فاتحة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع الغربال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

يجعلك تعيش في شــــعره فتكون أنت هــذا الشعر . انه يسعى باستمرار وراء « القرابة الروحية (١٢٦) بينه وبين الشاعر » .

آراؤه في فن الرواية :

الا أننا نشير أخيرا ، الى أن هذه المقاييس النقدية عنـد نعيمة ، وان اقتصرت في معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فرأى انها تحتاج « عدا الفكر المعلل والمحلل الى يد المتفنن لابراز أشخاصها الى الحياة ولتطبيق مشاهدها على فكرتها الأساسية (١٢٧) . فتتطلب ، بالتالي ، خبرة فنية تقدر على الملاءمة ومراعاة أصــول هـذا الفن . فالروائي الفنـان اذا ما خلـق شخصـين أو أكثر نوّع الاغراض التي يرمي اليها من وراء كل منهم (١٢٨) . أي أن التأليف الـروائي ليس كتابة مقــال ثم يأتي للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل في سير الرواية ، وله غرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها . « فالشـخص في يـد الروائي كالحجر في يد المثال يخلق منه ما يشاء ،والمثال الماهر ليس كالمرائين الذين يحسـبون ـ كما قـال فيهم يسوع ـ ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة ازميل مثلما قد يخلق المصـور العبقري آيـة من الحسن بلمسة ريشة ، والكاتب الفنان أفقا من الجمال بشطحة قلم (١٢٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو في القدرة على التأثير (كما في الشـعر وسـائر الفنون الأدبية) في السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على أمرين :

أ ـ اذا كانت الرواية مشــــهدا حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

ب ـ اذا كان الممثل قـادرا على فهم أفكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتأدية تلك الغاية الى الســـامع بواســطة الصــوت والحـركات (١٣٠) . فالـرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكأ الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نعيمة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقاد عليه من عـدم اعارتهم اي انتباه لهذا الفن . فأفرد نعيمة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب الغربال (وهي نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلمح بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) أو قصص موضـوعة (العواطف لجبـران) . . . وهو بذلك يتقدم على سابقيه او معاصريه من النقاد . لأن مجمل تلك المقاييس التي حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازني . . .) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرف الا الى فن محدد منه هو الشـعر الغنائي المتوارث من القديم « وأخذ نقادنا ومفكرونا يقتتلون حوله خلال الربع الأول من هذا القرن بل الى ســنوات بعد ذلك ، مغفلين فنونـا أخـرى أخذت تظهـر في ادبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشـعرية ، وفن القصة والاقصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا نكاد نعثر على آراء فيها وفي

---

(١٢٦) نعيمة : مقدمة ديوان الجداول لابي ماضي (٢١حزيران ١٩٢٧) .

(١٢٧) الغربال ص ١٦٥ .

(١٢٨) نعيمة : رسالة الى كرم ملحم كـرم عـن روايته« المصدور » .

(١٢٩) المصدر نفسه .

(١٣٠) الغربال ص ٣٢ .

مناهج نقدها عند نقاد الجيل السابق ، واذا كان نعيمة يمس بعضها حينا ، فانما كان ذلك من قريب ، حيث انك لا تجد تحريا لوضع اصول مترابطة فى هذه الفنون ، بل خطوات تتولد من جراء التعليق على قصة أو التمهيد لرواية ...

هذه هى أهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة فى نقده ، وهو يرى أن الأمة المتيقظة بحاجة الى «تقويم» مفهومياتها الأدبية ، وتعديل مقاييسها وموازينها الروحية باستمرار (١٣١) ان النقد فى تحد مستمر لأنه فى نبض مستمر . فعمل الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد فى كل مرة ، لأنه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء والحقائق لتبيانها . ولكل حقيقة نمط تظهر به . واذا كان يؤكد بأن للزمان غربالا اين منه غرابيل الناس ، او أن الحياة للحياة وحدها القول الفصل والحكم الاخير (١٣٢) لا يعنى ذلك ، عندنا ، الا ان الحياة والزمان يعطيان الناقد « خبرة نقدية » و « تجربة معرفة » تسيران بالناقد أو بالمبدع الى النضج (للزمن فعل كبير فى تطوير الملكة الشعرية عند الشاعر (١٣٣) لأن المقاييس النقدية ، بالتالى ، غير منفصلة عن الحياة أو هى من خارج الحياة . من هنا كان الشاعر فى حاجة الى غربال ، لكنه يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٣٤) . على هذا تأتلف جميع الظواهر : الأدب (الأديب) — النقد (الناقد) — المقاييس النقدية (الحياة) . فلا تمييز ولا تفريق بين الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها فى الحقيقة وجوه متعددة — مظهرا — لشيء واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود . ولكم يذكر حكمه هذا بقول ابسن « اذا اردت الكتابة فانك تستدعى نفسك الى محكمة انت قاضيها » .

● ● ●

المنهج الانطباعى :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعى او الموضوعى او العقائدى أو اللغوى او الجامعى ... وايا كانت مقاييسه الذاتية أو العلمية أو التاريخية او الفنية .. يبقى له منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ، اى هو يعتمد أصولا معينة فى فهم الأدب ، وفى تبيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير ان هذا لا يعنى اخضاع كل عمل أدبى ، الى مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجمد بذلك شخصية الناقد ، وتتعطل عنده حساسية التذوق الذاتية ، القادرة على اكتشاف القيم الخاصة فى كل اثر أدبي بذاته . من هنا كان من الخير للأدب أن تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة الذى هو شغل الأدب لا يختلف من هذا القبيل عن اى بناء (١٣٥) . أوَ ليس كل اثر هو نتاجا شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة لا تتكرر عند فنانين بل هى لا تكرر نفسها فى نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره والبحث فيه لا يصدران عن مناهج سابقة لانهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار اخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدى ، عند ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو كيفية عرض لها .

---

(١٣١) الغربال ص ٢٠٨ .

(١٣٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٣٣) راجع الغربال ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(١٣٤) الغربال ص ١٦١ .

(١٣٥) دروب ص ٥٤ .

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الاقناع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الاقناع الا بالحجة (١٣٦) . **والسبيل الى** ذلك يتحصل عن ضبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومتانة ترابطه بعضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكأن هذه العناصر حلقات في سلسلة واحدة (١٣٧) تقوم على التبسيط والوضوح الى أقصى حد ، فهو عندما يخاطب القارىء تراه ينتقل به خطوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري عهدئذ زيادة في سبيل تأكيد الاقناع وفعله في العقلية المتحجرة السائدة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى اليه (١٣٨) .

وهو من منطلق الاقناع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « الغربلة » يتبين لنا ان **منهجه في النقد منهج تأثري ذاتي** (لكل ناقد غرباله ... ولا قوة تدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية...) اى هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهى الى خلق أدبي مبتكر . « أجل ان كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام عن غيره » . فقد يقلقه اشد القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور بحرف اللام بدلا من الباء فيثور ثائره ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الملأ انه ارسخ قدمنا في علم النحو من مؤلف الكتاب (١٣٩) . وبالنسبة للقارىء فله مقاييسه واعتباراته ، فغرض نعيمة في النقد العرض لا الفرض « فما أنا الا عارض عليه ما عندى » (١٤٠) . والمقالة النقدية التى يعرضها انما هى « مزيج من فلسفة وأدب وانتقاد » (١٤١) ينخو بذلك نحو **بيلنسكي** الناقد الروسى في تنويع المقالة بحيث تضفي جوا من الخصوبة وتبعث على الارتياح والامتاع ، فلا يعود النقد متطلبا لذاته ، لذا كان يطلب من القراء مطالعتها، فربما يجدون فيها ما يستحق النظر « لا بل طالعاها ، قبلتم أم لم تقبلوا ، ولماذا المداجاة ، فانا لم اكتبها لذاتى » (١٤٢) على ضوء ما تقدم ، يسلك نعيمة في عمله النقدى منهجا نحاول أن نرسم خطوطه فيما يلى :

« انتهيت الساعة (من « منشود ») ويسرنى ان انقل اليك بغير ابطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفسي فقد راقني تصويرك للاشخاص... مثلما راقنى ما اجريته على السنتهم ... (١٤٣) .

واذاً هو منهج انطباعى تأثرى ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التى تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فاذا لم تتوفر لا يمكن كتابة أى نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدى بالتعريف

---

(١٣٦) الغربال ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر الغربال ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو المنهج الذى اتبعه بوضوح كبير في مقالته « الغربلة » راجع الغربال ص ١٣ ـ ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) الغربال ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشور كما يراه نعيمة ، راجع الحكمة» ١٩٥٥ ، ع ٥ ص ٥ .

بالأثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٤٤) . وهو يهتم كثيرا بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر أو الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، فى رأيه ، صورة المنقود ، فى أكمل وجه ، ثم يتحدث عن ثقافته وتعلمه ذاكرا أول اطلالاته الأدبية (أين ومتى) ثم ينتقل الى القسم الثانى وهو دراسة مؤلفات (أو مؤلف واحد بعد ذكرها جميعا) (١٤٥) . أى بامكاننا تذوق النتاج الأدبى دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالى ، فان نعيمة يحاول أن يلم ، فى طريقة للفهم ، بكلية الأديب فى شكل مؤتلف . فما يهمه من النتاج ، أولا واخيرا ، هو اكتشاف الانسان وراء الأديب اكثر من اهتمامه بالفنان . ان الأثر الأدبي وحده ، منفصلا عن صاحبه ، ومعتبراً لذاته ، ليس هو غرض نعيمة فى البحث. وهكذا ينتهى الى النقد الاخلاقي الذى عرف فى أوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاراه « أن جمال الأثر الفنى يجبأن لا يواجهبصورة مجردة ومستقلة عن الوسط الذى نتج فيه رينان : مستقبل العلم) . أى ليس للأدب قيمة أو جمال الا باعتباره شهادة للانسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الاعجاب بالنتاج الأدبى الا على اساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حقةوسليمة . وكان Villemain (١٧٩٠ — ١٨٧٠) أول من اراد أن يشرح العمل الأدبى بسيرة الكاتب وبالعصر الذى عاش فيه (١٤٦) . ولعل نعيمة يحذو فى ذلك حذو **سانت بوف** ، الناقد الرومنسى الكبير ، فى منهجه الذىيتلخص بالعنايةبالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف اساسا لفهم ما يكتب ولنقده « ليس الأدب — أى الانتاج الأدبى — منفصلا فى نظرى عن الانسان ، فباستطاعتى أن أتذوق مؤلفا أدبيا ، ولكن من الصعب ان احكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لأنه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودنى الدراسة الأدبية الى الدراسة الانسانية قيادة طبيعية (١٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه ان راح يتطلبه ليس فى الدراسات النقديةالبحتة وحسب ؛بل حتى فى كتب « المنتخبات » أو ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب أحدهم لعدم ذكر ترجمة عن حياة كل شاعر ذكر له قصيدة فى كتابه ، ويقول « تمنيت لو انك اوردت نفذلكة عن حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارىء العربى الذى لا يعرف شيئا عن أولئك الشعراء والذى يطل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٤٨) لأن النقد الحق (يتكون — كما أجده — من دراسة كل شخص ، أعنى كل مؤلف ، أعنى كل ذى موهبة ، حسب احواله الطبيعية لكى نقيم له وصفا حيويا حافلا ، حتى يمكن ان ينزل — فيما بعد — فى موضعه الصحيح عن سلم الفن » (١٤٩) .

---

(١٤٤) انظر الغربال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٤٥) انظر رسالة نعيمة (تولستوى عملاق الروح والقلم)ورسالته غوركى من القاع .الى القمة ايار ١٩٥٨) ومقالة (عمر فاخورى الفنان) المنشورة فى الرسالة ١٩٥٦ ع ١ ص١ ، ومعظم رسائله الاخرى .

(١٤٦) راجع فان تيغم « المذاهب الادبية الكبرى فى فرنساص ٢٢٠ .

(١٤٧) سانت بوف : احاديث الاثنين الجديدة ج ٣ : مقالعن شاتوبريان .

(١٤٨) رسالة نعيمة الى صاحب « قصائد منالادبالاجنبي»توفيق اليازجى ، الاديب ١٩٦٣ ، ع ٨ ص ٥٧ .

(١٤٩) راجع ستانلى هايمن : النقد الادبي ومدارسهالحديثه ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

اذا انتقل الى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع فى عرض مقاييسه « قلت فى مقدمة الكلام ان اول ما اتطلبه من الشاعر هو المدى ــ مدى الفكر والعاطفة والبيان . ومن ثم اتفحص قوالب شعره الخارجية . اما المدى فليس من ينكره فى شعر (نسيب عريضة) ... وأما قوالبه ... (١٥٠) . وتراه فى معظم الأحيان ينهج فى أحكامه نهجاً فحواه « ضربة على الحافر وضربة على المسمار » ، فكلما ذكر الردىء ذكر الى جانبه الجيد فى آن ، وعن قصد ، ويكفي ان نتمثل هنا ببعض ما جاء فى نقده « للدرة الشرقية أمثال كثيرة من... الوصف السطحى الذى لا يحرك فكرا فى راس ولا يرسم صورة فى مخيلة ، ولا يهيج عاطفة فى قلب . غير ان فيها من الوصف الشعرى ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين ابيات جاءت حشوا ، فبان كضمة من الزهر فى حقل من العوسج » (١٥١) ولشد ما كان يزعجه الأثر السيء التأليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك فى القصيدة ، وانعدام الوحدة العضوية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع فى بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك امره او يتدبر عمله النقدى ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك فى النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار فى أمره الناقد وسدت فى وجهه السبل . فلا حول ولا » (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا ان بحث نعيمة النقدى يقوم على التنظيم ودقة التصميم ، والمنهجية،وليس هو مجرد خطرات متباعدة أو متناثرة ، اساسه التحرى النفسى. وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد فى منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له باخلاص وأمانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب فى خبراته الأدبية وتجاربه الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزعه التأثرى ، بكل تأكيد ، اذ « تقول التأثرية على « الربط » فاذا عرضت قصيدة انتقل متلقيها ... الى اشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص»،ويحكى المتلقى فى وصف العمل الفني مؤثرات نفسية(١٥٣) وبيولوجية ويخضع المتلقى لسلطان الذاكرة واحكام التداعى (١٥٤) . واذا يعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الاديب الواحد لينتهى الى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك ان «المقابلة» والتحليل هما فى راى **ايليوت** ، عدتا الناقد الاساسيتان ، ويقومان على تشريح المنقود وتفسيره تفسيرا مستمدا دائما من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيسد بعض الخلل الواضح فيه . الا ان اعتماد المقابلة هذه سبيلا فى النقد لا يعنى ، عند نعيمة ، الانتهاء الى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فاذا كان للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحدهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك أو ذاك على ذلك ــ وقد يكون فى مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم او لقارئيهم « اما انا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي الف مرة ومرة . وتركت

---

(١٥٠) راجع الغربال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الارواح الحائرة » فى الغربال ص ١٣٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) الغربال ص ١٦٤ .

للقارىء المقارنة بينه وبين سواه ومحاسبته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقديرك الكاتب منوط بما تقرأ من نفسك وعنها في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء الى طبقات الا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات وكمثلهم النقاد ، وما يصح ان يقال في الواحد منهم لا يصح ان يقال في كلهم « كما ان الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان أحيانا ، بنتيجة هذه المقابلة أو المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القدامى في موقف يطلق فيه « الاحكام المطلقة » عن الاندفاع الشعوري المتحمس . فبعد ان يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة حتمية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت ارق وادق وابدع من هذا الوصف (١٥٨) . أو يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفضيل كمثل « ما اظن فنانا من أبرع الفنانين كان يستطيع ان يرسم .. صورة أوقع في النفس ... و « ابلغ من تهكمه ... و « الغاية في الابداع .. » في مقال يمتد الى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منهما (١٥٩) . او تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على انه « اجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الاطلاق ... (١٦٠) . (كل هذا يصدر عن منهج تأثري ذوقي) وهذه هي عادة القدماء في النقد كما هو معروف ، ذلك ان الناقد كان يحكم بأن هذا البيت من الشعر أو ذاك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذاك أو أن هذا الشاعر هو أحسن شاعر في هذا الفرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود الى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استنفاذ لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغته قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الاحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، ايضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانهما في مجمل ابحاثه النقدية النظرية والعملية . فكأني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود الى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقلية في فهم الادب وتقديره . وهذا وجه ارقى . واكثر مواضع هذه الظاهرة بروزاً عنده في مقالته «الحباحب» (الغربال ص ٣٧) والدرة الشوقية (الغربال ص ١٤٦) وابتسامات ودموع (الغربال ص ١٨٣) ومستهل «اغاني الصبا» (الغربال ص ١٨٩). واماكن أخرى . ولكم كان موفقا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى ان تمس مسنا . فهو هنا لايقل جودة وفنا عنه في رصانته واتزانه . فيصقل تأليفه لتشف منه خواطره الحية . وأراني مضطرا لنقل هذه الاسطر لتبيان هذا الملمح عنده ، فيقول في « الدرة الشوقية » (قصيدة

---

(١٥٦) الغربال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الغربال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة ـ عمر فاخوري اديب وانسان ، راجع الطريق.١٩٥ ع ٤ و ٥ ص ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : عمر فاخوري الفنان ، الرسالة١٩٥٦ ع ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « القرويات » في الغربال ص ١٦٠ .

(١٦١) الغربال ص ١٢٧ .

لأحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال) مرتفعا بالهزء في تصاعد مستمر مبطن « لقد سمعت » بدرر « شعرية كثيرة ولما اعملت فيها طرف المبرد وجدتها صدفا لماعا ... ولولا ما للهلال عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفني والادبي لما اقبلت على مطالعة « الدرة الشوقية » . لكن للهلال في عيني منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ أيامي المدرسية ان اصدق مايقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رأيته يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة ... ووقفت قليلا لأتأكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية ... (١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدي ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى النقد الباني ، يحلل ويدقق في أصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هنداوي الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب الغربال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذي تريد ، ولكن هذا التهكم لاتجد له اثرا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وانما هو النقد الجاد الصارم، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يبح ويبكت، ولا يتهكم ، واذا تهكم فلا يبتسم (١٦٣) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية الخلق ، ألتي لاتكون الا مع الانسان ، الذى هو أعظم من الزمان والمكان (١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان الادب والنقد استثمار للاشياء ومصالحتها ، وبالتالي ابتعاد عن التسليم وانصراف الى التأمل – من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١٦٥) ، بل اتخذ ، في نقده ، منهجا روحيا يبدأ بالنظر الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات (الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ، فالنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقواعد المحددة . انه تفتق شعورى وفني .

* * *

---

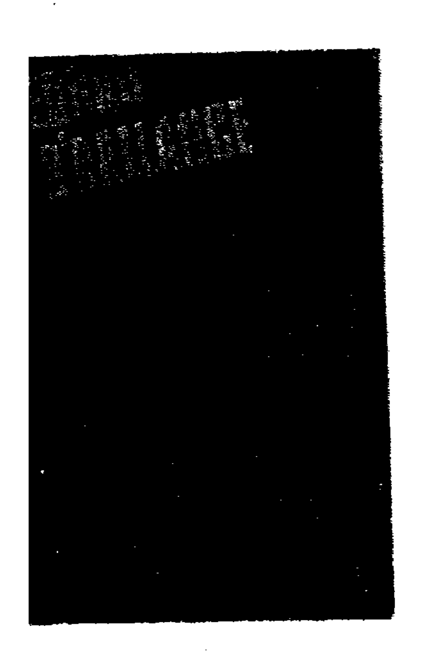
(١٦٢) الغربال ص ١٤٦ – ١٤٧ .

(١٦٣) خليل هنداوى : التصوير والنقد والفن عندميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، ٥ كانون الثاني ١٩٣٦ ص ٦ .

(١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماهول » من كتاب هوامش (بيروت دار صادر ١٩٦٥) .

(١٦٥) هذا هو المنهج الفهمي في النقد وقد اتبعه فيما بعدمحمد مندور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .

عرض الكتب



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ـ١٩٧٢

عرض وتحليل : الدكتور أسعد عبد الرحمن

تمثل هذه الدراسة التى وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » . حلقة فى سلسلة تقع فى خمسة عشر كتابا نشرها المؤلف فى ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل أبحاثا محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية أو أهلية، تغطى شريطا عريضا من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الارضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب العصيان الشيوعى بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسى »و« الجيش الاحمر الصينى» كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . وعن « حكاية الفرق الاجنبية الافرنسية » بالاضافة الى سبعة كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقعت فى الوطن العربى ،سواء فى شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين او اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الاسرائيلية الثلاث الاولى.

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولا : بتسلسل منطقى وزمنى وتقسيم جغرافى يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارىء عبر أحد عشر فصلا دونما أى تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذاك التنسيق عندما نعرض للمادة المتضمنة فى الدراسة . وفى هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسى **الأول** فى هذه المراجعة .

ثانيا : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

امامه ، وبالتالى ، وفى كثير من الاحيان ، بأدق التفاصيل . على أن ذلك لا يعنى ان الدراسة خالية من الأخطاء الفادحة أحيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لأبرز هذه الاخطاء الجانب الرئيسى **الثانى** فى هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بأنها نجحت فى معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها أقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية ــ الصهيونية ــ الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض أوضح المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسى **الثالث** فى هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يخصص المؤلف **الفصل الاول** ، « **عبادة الفدائيين** » The Cult of Fedayeen لاستعراض جذور النشاطات الفدائية الفلسطينية من نقطة زمنية تبدأ مع اسدال الستار على أحداث الحرب العربية ــ الاسرائيلية الاولى فى العام ١٩٤٨ . فيشير « أوبالانس » الى أن غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت فى مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقى الحال كذلك الى أن بدأت الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية بالالتهاب فى العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما ادى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصرى الجديد . وقد تبلور رد الفعل الاسرائيلى فى غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من العسكريين والمدنيين المصريين والفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقى الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشمل الجبهة الاردنية وأدى بالتالى ، الى حرب السويس (الحرب العربية ــ الاسرائيلية الثانية) فى العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبى (٢٠ ــ ٢١) . الا أن هذا التوقف فى الهجمات والغارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل فى العقل الفلسطينى . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح أسلوبا أساسيا من أجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » فى العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطنى الفلسطينى ــ فتح » أثر مباشرتها النضال المسلح فى مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ ــ ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تأريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها فى الاشهر التى سبقت حرب حزيران ــ يونيو ١٩٦٧ ــ (٢٩ ــ ٣٤) .

فى الفصل الثانى « السمكة والبحر » ، يوضح « أوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربي كما تجلى فى لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائي (٣٦) . وبعد أن يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « يقرر » فشل العمل الفدائي فى تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضى المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢ ــ ٤٣) . وقد تمثلت قمة الغارات الاسرائيلية الانتقامية فى « معركة الكرامة » التى منيت بها الغطرسة الاسرائيلية بضربة موجعة ، فى حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطيني الجديد فى العمل الفدائى الفلسطينى

(٤٦ – ٤٧) ليس في مواجهةاسرائيل فحسب بل وفى مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨).

يركز المؤلف فى الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمراحل الأولى من العمل الفدائى العلنى » (٥١) ، شارحا التزايد المستمر فى اعداد رجال المقاومة وكيف مكنهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلنى وتحسين أحوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ – ٥٣)، محاولا – بدون نجاح كبير – شرح موقف الاتحاد السوفياتى من العمل الفدائي فى تلك الفترة (٥٦ – ٥٧) ومثبتا ازدياد مكانة المنظمات فى الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقى المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ – ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية فى شهر تشرين الثانى – نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ – ٦٥). وينتهى هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التى ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان أبرزها الهجوم الاسرائيلى الشهير على مطار بيروت (٦٨ – ٦٩) .

أما الفصل الرابع « تعاظم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتا لحقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته فى العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ – ٧١) وتحقيق بداياتفى الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة احد اكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ – ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف ايجابى – حسب اعتقاد المؤلف – من قبل الاتحاد السوفييتى من جهة ثانية (٧٦ – ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا فى عمل حركة المقاومة ، اذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطينى فى بلدة « الحمة » بعد تحريرها لمدة بضع ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية بالذات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط انابيب التابلاين (٧٨ – ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية (غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى اعنف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الاقصى فى ١٩٦٩/٨/٢١ (٨٢ – ٨٣) وعن ازدياد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ – ٨٥) . وأخيرا لا يفوت المؤلف الاشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة فى « الجبهة الشرقية » والى التعارضات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدعاية » التى اندلعت فيما بينها (٨٨ – ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى لبنان فيشرح فى **الفصل الخامس« أرض فتح »** العوامل التى ادت الى بدء تركز العمل الفدائي فى بعض مناطق جنوبى الجمهورية اللبنانية (٩١ – ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والأزمات التى حكمت العلاقات الفلسطينية – اللبنانية (٩٤ – ٩٦) والتي ادت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات(٩٨ – ٩٩) كان ابرزهاصدامات تشرين الاول – اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت – عبر الوساطة المصرية – الى عقد اتفاقية عرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ – ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل حادثة الكحالة (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعدباسم معركة العرقوب(١١٠ – ١١١) التيواجه فيها الفدائيون الفلسطينيونالقوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من التهاب فى الجبهة السورية – الاسرائيلية (١١٤ – ١١٥) .

وفى الفصول الثلاثة التالية يعـود المؤلف بالقارىء الى الساحة الأردنية ، فيشرح عبر تتابع زمنى الاحداث التى شكلت « **مدخلا الى الحرب الاهلية** » (**الفصل السادس**) **مركزاً** فى الفصل الذى يلى (السابع) على وقائـع « الحرب الاهليـة فى الاردن » ومنتهيـا (فى الفصل الثامن) الى « هزيمـة الفدائيـين فى الأردن » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضا وافيا بسلسلة العمليات التـى قامـت بهـا « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » فى أكثر من مكان خـارج الشرق الأوسـط ، والتـي تضمنت بالأساس ، خطفا لطائرات متنوعـة الجنسيات ، وهجوما على أكثر من مطار فى اوروبا ، ونسفا لعدد من الطائرات (١١٧ ــ ١٢١) . وفى تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية الفلسطينية تزداد تشنجا واقترابا من درجة الصدام الحاسم ، الا أن الملك حسين عرف ــ اكثر من مـرة ــ كيف يحنى رأسـه للريـاح الفدائية الشديدة فحافظ على « شعرة معاوية بينـه وبين الفدائيين وكان ذلك كلـه مدعاة لاستياء القبائل البدوية ومعظـم قطاعـات الجيش (١٢١ ــ ١٢٢) و١٢٧ ــ ١٢٩) . وفي هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت الاتحاد السوفياتى والصين وفيتنام (١٢٣ ــ ١٢٤) فى حين كانت الهجمات على اسرائيل متصلة وكذلك الغارات الانتقامية الاسرائيلية (١٢٥ ــ ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين أطراف الصـدام الثلاثى الجوانـب (الفـدائيون ــ اسرائيل ــ الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ، وزير الخارجية الاميركية ، عن مبادرته السلام والتى وافق عليها عدد من الرؤساء العـرب كان فى طليعتهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك حسين(١٣١ ــ ١٣٣) . وكانت الحصيلة أن ساءت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضا ، وبدأ كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه لمواجهة بات وقوعها امـرا متوقعا ووشيكـا (١٣٥ ــ ١٣٦) .

وفى الفصل السابع يستعرض المؤلف التصاعد المتسارع في التوتر بين السلطـات الاردنية والفلسطينية وصـولا الى انفجـار « الحرب الاهلية فى ايلول ــ سبتمبر من العام ١٩٧٠) . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب الملك حسين الذى أعلن فيه موافقته على بادرة روجرز (١٣٧) . وفى تلك الاثناء ، قامـت « الجبهةالشعبية» بتنفيذ سلسلة من العمليات التى استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عـرف باسم «مطار الثورة» (مطار داوسون المهجور) باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبان أميركان والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على أرض مطار القاهرة (١٣٨ ــ ١٤٠) . هذا فى الوقت الذى بدات فيه الاشتباكات المحـدودة بـين الفدائيين والسلطات الاردنيـة تـزداد قـوة وانتشارا حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى بلغت قمتها باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧ ايلول ــ سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ ــ ١٤٥) . وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية (١٤٥ ــ ١٦٠) لشرح أدق « التفاصيل عن معارك أيلول بما فى ذلك الدعـم السـورى للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولى بين مؤيد لهذا الفريق ومؤيد لذاك (١٥٠ ــ ١٥٣) . وبقى الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر الطارىء للرؤساء والملوك العرب ، والذى مثل الاردن فيه البريجادير محمد داوود، الذى عين فى وقت سابق رئيسا للحكومة العسكرية التـى انيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣). وفى مرحلة لاحقة ، واثر ايفاد مؤتمـر القمـة الرئيس السودانى (جعفر النميري) الى عمان نجح المؤتمرون فى اعلان « اتفاق القاهرة » بين عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى العاصمة المصرية أثناء احتدام المعارك فى الاردن (١٥٤ ــ ١٥٥) هذا وقد أعقب ذلك اتفاقية

اخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليتمركزوا عند الحدود مع اسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفى التل (١٩٧٠/١٠/٢٨) رئيسا للوزراء (١٦٠) .

اما الفصل الثامن ((هزيمة الفدائيين فى الاردن)) فيستعرض شريط الاحداث التي ادت الى اخراج الفدائيين من المدن وتسليم أسلحة الميليشيا فى المخيمات ، بالاضافة الى محاصرة الفدائيين المتمركزين فى أحراش جرش وعجلون الى خارج الاراضى الاردنية وكل ذلك تحت سمع وأمام أبصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ – ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦). ويعتقد المؤلف ان ما كشفته « هزيمة » الفدائيين فى الاردن يتلخص فى افتقادهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، وتعدد وجهات النظر ، وعجز القيادة ،(١٦٢). ومع ذلك يشير الكاتب الى نجاح المنظمات الفدائية فى تقليص عددها من أحد عشر تنظيما الى أربعة أو خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات فى حركة فتح (١٦٣) ، الا أن موجات النقد والنقد الذاتى ملات الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » فى موقفها المتصلب الرافض تسليم اسلحة الميليشيا واى صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحا أن الصدام واقع لا محال ، وان اسرائيل – عبر ما أعلنه مسؤولوها – ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل اذا ما بادر اى طرف (المقصود سورية والعراق اساسا) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاظم القتال فى شهرى أيار – مايو وحزيران – يونيو وبلغ قمته فى تموز – يوليو حيث دارت معارك عنيفة فى جرش وعجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها وجودهم على الاراضى الاردنية فى حين استشهد أبو على اياد ، احد أبرز قادة فتح (١٧٩ – ١٨٣) واثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربى المشترك فى مقر جامعة الدول العربية فى القاهرة قام بعض انصار أبو على اياد باغتيال وصفى التل الذى كان يمثل الاردن فى ذلك المؤتمر بوصفه رئيسا للوزراء ووزيرا للدفاع ، وقد اعلن الفدائيون انتماءهم الى منظمة جديدة حملت اسم « أيلول الاسود » (١٨٥ – ١٨٦). أثناء ذلك ، كان الوجود الفدائى فى لبنان يتعزز يوميا بمن يفد اليه من الساحة الاردنية (١٨٩) فى حين كانت اسرائيل توجه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية فى المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقى فى الساحة الفلسطينية اية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص للحديث عن **صمود وتمايز غزة** ، ذلك الصمود الذى منع اسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذى جعل غزة مختلفة عن باقى المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الاسرائيلى . ويذكر « أوبالانس » ان البداية فى النضال الحقيقى جاءت مع نجاح كل من فتح والجبهة الشعبية فى الوصول الى غزة والانتشار فيها بدءا من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكرى مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء اسرائيل الى أعنف الوسائل (المطاردة والقتل ، نسف المنازل ، حظر التجول . .) استمرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال فحسب ، بل وضد كل الافراد الذين تعاونوا مع اسرائيل . وعندما لم تؤثر مجازر أيلول – سبتمبر على تصاعد العمليات فى القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الاسرائيلى آنذاك ، القيام بتنفيذ

حملة واسعة للقضاء على « الارهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ ــ ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الاسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم الى أماكن أخرى لتقليل كثافة السكان والتقليل من امكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٩٨ ــ ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف **للفصل العاشر** عنوانا له مغزاه الكبير : **« الجمر يخبو »** وكأنه يقول ان العمل الفدائي أصبح يعانى حشرجات الموت ! فالفدائيون طوردوا الى خارج الاراضى الاردنية ، وقيدوا فى سورية ، وهم فى طريقهم لان يحاصروا فى لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون الى طرق واساليب جديدة : مزيدمن خطفالطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزيد من « قتل الرهائن والاغتيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملغومة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوعمن التفصيل عن الهجومالاسرائيلى الكبير الذى تعرضت له الاراضى اللبنانية ، طوال اربعة أيام فى شباط ــ فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذى اختتم بدخول الجيش اللبنانى الى المناطق التى كانت القوات الاسرائيلية قد احتلتها ، والتى كان الفدائيون قد انسحبوا عنها أثناء المعركة (٢٠٦،٢٠٧).

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية ــ الفلسطينية ، وعن الازمات التى مرت بها تلك العلاقات ، والاتفاق الذى « جمد » الفدائيون بموجبه نشاطاتهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ ــ ٢١٢ ، ٢٢١ ــ ٢٢٢) .

واخيرا يلخص المؤلف فى الفصل الحادى عشر (عودة الى الوراء ونظرة الى المستقبل « الافكار الرئيسية الواردة فى الدراسة مستنتجا أن العملالفدائي » فشلفى«تحقيق» هدفه فشلا كليا « (٢٢٩) اذ أن اسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التى احتلتها فى العام ــ ١٩٦٧ . ويعزو «أوبالانس» ذلك « الفشل » الى : عدم فهم الفدائيين العرب لأصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة وتعارضها ، وعدم ظهور زعامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها أن ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية ــ يمكن ان تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ ــ ٢٣٢) .

الجانب الثاني : أبرز الاخطاء

تعانى الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش فى المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الامثلة على هذا التشويش وتلك الاخطاء ما ورد فى (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل فى العام ١٩٤٩ مع ان اغتيالهكان يوم ٢٠ تموز ــ يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست فى المانيا الغربية معددا أسماء ياسر عرفات وهانى الحسن وخليل الوزير على انهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !!! وفداحة الخطأ فى المعلومات هنا لا تحتاج الى أكثر من مجرد الاشارة ، اذ أن منشأ فتح واسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوى المستوى العادى من الاطلاع . ثم ان « أوبالانس » يخلط بين « فرقة عبد القادر » وهى احدى الوحدات التابعة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيما قائما بحد ذاته (٣٢) .

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية فى الكتاب قول المؤلف فى « ص ٥٣ » بأن حزب البعث فى العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش فى العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة ، اذ لم يعتقل الدكتور حبش فى العراق لا فى العام ١٩٦٦ ولا فى أى عام آخر . ولا يضاهى هذا الخطأ فى المعلومات سوى قول المؤلف بأن « الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية فى فلسطين (٧١) ، وقوله بأن أحمد جبريل الامين العام « الجبهة الشعبية — القيادة العامة »هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطينى » (٧٢) ثم يقع المؤلف فى تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) واغلب الظن انه يخلط هنا ما بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية — القيادة العامة » . ولعل أوسع الفجوات فى معلومات المؤلف هى تلك التى جعلته يقول بأن « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية، طالبة منه دعمها ماليا (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر أن علاقات « الشعبية » مع المملكة السعودية كانت دوما علاقات قطيعة كاملة . هذا وتتكرر الشواهد على تشوش « أوبالانس» وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التى يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية — القيادة العامة » التى يرئسها احمد جبريل فى الصفحة(١١٨).

ولا تتوقف الاخطاء عند هذا الحد . ففى الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر أيلول — سبتمبر ١٩٧٠ مشيرا الى أن أحدهم ينتمى الى فتح فى حين ينتمى الآخران الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم أن القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (أبو اياد) وهو أحد زعماء فتح ، وابراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومى وهو قائد فى فتح . وفى الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » اكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجذورها . فهو يقول ، مثلا ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » فى العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك . أم تراه « يقصد حزب العمل العربى الاشتراكى » الذى شكل نوعا من الامتداد التنظيمى للحركة ؟ كما انه يقول أن الجبهة « تخلت » عن عمليات خطف الطائرات فى العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تتخل نهائيا عنها . ومن افدح الاخطاء فى هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائدا فى قطاع غزة » مع أن عمل الدكتور حداد — كما اثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التى استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة فى بيروت منذ العام ١٩٦٩ — لم يكن فى غزة فحسب ، بل وليس له اية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشىء ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور انيس صايغ ، وهوشخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديرا لمركز الابحاث فى بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود اوبالانس فيقول بأن وديع حداد ، الذى سبق وأن صنفه « كقائد فى غزة» (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وانه التجأ « طلبا للامان » الى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!!! كما انه فى مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتارا ازاء الجهة التى قادت الهجوم الانتحارى اليابانى على مطار اللد . هذا مع العلم أن « الجبهة

الشعبية » والجيش الاحمر الياباني « أعلنا اكثر من مرة مسؤوليتهما المشتركة عن تلك العملية .

الجانب الثالث : ابرز المغالطات

على الرغم من أن كاتبا عربيا واحدا على الاقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والامانة ورجاحة الرأى العسكرى « (١) فاننا نبدى تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الاستاذ كيالى فى ختام مراجعته للكتاب ، «ان بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وان كانت قليلة ، قد تضلل القارىء لاسيما الغربى ، ففيها احكام جائرة وغير صحيحة » (٢) ان هذا القول فى رأينا هو أضعف ما يمكن ان يوصف به تحيز « أوبالانس » . وليس معنى قولنا هذا ، ان المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، أقذع العبارات وأشدها للهجوم على العرب ، دائما قصدنا القول بأن كتبا مثل كتاب أوبالانس ، وأسلوبا مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطرا اكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالى تحيزا افدح من زاوية قدرتة على الاضرار بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » المغالطات بشكل هادىء ، والدس من خلال التظاهر بالسذاجة اوالبراءة ،هذه كلها تساعد على « بيع » افكار الكاتب « الشخصية » والتي هى احكام جائرة وغير صحيحة للقارىء لاسيما الغربى « – كما ذكر أعلاه .

ويبدو أن المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة احيانا . فأن يجعل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز ان تمر ببساطةويجب ان تفهم، ضمن سياق المغالطات التي يمتلىء بها الكتاب، على أنها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية فى أكثر المواضع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم ان توقف المؤلف فى عرضه عند العام ١٩٧٢، وعند هجوم ميونخ على وجه أكثر تحديدا ، ان هذا التوقف عند هذه النقطة الزمنية بالذات كأنما يقصد به ان يترسخ فى ذهن القارىء ذلك الحدث الدموي الذي دفع اليه الفدائيون دفعا . وهو فى تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه – أى الحدث – مَثَّلَ – « بداية جديدة » فى العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » أو يتناسى ، ان يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير اليها (١٢) .

ثم ان المؤلف يحرص على ان تكون النتيجة الرئيسية التي يصل اليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « وفشلت كليا » وبدات مرحلة « انحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع فى تناقض مع نفسه عندما يذكر فى مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما اذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » أو «بداية ليقظة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ – ٢٣٤) .

كذلك يقرر « أوبالانس » – ولا ندري ان كان ذلك ناجما عن سذاجة كلية أو تساذجا

---

(١) انظر مراجعة الاستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٤٣ ، آذار – مارس ١٩٧٥ ص ١٥٣

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

متخابثا — ان « الغرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي أدى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف — هكذا وبكل بساطة — يتجاهل دور أعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول — في نظر « أوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . أيضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كأنما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العروبة ، او كأنما المسيحي بالضرورة غير عربي (١٦) . كذلك فان الغمز والمغالطة واضحان في قوله بأن الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضي المنزوعة السلاح هو الذي أدى الى ذلك الموقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب حريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينعت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « أوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يحس معه القارىء بضحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٧٦،١٢٣،٢١٢). ثم ان الكذب — حسبما يقول « أوبالانس » — يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو للحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية — بقدرة قلم المؤلف — الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨ ، ٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فأمر يحيط به — وفقا لأمانة « المؤلف — غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراءه ام «الجبهة الشعبيةالثوريةلتحرير فلسطين»(٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بأن العربى انسان لا يهمه الا « حبه الفردى للحياة وتحسين وضعه المالى » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللا مبالاة»(٢٣٠).

●●●

وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته عن طبيعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارىء ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع — وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة — الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

« ١ — ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ — ما هي التقديرات الخاطئة التي أدت الى اصطدامهم الكارثوى مع الجيش الاردني ؟

٣ — كيف تم دفعهم خارج « أرض فتح» في لبنان ؟

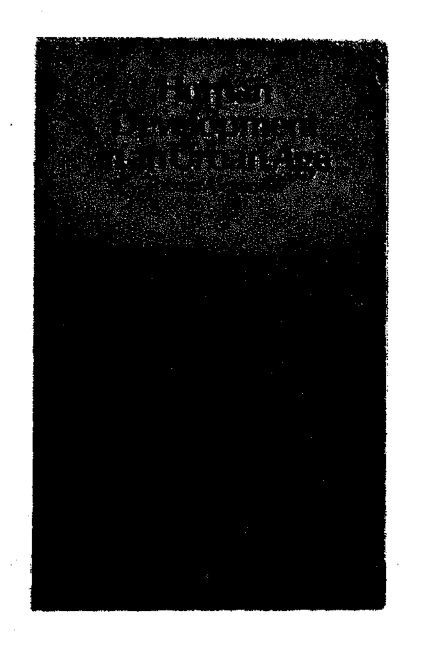
٤ ـ ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ » .

٥ ـ وكذلك ـ والكلام للناشر ـ يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربى ، يحلل الشخصيات المنغمسة فى العمل ؛ ويستقرىء الماضىء ، ويصف الحاضر ،ويعالج المستقبل » .

أي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه ـ بتواضع يعكس الحقيقة ـ بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالالمام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني ـ كما رأينا ـ من كثير من الاخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .

* * *



النمو الانسانى في عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض وتحليل : الدكتور سيد محمد يعقوب القطب

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل أن يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بعدة نشاطات خاصة في البحوث والدراسات التي تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر فى نظرته الى التطور الانسانى من دراساته فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس فى كليات الآداب والطب والتربية فى الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل فى اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة إيجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو فى الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف فى الجمع بين مبادىء النمو والاوضاع الاجتماعية فى فى المجتمع المعاصر .

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة ، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنتس هول فى بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل فى مكتبة الكونجرس الامريكى . ويقع الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بما فى ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التي استخدمت فى فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعا أى بمعدل ٤٦ مرجعا للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف فروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة أجزاء ؛ تضمن كل جزء عددا من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما فى ذلك المراجع .

يتناول **الجزء الاول بيئة الانسان ونمو المدن وقدرة الانسان على تطوير بيئته** . وفى **الجزء الثانى** يناقش المؤلف اعداد الفرد للحياة فى مجتمع المدينة الذى يتميز باختلافات فى الثقافة وانماط الحياة فى هذا العصر . ويعالج **الجزء الثالث** النمو الانسانى فى مجالات الذكاء واللغة والابداع ، ويتطرق الى المؤثرات الثقافية والوراثية . ويتناول **الجزء الرابع** النظريات ونتائج البحوث والدراسات فى مسائل التعلم والحوافز والاحاسيس عند الانسان . اما فى **الجزء الخامس والأخير** فينحو المؤلف منحى جديدا فى دراسة النمو الانسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية الذاتية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات فى ثلاثة أشياء : **الأول** ، ينظر المؤلف الى نمو الانسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الايكلوجى للكرة الارضية . **والثانى** ، تربط النمو الانسانى الى أوضاع مجتمع المدينة فى الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . **وثالثا** ، تزود القارىء باتجاه جديد مفاده أن مبادىء النمو يجب أن تفهم من خلال علاقتها المباشرة للاوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة اخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التي يكتسبها الانسان فى النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالى يتحدد دوره فى المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة فى ميدان سيكولوجية النمو ، اذ يعالج مراحل التعلم من حيث علاقتها بالبيئة ، وتأثر الانسان بها وتأثيره فيها . أى أن المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراضات مشتقة من اطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا .

البيئة والانسان :

ان دراسة النمو الانسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب أو يتغير خلال سنوات نموه ، بل أيضا على تأثير المعطيات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه المعطيات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الارض والجبال والوديان والانهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومنشآت . هذا بالاضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم فى النمو .

واذا حاولنا تناول الانسان وبيئته نجد أن لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والانسان كأى عضو آخر هو جسم فى الفضاء يتفاعل مع المثيرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه المثيرات ويتكيف معها ، أى أن البيئة تتكون من الاشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزاءات والمكافئات والتحيزات والتعميمات التي تنجم عن الاستجابة للمثيرات المختلفة . وتختلف الآراء فى الاطار النظرى للبيئة والانسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الانسان بالبيئة فى مجال مدى توفر الفرص للانسان فى تلبية احتياجاته الاساسية . أما بياجيه (Piaget) فيرى علاقة الانسان بالبيئة تدريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وادراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين اساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجموند فرويد (S. Freud)

يرى أن الخبرات السارة فى تفاعل الانسان مع البيئة تظهر فى الادراك الواعى ، أما الخبرات غير السارة فتدفن فى الشعور اللا ارادى ، وكلاهما يؤثر فى تكوين شخصية الانسان . والاتجاه النظرى الثالث يتصل بنظرية المثير (Stimulus) والاستجابة (Response) للعالم السلوكى جون واطسون (J. Watson). الذى يرى ان البيئة يمكن ان تصقل وتهذب استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون الثواب على السلوك متوافرا .

وقد أشار المؤلف الى أساسيات التفاعل مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء أو رقعة الارض التى يتواجد عليها كعوامل أساسية فى التاثير على سلوك الانسان ، مثل المأوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية من حرارة ورطوبة وانخفاض فى درجة الحرارة. ان هناك علاقة بين الخصائص المناخية والوظائف العضوية والاجتماعية للانسان . وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططى المدن أن مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام (Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجماعة ـ العام (Group Public) ، (٤) القطاع الجماعى الخاص (Groub Private) ، (٥) القطاع العائلى الخاص (Family Private) واخيرا القطاع الفردى الخاص (Individual Private) ، كما يرتبط استخدام مساحات المدن بعدة عوامل اجتماعية مثل الطبقة المثقفة ومفهومها فى الافادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال الصناعة ورجال التجارة ، اى أن لكل جماعة اتجاه فى استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه والعوامل التي تؤثر فى ضبط وتوجيه السلوك والمحافظة على هوية المجتمع وبقاءه واستمراره. ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات الاسرية فى المجتمع المعاصر ، وذكر أن المكانة الاجتماعية للاسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير بمهنة الاب . أما بالنسبة الى النظام التربوى الذى أخذ يتصل بالانسان فى السنوات المبكرة من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى الحياة) ويواجه النظام التربوى العديد من المشاكل المتعلقة بالمنهج والأسلوب والاختيار والتنظيم والادارة وحرية التعليم وغير ذلك من المشاكل. وفيما يتعلق بنظام السلطة الذى يتكون من الجانب التشريعى والجانب التنفيذى فانه يتميز بالبيروقراطية والمركزية فى اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، وتزداد مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضر. وبالنسبة الى النظام الاقتصادى فان التغيرات التى طرات فى عمليات الانتاج والتسويق والاستهلاك والاستثمار كان لها أثار نفسية واجتماعية واسعة النطاق . واما بالنسبة الى النظام الديني فانه يواجه مراحل تغير الى مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقى والحراك والتغير الاجتماعى ولاحظ انه طرأ تغييرات جوهرية فى العلاقات الاجتماعية وقلت المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية . وميز المؤلف بين التغير البطىء والتغير الثورى الشامل والسريع ، وحذر من نتائج التغير السريع فى تفكك العلاقات والبناء والتنظيم الاجتماعى .

ويخلص المؤلف الى ان الابحاث والتغيرات الاجتماعية هى مسئولة فى خبرات التنشئة التى تؤثر فى التغير فى عملية النمو الانسانى .

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف في مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية أو على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي : (١) اهمية خبرات الطفولة المبكرة وانماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) اهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفي الادوار السلوكية في مرحلة المراهقة.

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الاطفال اثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الامريكية مثل الذين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن(Slums) .

(٤) دور ومكانة ووظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الاطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ؛ الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى اخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينتقل من جيل الى آخر . أما في حالة المجتمعات المعقدة المعاصرة فانه يصعب النقل للعناصر الثقافية في وحدات متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة. وغالبا ماتسبب عملية النقل الثقافي الاحباط، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول أو المعياري . ويضرب المؤلف مثلا ارفض الشباب العديد من أساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبدا استجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي ـ الاجتماعي في أنماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والديه في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الذكاء واللغة والابداع :

يتوقف الرضاء في التفاعل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللغة عنصرا أساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الادراكي . والقدرة على استخدام اللغة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الذكاء ، اذ أن عدم اللياقة في استخدام اللغة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما تهم اللغة اولئك الذين يعنون بالحرمان الثقافي للاطفال في المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والاطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى النطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما أن اللغة تعتبر أساسية ايضا للاطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

ان السلوك الابداعي والخلاق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة فى التوصل الى الرضاء فى الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض أن الابداع والذكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير أنه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث تواجد الابداع فى الاشخاص ذوي الذكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بذكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك عندها « خلاقا » .

ويضيف المؤلف ان البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس فى المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، فى مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة باقل توجيه من الآخرين . ان الخبرات التي يكتسبها الاطفال فى النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة الى مثل هذا الانفتاح والتفاعل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » المرضي فى المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

العواطف والدوافع والتعلم

ان النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل الى تعريف دقيق للعواطف والدوافع بالرغم من التقدم فى هذه البحوث ، الا ان الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالعواطف فقد تطرق المؤلف الى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير الى ان العاطفة تتبع الحالة العضوية . اما النظرية السلوكية عند جيمز واتسون James Watson فتحدد العاطفة على أساس الامتداد والسرور والألم . وبالنسبة الى نظرية كانون — بارد Canon - Bard فانها ترسي مسئولية العواطف على الجهاز العصبي ، على اساس ان العديد من الاحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات فى النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للعواطف وارتباطها بمواقف « الأناهو » « الانا » و « الانا الاعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على ان الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

اما بالنسبة الى الدوافع فان السبب الذي يعمل الانسان بجدية ، متحملا المشاق والتعب فى سبيل الوصول الى مركز ما لا ينحصر فى الخصائص الذاتية للانسان والتنشئة الاسرية فقط بل ايضا فى المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث ان طبيعة الانسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فان المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير فى سلوك الافراد . وعندما يتغير نمط الافراد واهدافهم ، فان هذا التغير يؤثر فى المجتمع .

ويتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الادوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقود .

(٣) النواحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الانتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من المثالية .

(٧) تاثير الحكومة المتزايد على مصير الانسان .

وبعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف الى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

خاص تأثير الاسرة على التحصيل وتدعيم مستوى الطموح عند الفرد ، كما أشار الى دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي في عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي في المجتمع،والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية في المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري المعاصر بالمرونة والحرية النسبية ،والاتجاهات والثقافات المتباينة التي تؤثر في الدوافع ، وبالتالي في سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع ـ المراهقة ومرحلة الكبار المبكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل في عملية التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع في المجتمع التي تساعد أو تثبط مصير الانسان في المجتمع المعاصر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها المؤلف في الجزء الاخير من كتابه ، وقد اخذ بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات بعض القضايا الاساسية المتضمنةفي السلطة ، الاستقلالية ، القوة والصراع في المرحلة الحضارية المعاصرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح هو كيف يمكن للفرد أن يتعلم استيعاب قواعد المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويحقق السلوك الاجتماعي دون أن يكون هذا السلوك مبنيا على الخوف ؟ وبالتالى كيف يمكن لمضمون ما يستوعبه الفرد أن يتغير تدريجيا وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعي بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، او تفتيت النظام الاجتماعى .

ويقترح المؤلف ان مبادىء التعلم يمكن استخدامها في فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد الأوضاع التى تتم بموجبها العملية . مثلا ـ في حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله تنمو ايضا ، وعلى الوالدين والمسئولين في المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في حياته عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه فيها حياته .

واذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد أن هناك العديد من الاوضاع التى تسبب السلوك الانحرافي والاحباط والمضايقات ممايؤدى احيانا الى انزواء الفرد وتقليل اتصالاته مع الآخرين وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم التفاعل الايجابى يؤدى الى عدم الالتزام بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافى الفردى (الذاتى) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافى وتدعيم التنشئة السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلي والخارجي متضمنا العقاب الجسمى والمعنوى بدرجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة، ويؤكد اهمية الضبط الذى يستخدم العقاب المعنوى لمزاياه العديدة . اما كيف يمكن للفرد استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه في التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار أسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية والثقافية والتغيرات التى تحصل في المجتمع وادخال التغيرات في أساليب التنشئة حتى تستجيب للمثيرات المستجدة في الحياة المعاصرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية في مجتمع المدينة في أمريكا خاصة أن المعارضة التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي للكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة. واهم الاحداث التي ساهمت في ابراز المعارضة بعد الحرب العالمية الثانية **أولا ـ** ماقام به مارتن لوثر كينج ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، **ثانيا ـ** المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، **ثالثا ـ**

الاقصاء والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة فى المجتمع المعاصر لها ، فى حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولمواجهة هذه الراديكالية عند الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دورا كبيرا فى تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التى تتمشى مع معطيات التغير الحضارى . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التى ينتمى اليها الفرد بقصد اشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية دورا هاما فى توفير المناخ الصحى واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسايرة التغير واستيعابه فى حياته وقيمه ومبادئه .

وأما فيما يتعلق باستقلالية الفرد فى مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى استقلالية كاملة . والاستقلالية هي شيء محدود ونسبى ومتغيرة خلال فترة الحياة ، لأنها تتوقف على الاوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولأن الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية أخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعى والاقتصادى والأسرى والسياسى يحتاج الى الاتجاه التخصصى فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للادوار المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية فى المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة،كما تعرض الفرد للمواقف والضغوط والانفعالات التي يجب ان يتكيف لها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف التى يواجهها الفرد فى مجتمع المدينة الصعوبة فى تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى ان البعض يواجه صعوبة فى الانتساب الى الضاحية او المجتمع السكنى الذى يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه فى المجتمع الحضرى لا بد أن يتعلم الاشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجلد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والشعور حول متطلبات العمل المعقد والطويل ، الاهتمام والمتابعة للتعليمات للمواقفالسلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والمناهج والاساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف فى الفصل الأخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعى فى المجتمع الديموقراطي ، ويطرح التساؤل التالى : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة أوفر فى المجتمع الديموقراطي ؟ واذا كان الامر كذلك فما هى الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالى لماذا يبدو ان بعض افراد المجتمع يحصلون على رضاء اكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والحقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الافراد فى السياسات عن طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس اساسا للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمراعاة راى واتجاه الاغلبية .

وتتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضبط فى المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها فى مراحل نموه . ويجب ان يكونالتعليمعن القوة والسلطة والقدرة الذاتية

للتأثير فيها أو تحقيقها جزءا من عملية التنشئة. واذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الأسرية والتربية . ويجب أن نقر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة ايجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . واذا أردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بادوار الكبار فلا بد من أن ندرك مزايا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . واذا أردنا تحقيق التغير الاجتماعي والمجتمع الافضل فيجب علينا أن نعير الاهتمام الكافي للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن أن تكون ميدانا للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالهما عملية النمو ذاتها .

●●●

يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانساني في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصير الانسان وعملية التنشئة الاجتماعية والذكاء واللغة والابتكار والعواطف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانساني ، وهي ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسي والاجتماعي والبيولوجي .

الا أن المؤلف في مناقشته للابعاد المشار اليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية أو قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بابراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيرا الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتنشئة والذكاء والتعلم .

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الامريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعي والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حاليا في ثورات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

واذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التنشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في التوجيه الاسري والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما أن هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول تكيف الفرد مع البيئة في المجتمعات العربية الحضرية .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافي والانعزالي، كما أنه اكتفى بالتنويه عن دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعي في المجتمعات الحضرية.

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ،وسوف نعرض لها بالتحليل فى الاعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.

2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.

3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.

4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.

5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London,
1975.

* * *

العدد التالي من المجلة

العدد الاول ـ المجلد الثامن

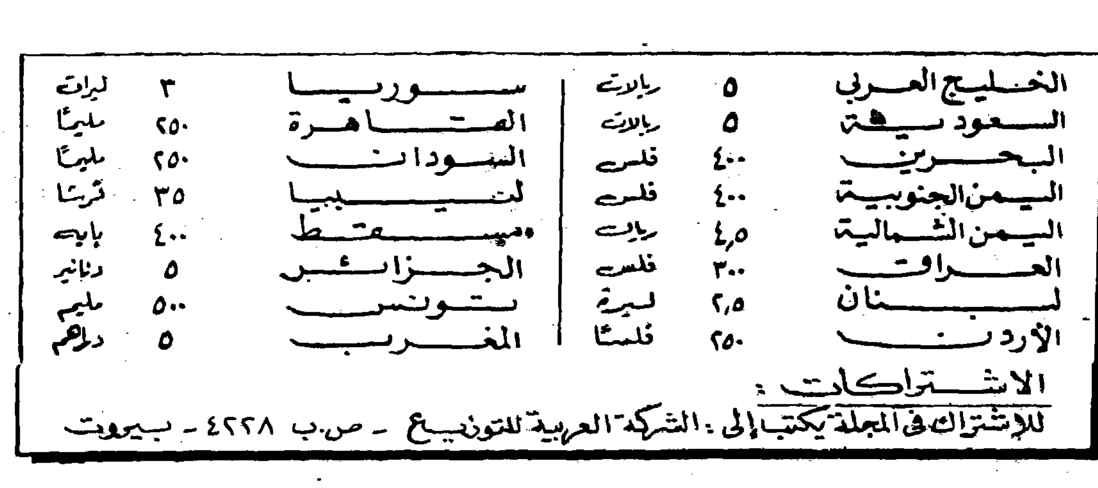
ابريل ـ مايو ـ يونية ـ ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالاضافة الى الابواب الثابته

الثمن
٢٥٠
فلسا



الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليما
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليما
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بيزة
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت